مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٨١ . محرم ١٤٣٢ هـ . ديسمبر ٢٠١٠ م

البحرين...
أزمة: تنتهي، أَم تتوارى؟

التمويل الغربي
بين الجاسوسية والتغريب

إيران المتجهة إلى إفريقيا
تبشيراً واستثماراً

هوس التفسير
السياسي

الحكومة الجديدة في العراق...
تناقضات الأضداد
وتزاحمات الولاءات

من تجديد الفقه إلى تجديد الفقيه

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

أحدث التقنيات والأجهزة الحديثة

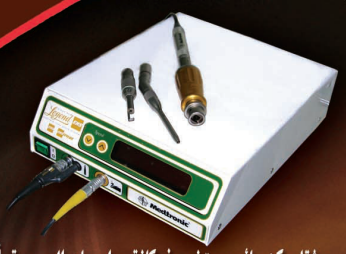

مثقاب كهربائي يستخدم في كافة جراحات الجمجمة وأورام المخ واستئصال الأجزاء العظمية من قاع الجمجمة.

الميكروسكوب الجراحي والذي يتميز بقوة تكبير وإضاءة وعدسات تتناسب وكافة جراحات المخ والأعصاب مهما كانت درجة دقتها وخطورتها .فاليوم لا حاجة إلى الشق الجراحي الكبير .فقط من١-٣ سنتيمتر يمكن إجراء معظم جراحات العمود الفقري وبالتالي يستطيع المريض الحركة بعد ساعة من إجراء العملية ، بالإضافة إلي تجنب المشاكل السابقة مثل إصابة الأعصاب والحبل الشوكي والأوردة والشرايين الدقيقة .

الجراحات النادرة التي يمكن إجراؤها بالميكروسكوب الجراحي

جراحات المخ وقاع الجمجمة.
جراحة أورام العمود الفقري والحبل الشوكي.
جراحة العيوب الخلقية للعمود الفقري عند الأطفال .
كسور الفقرات العنقية بأنواعها .

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز كروسي لينكينج

أحدث تقنية لعلاج القرنية المخروطية مع تصحيح النظر بواسطة الأشعة فوق البنفسجية

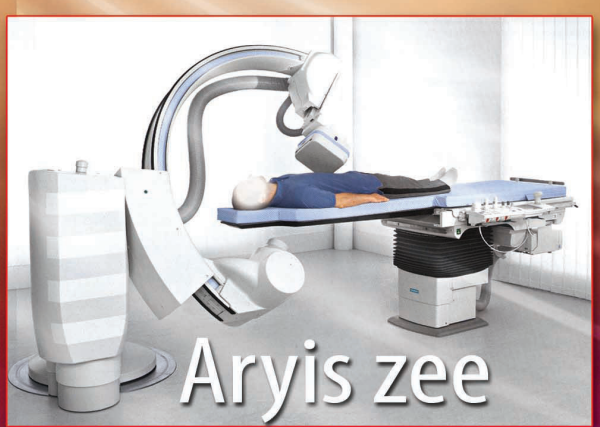

جهاز قسطرة القلب الأحدث بالمنطقة الجنوبية

أبهـــا ـ شمـال الخطوط السعودية ـ هـاتف ٢٢٩٢٢٢٢ فاكـس ٢٢٤٤٨٠١ ص ب ١٧٩٤
موقعنا على الإنترنت www.aph.med.sa البريد الإلكتروني info@aph.med.sa

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس:٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د.أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧ يورو
أوروبا	٥٥ يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠ يورو

الافتتاحية

٤ **رموزنا نبض الحياة** — التحرير

العقيدة والشريعة

٦ **من تجديد الفقه إلى تجديد الفقيه** — ياسر بن ماطر المطرفي

١٤ **منهج أهل الزيغ في الاستدلال** — د. عبد العزيز الفوزان

الغرب: قراءة عقدية

٢٠ **«الموسوعة البريطانية» ومقص الرقيب الكاثوليكي** — فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٢٢ **نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ في القرآن الكريم** — توفيق علي زبادي

قضايا تربوية

٢٦ **ضرورة في القلوب** — عماد الصامت

٢٨ **نفسيَّة المستمع** — سعيد السواح

الإسلام لعصرنا

٣٢ **اضطراب الملحدين (٢-٤)** — أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النَّص

٣٤ **هوس التفسير السياسي** — فهد بن صالح العجلان

نص شعري

٣٦ **حرقة** — د. أحمد بن يحيى بهكلي

المسلمون والعالم

٣٨ **الحكومة الجديدة في العراق تناقضات الأضداد وتزاحمات الولاءات** — حارث الأزدي

٤٢ **البحرين... أزمة: تنتهي، أَم تتوارى؟** — أحمد فهمي

٤٦ إيران المتجهة إلى إفريقيا تبشيراً واستثماراً
أمير سعيد

٥٢ حكاية أبٍ غيَّبه الأسر
فؤاد الخفش

٥٤ الأحزاب الإسرائيلية ودعم نتنياهو
هشام منور

٥٦ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٦٢ طعم الغربة — بسام شفيق الطعان

عين على العدو

٦٤ الترتيبات الأمنية للكيان الصهيوني في إطار الحل الدائم — د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٦٦ التمويل الغربي بين الجاسوسية والتغريب
الهيثم زعفان

فكرية

٧٤ قراءة نقدية لمدخل الجابري للقرآن
د. أحمد إسماعيل نوفل

اقتصادية

٨٠ ندرة الموارد الاقتصادية في العالم الإسلامي
مصطفى محمود عبد السلام

قراءة

٨٦ في مقبرة الإمبراطوريات: الحرب الأمريكية في أفغانستان
عبد الله بن محمد المديفر

الباب المفتوح

٩٠ جدلية الفقر والإيمان
هاني إسماعيل محمد

٩٢ منتدى القراء — عدَّة كتاب

الورقة الأخيرة

٩٤ العلماء وهموم الأمة
أحمد الصويان

[كلمة صغيرة]

الحريات الدينية برؤية أمريكية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد:

لقد صدر تقرير الحريات الدينية عن وزارة الخارجية الأمريكية لعام (٢٠١٠م)؛ وهو تقرير سنوي يرصد الحريات الدينية في العالم من خلال وجهة النظر الأمريكية.

إن تقرير هذا العام كالتقارير السابقة، تمَّت صياغته بعقلية الاستعلاء الأمريكية التي تنظر إلى الدول والشعوب بنظرة دونية. ومن أبرز المؤثرات والمحدِّدات التي توجِّه التقرير:

أولاً: محاكمة الواقع الدولي (سياسياً ودينياً وثقافياً) من خلال المنطلقات والقيم الأمريكية؛ فإقامة الحدود الشرعية، أو منع بناء الكنائس، أو منع المنظمات التنصيرية من العمل في البلاد الإسلامية، مصادرةٌ للحريات!

ثانياً: تحقيق المصالح والمطالب الأمريكية في الدول المختلفة؛ فهو في الغالب تقرير غير محايد، ويقدم رؤية انتقائية وغير موضوعية لكثير من القضايا، ويهدف إلى الضغط على الدول، وتمرير السياسات والأهداف الأمريكية.

وقد احتوى التقرير على بعض الإيجابيات، منها: نقد دول الاتحاد الأوروبي في مصادرة حقوق المسلمين بمنع المآذن والحملة على النقاب، ونقد الصين في التضييق على المسلمين... ونحو ذلك.

ومن الملحوظات اللافتة للنظر في تقرير هذا العام: أن وزارة الخارجية الأمريكية اعترفت بأنها تتدخل في الشؤون الداخلية للدول، وخاصة شؤون بعض الدول العربية، وأنها تقدم الدعم لبعض المؤسسات الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني لتوسيع ما تسميه بالثقافة العَلمانية في العالم العربي. وأنها تتدخل لإعادة صياغة المناهج التعليمية.

وأخطر ما في التقرير أنه يثبت تواصل الإدارة الأمريكية مع الأقليات الدينية والطائفية والعرقية، وهذا مؤشر لاختراق أمنيٍّ وسياسيٍّ في غاية الخطورة. وقد أثبتت الأحداث أن الولايات المتحدة الأمريكية تنفخ الروح في تلك الأقليات، وتستخدمها ورقة ضغط لاستثارة المشكلات والتوتر الداخلي.

ولا شك أن كثيراً من مناطق العالم تصادر حريات المسلمين، وتنتهك حقوقهم وحرماتهم، ومن واجبنا أن نسعى سعياً حثيثاً لمناصرتهم، وشدِّ أَزرِهم، ولكن من خلال قيمنا الإسلامية، وأهدافنا الإستراتيجية.

رموزنا نبض الحياة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد مرَّ عام وانصرم، جرت فيه أحداث وتغيرت فيه موازين، ولا ينبغي أن يمرَّ هذا العام هكذا؛ دون استعادة لأهم أحداثه والتمعُّن في دلائل ما جرى.

وإذا كنا نمعن النظر في أحداث عالمنا الإسلامي، فلا يمكننا إغفال أحداث جرت في البعيد مكاناً القريب تأثيراً؛ فمثلاً لا يمكن إغفال توالي الأحداث في الشرق الأقصى؛ حيث انشغل الناس عن كوريا الشمالية وبرنامجها النووي وقضية إغراق فرقاطة كورية الجنوبية بسبب اشتعال الخلافات الحدودية بين كلٍّ من اليابان وجارتيها اللدودتين (الصين وروسيا)؛ حيث صعَّدت الصين قضية احتجاز اليابان لقبطان سفينة صيد صينية، وتبعتها روسيا بزيارة للرئيس الروسي لمنطقة الكوريل؛ (وهي مجموعة جزر يابانية احتلها الاتحاد السوفييتي سابقاً أواخر الحرب العالمية الثانية)، وكان الرد الروسي على الاحتجاج الياباني المبرر عنيفاً؛ حيث أكدت الخارجية الروسية أنه لا معنى للاحتجاج الياباني؛ لأن الجُزُر أراضٍ روسيةٌ، والملاحظ هنا ليس فقط التحرش باليابان أو بالأصح: الاستفراد بها؛ بل الغياب الواضح للولايات المتحدة الأمريكية؛ وهو دليل ضعف إستراتيجي يمنعها من اتخاذ مواقف مباشرة ضد بلدين يستطيعان بسهولة تعميق الحفرة التي وقعت فيها في أفغانستان، إنه ضعف يبرر الحرص الشديد، بل الهوس في سبيل استرضاء الهند والتعامل معها كحليف إستراتيجي، ويبرز ذلك في طبيعة المواضيع المطروحة أثناء الزيارات الرسمية المتبادلة بين الطرفين، التي تصب في محاولة استمالة الهند للمعسكر الغربي؛ حتى لو كان على حساب باكستان. ولا ننسى تصريح رئيس الوزراء البريطاني بأن بريطانيا لن تسمح أن تكون باكستان مصدراً للإرهاب، وهو الذي يعتبر عدائياً إذا صدر من لندن وأكثر عدائية من إسلام آباد؛ ولكنه قمة العدائية إذا كان صادراً من نيودلهي، إنه يمثل قمة النفاق السياسي للهند ومنتهى الاستخفاف بباكستان وحكومتها التي يديرها حالياً الشيعة. إن النظرة

الغربية لباكستان أنها بلد سُـنِّي فيه أقلية شيعية؛ ولذا فإنه في الظروف الحالية وعلـى الرغم من أنه بلد خادم ومطيع، وكان دوره حاسـماً في إخراج الروس من أفغانستان ومن ثَمَّ سقوط الاتحاد السوفييتي سـابقاً، فإن إضعاف باكستان أو تدميرها سـيكون ضرورياً لبقاء أمريكا في أفغانستان. ومن هنا نفهـم إقحامَ الحكومة ودفعَها دفعـاً للدخول في صراع داخلي في أقاليم القبائل السُّنية، ونفهم كذلك انتهاكَ أمريكا شـبه اليومي للسـيادة في هذه المناطق بالذات؛ إنه مشروع تقسـيم قسريٍّ لباكسـتان؛ فمن الطبيعي عندما يقوم جيش الحكومةً بتدمير مدن وقرى إقليم كامل وتشـريد أهله بدون اسـتثناء، والإعلان عن تكرار العملية تباعاً في أقاليم أخرى، نقول: مـن الطبيعي أن يكون الردُّ ظهورَ دعوات انفصال عامٍّ وتمرُّد.

إن باكسـتان تُدفَع دفعاً نحو الهاوية؛ فهل يعي المسلمون ذلك؟ وإذا كانت الورطة الأمريكية في أفغانسـتان قد تسببت في رزوح باكسـتان تحـت ظغوط هائلة، فإنـه أعطى أيران مجال مناورة كبير؛ فوزير الدفاع الأمريكي يحذر دول أمريكا الجنوبية من التعاون مع إيران في المجال النووي؛ أي أن نفوذ إيـران ومجالها الحيوي يتمدد في إفريقيا وأمريكا الجنوبية، وتمت الغلبة أخيراً لرجل إيـران في العراق؛ وهو الذي حكم العراق بعد انتهاء حكمه بصورة مُطْلَقة، ولم تستطع أمريكا أن تفرض الشـيعي الآخر الذي هو الأقرب إليها؛ وهذا ليس لأن أمريكا غير قادرة، بل لأنها ما زالت تحتاج إيرانَ وأدواتها في المنطقة؛ فلم يعد هناك شـك في أن الغرب استوعب أنه كما كانت إيـران الصفوية حليفة للغرب ضد الدولة العثمانية في الماضي، فماذا يمنع أن تكون إيران اليوم حليفة للغرب وشريكة في السـيطرة على العراق واليمن ولبنان وبقية المناطق التي لهم فيها وجود.

وهنا لا ننسـى أنه بعد تمكُّنهم حالياً من السـيطرة على العراق تحت المظلـة الأمريكية، ظهر لنا مَنْ نَزَع غطاء التقية وصـرح بما كان حبيس الكتب والمجامع الخاصة وجرى إعادة العمل بالسب العلني والوقيعة في الصحابة وأمهات المؤمنين، رضـي الله عنهم جميعـاً، وجرى نقل ذلك فـي الفضائيات وكانت ردَّة الفعل السُّنية دليلاً على أصالة أمتنا ونبض الحياة في أوصالها، وكان ردُّ الشيعة ما بين منكر، وبين متهجم على مثيري الفتنة، ويقصد بهم أهل السُّنة الذين أظهروا سخطهم وغضبهم، وبين من كان أكثـر واقعية وأفتى بحرمة التعرض لرموز السُّنة، ليس لأنها محترمة لدية فهي ليست من رموزه؛ بل لخوفـه من تأثير إظهار هذا المعتقـد على فرص التمدد الشيعي في المجتمعات السُّنية.

إنها عملية جس نبـض. وإذا كان الغرب يمعن في تكرار التعرض للرسول ﷺ واتخاذ محاربة النقاب راية يلتف حولها كلُّ كاره للإسلام؛ وإن تسـتروا بالحفاظ على العَلمانية، فإن من يتعرض لرموزنا يشاركهم في الخندق نفسه.

إننـا نحـن المسلمين سنظل نفخـر بأبي بكـر الصديق - رضي الله عنه - قاهـر المـرتدين وفاتح العراق، وبعمر الفاروق - رضي اللـه عنه - الـذي دك عروش فارس وأتم فتوح الشـام ومصر، وبعثمـان الذي جمع القـرآن وأتم الفتوح في الشـرق وإفريقيا، وبعلي - رضي الله عنه - الـذي نُصِر به الدين، وأُعليَت به راية سيد المرسلين ﷺ، وسنفخر بجميع أمهات المؤمنين وآل بيت نبينا الطيبين الطاهرين، وسـنفخر كذلك بكل عَلَم في تاريخ أمتنا: من قتيبة بن مسـلم إلى طارق وصلاح الدين وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب... وغيرهم كثير.

من تجديد الفقه إلى تجديد الفقيه

ياسر بن ماطر المطرفي(*)
Ysair10001@gmail.com

مدخل مفاهيمي:

عادةً ما تسيطر على الوسط الفكري مجموعة من المفاهيم التي تظل ممسكة بزمام البحث في تلك الأوساط على اختلاف مرجعياتها، ويظل الجدل الفكري متمركزاً حولها بشكل أو بآخر، وكلما كانت تلك المفاهيم مستندة إلى مرجعية تمتلك عوامل البقاء كلما بقيت فاعليتها واستمرارها؛ كما هو الحال في مرجعية الإسلام؛ ولذلك فإن الدعوات الفكرية الحداثية التي تسعى إلى إحداث قطيعة معرفية (أو ما يسمى بـ «القطيعة الإبستمولوجية»[1]) مع المفاهيم الإسلامية المحكَمة، لا يمكنها أن تنجح في سعيها؛ لأن بقاء هذه المفاهيم مرتهَن ببقاء الإسلام نفسه؛ ولذلك فإن هذه الدعوة بالقطيعة مستلهَمَة من التجربة الغربية التي أحدث فيها الفكر الغربي - كما يقول دعاة القطيعة - مجموعة من القطائع الإبستمولوجية في تاريخه، كالقطيعة بين اليونان والرومان والعصور الوسطى، ثم القطيعة بين العصور الوسطى وعصور الحداثة وهكذا، بداية على يد غاليلو وديكارت، ثم نيوتن وكانط ثم آينشتاين وباشلار.

وإننا لو سلمنا بأن تلك المحاولات كانت تمثل قطيعة حقيقية مع المراحل التاريخية السابقة في هذا الفكر؛ فإن محاولة نقل هذه التجربة إلى واقع الفكر الإسلامي هي محاولة استنبات في أرض غير صالحة لذلك، وسبب ذلك: أن كثيراً من تلك المفاهيم التي صنعها الفكر الغربي هي مفاهيم بشرية خاضعة للبيئة التي نشأت فيها، والظرف التاريخي الذي ولدت فيه، بينما مفاهيم الإسلام المُحْكَمة هي مفاهيم إلهيةُ المصدرِ، مطلقةُ الزمانِ والمكانِ؛ فلا يمكن أن يحدث في الواقع الإسلامي قطيعة مع مفاهيم التوحيد، والإيمان، والحق، والعدل... ونحوها.

أما المفاهيم البشرية الزائفة فلقد جاء الإسلام بالدعوة إلى تخليص الناس منها وإحداث القطيعة التامة بينهم وبينها؛ فهو - سبحانه - ينهى عن الخرافة والشرك فيقول عن ذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

ويحذر من مفهوم الغلو فيقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

ويريد - سبحانه - أن يحرر العقل الإنساني من مفهوم تبعية الآباء والأجداد فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾. [البقرة: ١٧٠]

(*) أكاديمي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

(١) القطيعة الإبستيمولوجية: مصطلح فلسفي أسسه العالم الفرنسي غاستون باشلار، ويذهب فيه إلى أن حركة تاريخ الفكر تمر بمجموعة مراحل انتقالية كل مرحلة تحدث قطيعة وانفصالاً مع مفاهيم وبنية تفكير المرحلة السابقة. وهي فكرة ليست محل اتفاق تام في الحقل الفلسفي الغربي، لكن عدداً من المفكرين العرب: كمحمد عابد الجابري ومحمد أركون وهاشم صالح، يدعون لتطبيق هذه الفكرة في واقع الفكر الإسلامي.

ويتحدث - سبحانه - عن مفهوم الفساد ويصحح طريقة النظر إليه فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاّ يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ١١ - ١٢]

وبناءً على ذلك فنحن بحاجة دائمة إلى دعوة الإنسان لتحرير عقله من تلك المفاهيم الزائفة، وإلى إحداث نوع من الوعي بالمفاهيم الإسلامية المحكَمة، وبثِّ الروح من جديد في هذه المفاهيم.

وأحد تلك المفاهيم الخصبة الأصيلة في الفكر الإسلامي، هو مفهوم (التجديد)، وهو من المفاهيم التي أحدثت كثيراً من الجدل في الوسط الفكري في القديم والجديد، وقد يكون من أسباب ذلك الإجمال الذي يكتنف لفظ (التجديد)، وهذا ما جعله عُرْضة لأن تختلف المناهج في معالجته تبعاً لاختلاف فكر أصحابها، حتى تمكَّن بعض دارسيه من استخدامه لتغيير معالم الدين بدعوى تجديده؛ لكن هذا المفهوم يحفزنا نحو تجديد الرؤية في الموضوعات التي نتطرق إليها تجديداً ملتزماً بمحكمات الشريعة ومبادئها، وهذا ما يجعلنا مطالَبين على نحو دائم بتجديد طريقة تناولنا لكثير من القضايا التي تشغل هذا الواقع المتجدد. وليس المقصود هنا البحث في هذا المفهوم، وإنما تسليط الضوء على جانب من جوانبه فهو يُستخدَم على مستويات عديدة وفي مجالات مختلفة، يعنينا منها في هذا المقال التجديد على الصعيد الفقهي؛ أي: (تجديد الفقه)، والمقصود من الحديث حول هذا المفهوم محاولة نقل مركزية الحديث من حقل تجديد الفقه إلى حقل تجديد الفقيه؛ وهو حامل هذا الفقه. وموجب هذا النقل أن مَنْ يتابع المعالجات المُحْكمة التي طُرحت لنقاش هذا الموضوع يرى اقتصارها على جانب واحدٍ من جوانبه؛ وهو جانب تجديد العلم نفسه، في حين أن ثمة جوانب أخرى ربما لا تَقِل أهمية عن سابقتها غاب الحديث عنها أو كاد، ومنها الحديث عن تجديد (الفقيه)؛ أي: إعادة النظر في وسائل إعداده وتأهيله.

وإن عملية نقل مركز الحديث نحو تجديد الفقيه لا تعني القطيعة مع مفهوم تجديد الفقه، ولكنها تعني بشكل أساسي توسيع مساحة البحث في جوانب أخرى مهمة في هذا الموضوع.

لماذا تجديد الفقيه؟

في وقت تعقدت فيه مسائل الفقه الواقعية نظراً لتعقُّد الواقع وتشابكه وتداخله، أصبح من الضروري إعادة هيكلة المحاضن التربوية والعلمية التي تصنع الفقيه؛ فلم تَعُد إشكالية هذا الموضوع تنحصر في جانب العلم نفسه وتجديد أساليبه وموضوعاته؛ بل تجاوزت ذلك إلى الفقيه الجديد ونمط تنميته وتطويره. وقد أشار النبي ﷺ في قوله : «وربَّ حامل فقه وليس بفقيه»[1] إلى التفريق بين الفقه نفسه وبين حامله؛ وهو ما يعني أن حَمْل الفقه لا يُلبِس صاحبَه لقب (الفقيه).

لقد أصبح كافياً في وعي كثيرين أنه حتى يتسمى الدارس باسم (الفقيه)، وحتى يباشر الحديث حول القضايا الفقهية، لا بد أن يضبط جملة الفروع الفقهية من بعض الكتب المختصرة، ويستحضر أدلتها، ويعرف الراجح فيها وبذلك يحظى بأن يكون واحداً من الفقهاء، وبسبب هذا النمط من التفكير قلَّت العناية بالبرامج التدريبية العملية لتمنية الفقيه وتطويره. يقول الطاهر بن عاشور في وصف هذه الحال: «وكان معنى العلم عندهم: هو سعة المحفوظات - سواء من علوم الشريعة أم من علوم العربية - فلا يعتبَر العالم عالماً ما لم يكن كثير الحفظ، وليس العلم عندهم إلا الحفظ؛ لأنهم كانوا يميلون إلى شيء محسوس مشاهَد في العالِم؛ ومن المعلوم أن الذكاء والنباهة لا يشاهَد لأحد»[2].

إنه لم يعد كافياً حتى يكون المتعلم فقيهاً فاعلاً في واقعه أن يكتفي بما ترسمه بعض كتب التراث من شروط لمواصفات الفقيه؛ لأن ثمة معارف جديدة تتطلب من فقيه اليوم قَدْراً من الدراية والإحاطة لا نجد الحديث عنها بالقدر الكافي في صورة الفقيه القديمة، وإن السعي لاستنساخ ذلك دون محاولة تطويره أو معرفة الفوارق بين الحاجات العلمية التي كان يتطلبها واقعه وبين حاجات واقعنا العلمية، يعني مزيداً من خلق المشكلات في حياة المتلقين؛ بل ربما أدى ذلك إلى إضعاف هيبة الفقه الإسلامية، وتعرُّضها لكثير من النقد والتشكيك بسبب عدم تأهيل حامليه التأهيلَ المناسب لهذه المرحلة الجديدة، ولقد كانت هذه المشكلة - وهي ضعف تأهيل الفقيه - إحدى أسباب تقليل المتكلمين من شأن الفقه وجعلهم أغلبَ فروعه من باب الظنون وليست من باب اليقين؛ وذلك بسبب ضعف استعداد الفقهاء الذين قدَّموا لهم الفقه في تلك المرحلة. يقول ابن تيمية في ذلك: «إنه لكثرة التقليد والجهل والظنون في المنتسبين إلى الفقه والفتوى والقضاء،

(١) أخرجه الترمذي.
(٢) أليس الصبح بقريب، ابن عاشور، (ص: ٤٦).

اســـتطال عليهم أولئك المتكلمون، حتـــى أخرجوا الفقه الذي نجد فيه كل العلوم من أصل العلم، لما رأوه من تقليد أصحابه وظنهم»[1].

إن ما قاله ابن تيميـة من استطالة المتكلمين على الفقهاء فـــي ذاك الزمن، ربما قد يتكرر فـــي هذا الزمن لكن بصورة أخرى وهي صورة التشكيك الفكري التغريبي في أحكام الفقه الإســـلامية، وإن من أهم ســـبل مدافعته: التأهيل المناســـب للفقيه الجديد الذي يستوعب مقالات هذا الفكر حتى يُحسِن مدافعته، «ومن لم يعرف أسباب المقالات – وإن كانت باطلة – لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم»[2].

وإن حالـــة الضعـــف الفقهي في كتب متأخـــري الفقهاء هي التي جعلت شـــيخ الشاطبي يوصيه بعدم الانشغال بكتب الفقه المتأخـــرة في زمانه والاكتفاء بمـــا كتبه المتقدمون في الفقه؛ حيـــث يقول: «وأما ما ذكرتُ لكـــم من عدم اعتمادي علـــى التآليـــف المتأخرة، فلم يكن ذلك منـــي – بحمد الله – محضَ رأيٍ؛ ولكن اعتمدت بســـبب الخبـــرة عند النظر في كتب المتقدمين مـــع كتب المتأخرين، وأعنـــي بالمتأخرين: كابن بشـــير (ت بعد ٥٢٦هـ)، وابن شـاس (ت ٦١٠هـ)، وابن الحـاجـــب (ت ٦٤٦هـ)، ومن بعدهم، ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه أوصاني بالتحامـــي عن كتب المتأخرين، وأتى بعبارة خشنة في السمع لكنها محض النصيحة»[3].

لكن الونشريســـي كشـــف عن تلك العبارة الخشنة التي أبهمها الشـــاطبي، فقال بعد ذكر كلامه: (والعبارة الخشـــنة التي أشـــار إليها كان – رحمه الله – ينقلها عن شـــيخه أبي العباس أحمد القباب (ت حوالي ٧٧٩هـ)، وهي أنه كان يقول في ابن بشـــير وابن الحاج وابن شاس: فسَّدوا الفقه)[4]؛ أي: أفسدوا الفقه.

وحتـــى يتضح عمق الحاجة لإعادة صناعة الفقيه الجديد فَلْنبتعد قليلاً عن حالنا اليوم وَلْنتأمل حجم التعقيدات الواقعية المستقبلية في ذهن المتعلم الذي نريد تأهيله ليكون فقيهاً لأمته بعد ثلاثين سنة؛ هل الطرق المنهجية المتداولة اليوم في الساحة العلمية كافية لتأهيل هذا الفقيه ليكون الرجل المناســـب لتلك المرحلة؛ أم أننا بحاجة لآليات عملية جديدة تساعد في تأهيل الفقيه الجديد لتعقيدات المستقبل المنتظرة؟

أتصور أن هذا التســـاؤل هو من جنس التساؤلات الكبيرة التي من غير المنطقـــي أن يتلخص جوابها في مقال مختصر كهذا، وحَسْـــبُ هذا المقال أن يضع مجموعة من الرؤى التي يمكن أن تساهم في توضيح هذه القضية.

تجديد الفقيه مسؤولية مَنْ؟

يحيلنـــا الحديث عن مســـؤولية تجديـــد الفقيه وتأهيله إلى الحديث عن واقع العمل المؤسســـي في الوسط التعليمي الشـــرعي؛ فإن الراصد لحركة التعليم خارج إطار الجامعات والكليـــات يجد أنها تفتقد كثيراً لنظام مؤسســـي مبنيٍّ على رسم إســـتراتيجيات تعليمية بعيدة المدى، وربما يصدق في واقعنـــا – وإلى حد كبير – ما قالـــه مالك بن نبي: «لم أكن أعلم أن العمل الجماعـــي بما يفرضه من تبعات إنما هو من المقومات التي فقدها المجتمع الإسلامي ثم لم يسترجعها بَعْدُ خصوصاً بين مثقفيه»[5].

فبينمـــا نلاحظ توجُّها منظَّماً نحـــو تخريج النجوم والرموز في الفـــن والرياضة والإعلام، لا نجد جهـــداً يوازيه في تأهيل وتخريج وتطوير أصحاب التخصصات الشرعية، وإن الذي يتابع سِـــيَر كثيرٍ من فقهاء اليوم يجد أن الذي صنعهم في الغالب هو جهدهم الذاتي – بعد عون الله سبحانه – ولم تصنعهم مؤسسات تعليمية معيَّنة.

وإن ما سيُطرح من رؤى وأفكار حول هذا الموضوع – سواء فـــي هذا المقال أو غيره – ربمـــا تُفهَم على أنها دعوات مثالية، وهـــذا صحيح إذا ما نظرنا إليها على المســـتوى الفردي وليس المؤسسي؛ أما على صعيد المؤسسات فهي ليست كذلك، كما أن التطبيق العملي كفيل بأن يُهذِّب هذه المثالية حتى تتناســـب مع الواقع العلمي.

تجديد ملكات الفقيه:

إن الدراســـة الفقهية اليوم تتســـم بالتقرير المدرسي من خلال دراســـة الكتب المذهبية المعتمَـــدة، ويغيب فيها الدرس الذي يعتني بالتدريب الفقهي أثنـــاء عملية التأهيل الفقهية، والـــذي يتدرب فيه المتفقه على مجموعة من المهارات الفقهية لتبني له عدداً من الملَكات العلمية؛ فالفقيه الجديد يتطلب في إعداده وتكوينه جملةً من المهارات التي تســـاعده في تحقيق رسالته بالشـــكل المطلوب في هذا الزمن، ومن المهارات التي ينبغي أن يُدَرَّب عليها الفقيه الجديد:

(١) الاستقامة، ابن تيمية، (١/ ٥٦).
(٢) الاستغاثة في الرد على البكري، ابن تيمية، (١/ ٢٤٤).
(٣)فتاوى الإمام الشاطبي، (ص: ١٢٠ – ١٢٢).
(٤)المعيار المعرِب والجامع المغرِب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، (١١/ ١٤٢).
(٥)مذكرات شاهد على القرن، مالك بن نبي، (ص ٢٣٦).

أولاً: بناء مَلَكَة التفكير الفقهي:

التفقه في أصله عملية فكرية؛ لأنه راجع في أصل معناه إلى (الفهم)؛ فهو نوع من ممارسة التفهم في نصوص الشرعية، وعملية التفكير هذه لا تتأتَّى من خلال التلقين المجرد للفروع الفقهية، وإنما من خلال توجيه الدرس الفقهي إلى حَلْقات علمية خاصة تهتم بتطوير عقلية المتفقه الجديد وتمرينها حتى تكتسب القدرة العالية على معالجة المسائل وإدراكها.

وحتى لا يجاهد المتفقه الجديد في غير ميدانه، ولا يستنبت عقليته في أرض غير صالحة؛ فمن المهم أن تكون عملية التمرين والتطوير في ميدانها المناسب، ومن تلك الميادين التي تساعد على تقوية تفكير الفقيه ما يلي:

١ - بناء المَلَكة التي تعتمد على إرجاع فروع الشريعة إلى كليَّاتها العامة: وذلك حتى يُعرفَ مدى اطراد التشريع الإسلامي، ويتمكن الفقيه من إرجاع الفروع بعضها إلى بعض، وإظهارها على وجه متماسك مطَّرد.[٠] والمتأمل في واقع التعليم الفقهي اليوم يجد أن الغالب عليه تقرير آحاد المسائل الفقهية بعيداً عن الاهتمام بربط هذه المسائل بمثيلاتها وما يعضدها من كليات الشريعة وأصولها الكبرى. يقول ابن رشد منبهاً إلى هذا المعنى: «رأينا أن نذكر في هذا الكتاب (كتاب الصرف) سبع مسائل مشهورة تجري مجرى الأصول لما يطرأ على المجتهد من مسائل هذا الباب؛ فإن هذا الكتاب إنما وضعناه ليبلغ به المجتهد في هذه الصناعة رتبة الاجتهاد... وبهذه الرتبة يسمى فقيهاً لا بحفظ مسائل الفقه؛ لو بلغت في العدد أقصى ما يمكن أن يحفظه إنسان كما نجد متفقهة زماننا يظنون أن الأفقه هو الذي حفظ مسائل أكثر»[١].

وبسبب فَقْدِ هذه المَلَكة أصبح من غير المستغرَب أن يُقرِّر بعض الفقهاء مسألة في بابٍ على وجهٍ، ثم يقرر في نظيرها تقريراً مخالفاً لها في باب آخر وكلاهما يرجعان إلى تأصيل واحد. يقول ابن تيمية عن حال بعض متبعي الأثر ممن قلَّت معرفته بطريقة التعامل مع القياس الصحيح: «وتجد المستن الذي يشاركه في القياس قد يقول ذلك القياس في مواضع، مع استشعاره التناقض تارة، وبدون استشعاره تارة؛ وهو الأغلب»[٢].أما الجويني فيقول أثناء بيانه لأصول مذهب الشافعي: «ومن أراد أخذ المذهب (أي: الشافعي) مِنْ حفظ الصور: اضطرب عليه أمثال هذه الفصول، ومن تلقَّاه من معرفة الأصول: استهان عليه أن يدرك هذه الفصول». وفي نهاية الأمر فإن «نقل الفقه إن لم يعرف الناقلُ مأخذَ الفقيه، وإلا فقد يقع فيه الغلط كثيراً»[٣].

٢ - بناء المَلَكة التي تراعى فيها الأحكام اللازمة عندما تتحول إلى أحكام عارضة؛ أي: عندما يتحول الحكم الواجب إلى حرام، والحرام إلى واجب أو مباح؛ بحسب العوارض التي تَعرض لهذه الأحكام وَفْقاً لفقه الضرورة أو المشقة أو الحاجة: إن من يتأمل الفقه يجد أنه في الغالب يعطي المتفقه الأحكام اللازمة؛ لكنه في كثير من الأبواب قد لا يعطيه الأحكام العارضة، فهو يقرر الحكم بناءً على الأصل؛ لكن هذا الأصل قد يحتف به مجموعة من الأمور الواقعية التي قد تغيِّر من طبيعة النظر في المسألة؛ وحينئذٍ فإن طريقة التعامل معها محكومة بمجموعة من المعايير ليست من اهتمام كتب الفقه وإنما مجال بحثها: إما علم القواعد الفقهية: كقاعدة المشقة والضرورة والعرف ونحو ذلك. أو علم أصول الفقه في مبحث عوارض الأهلية، ومبحث الأسباب والشروط والموانع.

إن كثيراً من المتفقهة يمكنه أن يضبط قاعدة المشقة أو قاعدة الضرورة والحاجة من جهة التنظير الكلي العام لكنه قد لا يُحسِن تنزيلها على الواقع، وحينها ربما قد يحصل منه إفراط أو تفريط في التطبيق، وسبب ذلك: أنه لم يتدرب على ذلك في الدرس الفقهي، وهذا ما يؤدي به إلى ضعف الملكة في هذا الباب، كما أن التدريب على هذه المَلَكة وإن لم يُمَكِّن المتفقه من تنزيل بعض أحكامها على الواقع، فليس أقلَّ من أن يساعده على تَفَهُّم بعض فتاوى العلماء التي ذهبت إلى القول بجواز مسألة هي في أصلها حرام بناءً على قاعدة الضرورة أو المشقة أو الحاجة أو العكس، وهذا التفهم من شأنه أن يساهم أيضاً في معالجة واحد من أهم أسباب الفرقة والتناحر التي يشهدها الوسط الشرعي. يقول ابن تيمية في ذلك: «فإن كثيراً من الناس يستشعر سوء الفعل، ولا ينظر إلى الحاجة المعارضة له التي يحصل بها ثواب الحسنة ما يربو على ذلك؛ بحيث يصير المحظور مندرجاً في المحبوب، أو يصير مباحاً إذا لم يعارضه إلا مجرد الحاجة...» ثم تحدث عن الصورة الثانية وقال: «فهذا القسم كثر في دول الملوك؛ إذ هو واقع فيهم وفي كثير من أمرائهم، وقضاتهم، وعلمائهم، وعبَّادهم؛ أعني: أهل زمانهم، وبسببه نشأت الفتن بين الأمة»[٤].

(١) بداية المجتهد، ابن رشد، (١/ ٦٦٤).
(٢) الفتاوى، ابن تيمية، (٤/ ٤٦).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، (٢/ ٥٤١).
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٨/٣٥).

كما أن التدريب على هذا النوع من التفقه يُعيِّن على إعادة حالة التوازن بين من جَعَل الحُكم العارض الذي فرضته بعض الظـــروف حكماً لازماً في جميع الأزمنة؛ لأن الخطأ في ذلك ربما يتســـبب في الجناية على بعض أحكام الشـــريعة، وإلى هـــذا نبَّه ابن القيم عندما بـــيَّن خطأ بعض المتفقهة في فهم بعض تصرفات عمر – رضي الله عنه – فقال: «والمقصود: أن هذا وأمثاله سياسة جزئية بحسب المصلحة يختلف باختلاف الأزمنة، فظنها من ظنها شـــرائع عامـــة لازمة للأمة إلى يوم القيامة، ولكلٍّ عذر وأجر»[1].

٣ - بناء المَلَكة التي تُحسِن التوازن بين اعتبار المدلول اللفظي للنـص وبين تفعيل مقصـوده: إن الدرس الفقهي اليـــوم يتحدث عن المقاصد وأهميتها حديثاً نظرياً، وهذا أمر إيجابي لا بد من تكثيفه؛ لكن هذا الدرس في المقابل لا يعتني بالتدريب الفعلي لتطبيق فقه المقاصد، والإشكال الحقيقي في هذا الموضوع يكمن في أن من يحســـنون التنظير والضبط لموضـوع المقاصد كثيـــراً ما يحصل بينهم نزاع أثناء التطبيق؛ وذلـــك لأن الدخول في التفاصيل هو الـــذي يبين دقة الفهم وعمق الإشكال، والطاهر بن عاشور أشار إلى هذا المعنى وبيَّن أن المفاصل الكبرى في باب المقاصد والمصالح والمفاسد، مقام سهل؛ لكن المشكلة تتعقد عندما تأتي التفاصيل والتطبيقات، فقال: «فأصول المصالح والمفاسد قد لا تكاد تخفى على أهل العقول المستقيمة؛ فمقام الشريعة في اجتلاب صالحها ودرء فاسدها مقام ســـهل، والامتثال إليه فيها هين. واتفاق علماء الشـــرائع في شـــأنها يســـير، فأما دقائق المصالح والمفاسد وآثارها ووســـائل تحصيلها وانخرامهـــا فذاك المقام المرتبك؛ وفيه تتفاوت مدارك العقلاء اهتداءً وغفلةً وقبولاً وإعراضاً»[2].

وهذا النوع من البحث المقاصـــدي التفصيلي هو البحث الأخطر في باب المقاصد. يقول ابن عاشـــور في موطن آخر من كتابه: «وفـــي إثبات هذا النوع من العلـــل (وهو ما كانت علته خفيـــة) خطر على التفقه في الديـــن؛ فمِن أجل إلغائه وتوقِّيه مالت الظاهرية إلـــى الأخذ بالظواهر ونفوا القياس، ومن الاهتمام به تفننت أساليب الخلاف بين الفقهاء»[3].

وإن تدريـــب المتفقه من زمـــن مبكر على محاولـــة التطبيق والتدريب على استعمال المقاصد في حقول التعليم الخاصة وتحت الإشـــراف العلمي المتزن، ســـيعين على تجنُّب كثير من مشكلات التفعيـــل المقاصدي التي نشـــهدها اليوم؛ فإنـــه على الرغم من الضعـــف التأصيلي لفقه المقاصد عند بعض من يمارســـه إلا أن مشكلات التفعيل المقاصدي لا تنحصر في ذلك، بل من مشكلاته أيضـــاً: عدم امتلاك كثيرٍ ممن يمـــارس التفعيل المقاصدي لمَلَكة هـــذا التعامل التي تحتـــاج إلى قَدْر من الخبـــرة والنضوج حتى يمتلك الفقيه ناصيتها، وابن تيمية أشار إلى أهمية هذا النوع من الإدراك وأنه يتطلب خبرة طويلة وممارســـة عملية فقال: «العلم بصحيح القياس وفاســـده من أجـــلِّ العلوم، وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشريعة ومقاصدها وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التعداد»[4].

٤ - ويتبـع ذلك بنـاء المَلَكة التي تُحسِـن التعامل مع فقه المصالح والمفاسـد: وإن بنـاءَ هـذه المَلَكة سـيسـاعد كثيراً في التعـامل مع كثيرٍ مـن الوقائع المشكِلة، وسـيسـاعد أيضـاً – وبشـكل كبير – على تجـاوز كثيـــرٍ من الخلافـات العلمية التي تحصل بناءً على عدم الاســـتيعاب الكافي لهذه القضية. يقـــول ابن تيمية: «وهذا باب التعارض باب واســـع جداً، لا ســـيما في الأزمنة والأمكنة التـــي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة؛ فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المســـائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة؛ فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم؛ فأقوام قد ينظرون إلى الحســـنات فيرجِّحون هذا الجانـــب وإن تضمن ســـيئات عظيمة، وأقـــوام قد ينظرون إلى الســـيئات فيرجِّحون الجانب الآخر وإن ترك حســـنات عظيمة، والمتوســـطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم العمل بالحســـنات، وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء... فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل؛ قد يكون الواجب في بعضها... العفو عن الأمر والنهي في بعض الأشياء لا التحليل والإســـقاط: مثل أن يكون نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف أعظم منفعة من ترك المنكرات فيسكت عن النهي خوفاً أن يســـتلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر»[5].

وهذه المهارات والـمَلَكات الفقهية لا تؤخذ بمجرد التقرير النظري ما لم يكن معها ممارســـة عملية تدريبية. قال رجل لإياس بن معاوية: علمني القضاء. فقال: «إن القضاء لا يُعَلَّم،

(١) الطرق الحكمية، ابن القيم، (١/ ٤٧).
(٢)مقاصد الشريعة، ابن عاشور، (ص ٢٥٨).
(٣) مقاصد الشريعة، ابن عاشور، (ص ١٥١).
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٠/ ٥٨٣).
(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٠/ ٥٧).

إنما القضاء الفهم، ولكن قل: علمني من العلم»[1].

إن المهارات التي نتحدث عنها هي من جنس مهارة القضاء، هي بحاجة إلى تطبيقات عملية من خلال إقامة دورات علمية متخصصة، أو إجراء حلقات حوارية تتبنى سياسة التدريب الفقهي، سياسةً عملية تنتقل من مجرد التجريد النظري لفقه المقاصد والمصالح والقواعد والضرورة إلى حلقات وبرامج تطبيقية تجمع عدداً من قضايا الواقع التي يلامسها المتفقه ولا يُحسِن التعامل معها ثم تُطرَح على طاولة النقاش والمباحثة العلمية.

وإن كثيراً من الحلَقات التي اهتمت بجانب المسائل الواقعية اعتمدت على أسلوب جمع بعض مسائل النوازل وتقرير الكلام فيها بعيداً عن الحوار والنقاش الذي يُرسِّخ في ذهن المتعلم مأخذ المسألة، ومواطن الخطأ والصواب أثناء عملية التطبيق، وإن أسلوب التقرير المجرد سيحوِّل هذه المسائل النوازل بعد زمن إلى متن فقهي جديد يحفظه الفقهاء الجدد دون وعي كبير بطريقة النظر وأسلوب المعالجة.

ثانياً: بناء ملَكة الاعتدال الفقهي:

إن نفسية الشخص التي تربى عليها، كثيراً ما تؤثر على طبيعة تعامله مع القضايا العلمية والواقعية، ومن المهم إحداث نوع من التوازن في التعامل مع طبيعة تكوين الإنسان وشخصيته؛ ولذلك يقول ابن تيمية عن جانب من كمالات الشيخين - رضي الله عنهما -: «كان من كمال أبي بكر أن يولِّي الشديد ويستعين به ليعتدل أمره، ويخلط الشديد باللين، فإن مجرد اللين يُفسِد، ومجرد الشدة تُفسِد؛ فكان يستعين باستشارة عمر وباستتابة خالد ونحو ذلك... وأما عمر فكان شديداً في نفسه؛ فكان من كماله استعانته باللين ليعتدل أمره، فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة الثقفي»[2].

وإن نفسية الفقيه ليست بمعزل عن هذا الكلام؛ فقد تؤثِّر نفسية الفقيه في اختياراته الفقهية، وفي طريقة عرضه للمسائل والخلاف الفقهي، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم: «إن الناس مختلفون في هممهم واختيارهم وآرائهم وطبائعهم الداعية إلى اختيار ما يختارونه وينفرون عما سواه، متباينون في ذلك تبايناً شديداً متفاوتاً جداً: فمنهم رقيق القلب، يميل إلى الرفق بالناس، ومنهم قاسي القلب شديد يميل إلى التشديد على الناس... ومنهم معتدل في كل ذلك يميل إلى التوسط، ومنهم شديد الغضب، يميل إلى شدة الإنكار، ومنهم حليم يميل إلى الإغضاء»[3].

وفي ظل هذا التنوع الكبير في نفسيات المتلقين فإن واحداً من أهم عوامل بناء الاعتدال الفقهي وضبط عملية التوازن، هو أن يتعلم المتفقه الجديد مرتبة الخلاف في المسائل التي يتلقاها؛ وهذا من خلال معرفة ضوابط الخلاف السائغ وغير السائغ بين العلماء، وكيفية التعامل مع كل نوع من هذه الخلافات من حيث القائلُ، والقولُ، وطريقةُ المناقشة؛ لا يتعلمه من الجهة النظرية فحسب، بل يتعلمه من الناحية التطبيقية، فيُعْرَض عليه كثير من المسائل ليطبِّق عليها تلك الضوابط؛ لأن بناء النفسية المعتدلة في الأداء الفقهي يحتاج إلى تدريب وممارسة من خلال عقد حوارات علمية تعليمية يتدرب فيها المتفقه على أسلوب النقاش والحوار، وعندما يتدرب على ممارسة الحوار والنقاش في مكان علمي هادئ، سيتمكن من تطوير نفسه في التعامل مع أقوال الآخرين.

لقد نجح خطابنا الفقهي في تربية المتفقه على لغة الراجح ولغة البحث عن الدليل؛ لكن هذا الجانب - على أهميته - لا يكفي وحدَه؛ بل لا بد أن يتربى وعي المتفقه - بالإضافة إلى القول الذي يختاره ويدين اللهَ به - على معرفة كيفية التعامل مع الأقوال الأخرى التي لا يعتقد رجحانَها، وهذا يعني أن ينضم إلى لغة الراجح والمرجوح لغةُ الخلاف السائغ وغير السائغ، وإن هذا التدريب سيجنِّب المتفقه التعصب لهذا الراجح الذي يعتقده؛ ليس من جهة الالتزام به وإنما من جهة عدم اعتداده بالأقوال الفقهية المعتبَرة الأخرى لمجرد أنها ليست راجحة.

وإن إدراك هذا الجانب مهم في تكوين الفقيه. يقول ابن تيمية عن حال غالب الفقهاء وعدم تمييزهم بين درجات المسائل وهو ما يفقدهم الاعتدال في تقرير حكمها: «وأما الخائض فيه (أي: الفقه) فغالبهم إنما يعرف أحدهم مذهب إمامه، وقد يعلمه جملة، لا يميز بين المسائل القطعية المنصوصة والمجمَع عليها، وبين مفاريده، أو ما شاع فيه الاجتهاد؛ فتجده يفتي بمسائل النصوص والإجماع من جنس فتياه بمسائل الاجتهاد والنزاع... لكن هؤلاء ليسوا في الحقيقة فقهاء في الدين، بل هم نَقَلَة لكلام بعض العلماء ومذهبه»[4].

(١) تهذيب الكمال، المزي، (٣/ ٤٣٥).
(٢) منهاج السنة، (٦/ ١٣٨).
(٣) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، (٤/ ١٣٨).
(٤) الاستقامة: ١/ ٦٠.

تفعيل مهارة البحث الفقهي:

عندما لا يتسلح الفقيه بقدر كافٍ من الملَكة البحثية فمن الممكن أن يؤثر ذلك على صناعته الفقهية، وكثيرٌ من المتعلمين لا يملك إلا قدراً متواضعاً من معرفة المصادر العلمية، ومناهجها، وكيفية التعامل معها، وهذا يتطلب حلقات تعليمية لا تكتفي بمجرد سرد المصادر وبيان طرق وأساليب البحث؛ بل تنتقل إلى داخل أروقة المكتبات العامة، لتُعَرِّف المتفقهةَ الجدد بمصادر العلوم، ومن ثَّم تكليفهم ببحوث عملية داخل هذه المكتبات، وتقيم عدداً من المناقشات العلمية حول بعض البحوث المعاصرة ومعرفة مَواطن التميُّز المنهجي فيها ومواطن الضعف.

كما أن من جوانب البحث المهمة تفعيل دور البحث التاريخي في العلوم؛ فمن المهم أن يُدرَّب المتفقه الجديد على استكشاف الجانب التاريخي للعلوم والمسائل؛ فقد يدرس المتعلم علم الفقه أو غيره؛ لكنه لا يملك دراية كافية بالتطور التاريخي لهذا العلم ومسائله؛ مع أن هذه المعرفة التاريخية لها أثرها الكبير في فتح ذهنية المتفقه إلى إشكالات العلم، وتفريعاته، وأساليب بنائه.

وإن بناء هذه المنهجية البحثية عند المتفقه ستقوده للوصول إلى الصواب الذي يبحث عنه، فإن «من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه»[1].

تنمية مهارة التواصل الفقهي مع الجماهير:

تواصل الفقيه مع الناس من خلال الكتابة أو الحديث المباشر بحاجة إلى مهارات لا بد من امتلاكها، ومن خلالها يمكن أن يوصل الفقيه رسالته للآخرين على أكمل وجه، ومن الزوايا المهمة في هذا الجانب ما يلي:

١ – في الوقت الذي كثرت فيه الشُّبه والتشكيك في الأحكام الشرعية فنحن بحاجة إلى لغة الحديث التي تعتمد أسلوب الإقناع بالأحكام إلى جانب التقرير العلمي المجرد، والتي تُبين محاسن التشريع الإسلامي وفلسفته في تقرير أحكامه، بل تتعدى ذلك إلى مقارنته مع أحكام الشرائع الأخرى حتى تظهر سماحة هذا الدين وتميُّزه عن غيره من الديانات. يقول ابن تيمية: «وإنما ننبه على عِظَم المصلحة في ذلك بياناً لحكمة الشرع؛ لأن القلوب إلى ما فهمت حكمته أسرع انقياداً، والنفوس إلى ما تطَّلع على مصلحته أعطش أكباداً»[2].

وربما كان من أخصر الطرق للإقناع – أو حتى الإحراج لمن لا يريد ذلك – أن يستعمل الخطابُ لغة الأرقام والإحصائيات في تأييد بعض الأحكام الشرعية، أو أن يذكر بعض التجارب التي حصلت في بلاد أخرى حول بعض القضايا الشرعية.

٢– ونحن بحاجة في لغة الفقيه الجديد إلى لغة تراعي في حديثها البعد العالمي، وإن مراعاة هذا البعد يعني أن الفقيه لا يكفيه اعتماده على الرصيد الشعبي الذي يجده بين بني قومه، بل لا بد من حديث يستند إلى الأساس العلمي أكثر من استناده إلى الأساس الذاتي الذي يرجع لشخص الفقيه، ويُلْمح ابن تيمية إلى قريب من هذا المعنى؛ حيث يقول: «الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس في علمه، لا يكون بما اختص بعلمه المجيب؛ إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به»[3].

ومن أجل هذا النوع من العالمية فإننا بحاجة إلى أن نعيد النظر في الأسلوب الذي يعتمد على (اجتماع الجيوش) والذي يجمع صحيح الاستدلال مع ضعيفه من باب تضافر الأدلة، ولنقدِّر له أحواله الخاصة، ولنقتصر في الاستدلال على الاستدلالات الصحيحة، مع استبعاد ما لم يكن كذلك حتى لا يُشَغب عليها.

٣ – ونحن بحاجة كذلك إلى اللغة التي لا تستغرق في مشكلات البيئة التي يعيش فيها المتحدث؛ بل تتجاوزها إلى مراعاة المشكلات التي يعاني منها المسلمون في بلدان أخرى إسلامية وغير إسلامية، وإن تسميتنا لفقه بعض هذه البلدان بـ (فقه الأقليات) ربما أشعرتنا أحياناً بجعل هذا الفقه على هامش الاهتمام والعناية، لكن الواقع اليوم يثبت أن مسائل هذه الأطراف لم تعد تعني (أقلية) في قطر معيَّن، بل إنها تعني في بلدان أخرى (أكثرية) لكنها محكومة بنظام غير إسلامي ويتعرض أهلها للمشكلات نفسها التي تتعرض لها الأقليات في بلدان أخرى، ثم إننا عندما نغض الطرف عن مقارنتهم بغيرهم فإنهم لم يعودوا (أقلية) بل أصبحت الأرقام تتحدث عنهم بلغة الملايين، ثم إن هذه الأقلية أصبحت مندمجة بصورة غير مباشرة مع الآخرين، فأصبحتَ لا تكاد تستمع لبرنامج مباشر يتلقى فيه الفقيه أسئلة من هنا أو هناك إلا وتجد عدداً من المشاركات التي تأتي من تلك البلدان؛ لتسأل وتستفسر عن مشكلاتها، بل ربما تستشكل بعضَ الأجوبة التي لا تراعي أحوالها.

---

(١) الفتاوى: ١٣/ ٣٦٧.

(٢) الصارم: ٣/ ٩٠٥.

(٣) الفتاوى: ٤/ ١٦٨.

تجديد معارف الفقيه:

الفقيه الجديد ينبغي أن يُدْخَل في إعداده وتكوينه مجموعة من المعارف التي تطلبتها التحولات الكبيرة التي يشهدها واقعه، وقبل أن أدخل في دائرة هذه المعارف فإننا لا نريد أن نحوِّل الفقيه الجديد إلى رجل أسطورة تجتمع فيه كافة التخصصات والمعارف، بل كل الذي نريده أن ننظر إلى تلك المعارف بقدر من الاعتدال بين دعوات تدعو أن يكون الفقيه موسوعي المعرفة، وبين دعوات أخرى تريد أن تهمِّش الفقيه حتى تُفقدَه دورَه الإصلاحي بحجة عدم إدراكه لما يتحدث عنه.

إن هذه المعارف ستساعد الفقيه على استيعاب عمق المسائل المطروحة عليه؛ فيُميِّز بين تلك المسائل التي يحتاج إلى تحويلها إلى المتخصصين في مجالها، وبين تلك المسائل التي يمكن للفقيه بما يملكه من معارف ضرورية أن يتحدث حولها.

كما أن المقصود من إدراك هذه المعارف، هو إدراك القَدْر الأساسي الذي لا يسعه جهله، وليس المراد المعرفة الشاملة التي يحتاجها المتخصصون.

فعندما يتحدث الفقيه عن مسألة الربا، ويُبيِّن شيئاً من آثارها، فلا بد أن يكون على دراية بالقدر الأساسي من المعرفة بنظام الاقتصاد الدولي الحديث ونحو ذلك من معارف الاقتصاد الأساسية.

كما أن الواقع المعاصر أصبح يفرض على فقيه اليوم - وبشكل متزايد - واجبات أكبر من واجبات الفقيه السابق؛ فإن كثيراً من الناس مهما تحدثنا معهم عن اختلاف التخصصات، واختلاف الأدوار، فلا يزال عند شريحة كبيرة منهم نوع من التمسك بالتوجيه الذي يتلقاه من الفقيه، ومن أكبر أسباب ذلك البعد الديني الذي يحتاجه السائل في حل بعض هذه المشكلات، ومن ثَمَّ فلم يعد بوسع الفقيه اليوم أن يتجنب التوجيه الاجتماعي الرشيد وهو يجيب المستفتي - مثلاً - حول مسألة الطلاق أو اللعان؛ لأن كثيراً من الناس اليوم عندما يسألون قد لا يطلبون من الفقيه فقط بيان الحكم الشرعي للطلاق الذي هو داخل دائرة اختصاصه، بل إنهم يسألونه ليرشدهم كذلك كيف يواجهون مشكلاتهم التي تقودهم إلى الطلاق؟ وهذه وظيفة أخرى ليست داخلة تحت دائرة اختصاصه، وهذا يعني أنه قد أضيف له دور آخر غير دور الإفتاء المجرد.

وإن السائل الذي يأتي ليسأل حول بعض المسائل التي تتعلق بالوسوسة في أداء العبادات تتطلب من الفقيه أن يدرك بعض أساسيات التعامل مع مرض الوسوسة ويمكنه بعد ذلك أن يوجه السائل إلى متخصص في هذا المجال.

فهل سنضيف لمعارف الفقيه الجديد قدراً - ولو متواضعاً - من بعض الأسس التربوية والنفسية في التعامل مع مشكلات الحياة، كالمشكلات الزوجية وغيرها؛ من التي كثيراً ما تتردد على ألسنة الناس؟

وفي جانب آخر من المعارف فإن حديث الفقيه حديث يراد منه إحداث التغيير في المجتمع؛ وهذا يعني أن يدخل في بناء الفقيه الجديد معارف ضرورية في سُنن التغيير في المجتمع، فليس من دور الفقيه أن يُبيِّن الحكم للناس دون مراعاةٍ لأبعاد هذا الحكم، أو النظر في إمكانية تطبيقه على أرض الواقع. يقول ابن تيمية في هذا المعنى: «فالعالِم في البيان والبلاغ كذلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخَّر الله - سبحانه - إنزالَ آياتٍ، وبيان أحكام إلى وقت تمكُّن رسول الله ﷺ إلى بيانها... ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فَعَل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا داخل في قوله: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [**التغابن**: ١٦][1]، وفي سير الأنبياء ثروة عظيمة من سنن التغيير في المجتمعات استفادت منها مجموعة من الدراسات الإسلامية التي كتبت في (علم الاجتماع).

أنني أُدرك إدراكاً تامّاً أن هذه الرؤى التي تقدمت إنما هي بحاجة إلى مزيد من المراجعة والتنقيح، والحديث حولها بحاجة كذلك إلى مجموعة من الورش العملية التي تخرِّج الرؤى حول هذا الموضوع أكثر نضجاً وواقعية، ولعل هذه الأسطر أن تثير مجموعة من التساؤلات حول هذا الموضوع الكبير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(١) الفتاوى: ٢٠/٥٨ - ٦٥.

منهج أهل الزيغ في الاستدلال

د. عبد العزيز الفوزان(*)

لعل من أخطر ما يستعمله العَلمانيون والمنافقون، وأهل الأهواء وعبَّاد الشهوات، والطاعنون في الدين والمتدينين لأجل تكريس الباطل وتعميمه، وإبطال الحق وتوهينه، وتطويع الدين وتمييعه؛ ليتفق مع أهوائهم الضالة، وشهواتهم الفاسدة: هو اتباع المتشابه، والتشكيك في الثوابت الشرعية، والمسلَّمات العقدية، وضَرْب كلام الله - تعالى - بعضه ببعض. فإذا أُنكر عليهم هذا الجهل والإثم، والقول على الله بلا علم، وتحريف كلام الله - تعالى - وكلام رسوله ﷺ، وحَمْله على غير المراد منه، قالوا بكل صفاقة وخبث: نحن مسلمون ومن حقنا أن نتكلم عن الإسلام، ونبدي وجهة نظرنا في سائر الأحكام، وربما أكدوا ذلك بقولهم: لا كهنوتية في الإسلام، ولا عصمة لأحد بعد الأنبياء! وهي كلمة حق يراد بها باطل؛ حيث يجعلون حِمَى الإسلام مباحاً لكل دعيٍّ ودخيل، ويجعلون لأنفسهم الحق في الكلام عن الحلال والحرام، وانتهاك حرمات الشريعة، وهم من أجهل الناس بالشريعة وأبخسهم بضاعة، مع ما هم عليه من انحرافات فكرية وسلوكية؛ فجمعوا بين الجهل والهوى، وهما جِمَاع أسباب ضلال الخلق، وبُعدهم عن الهدى ودين الحق.

وأخطر مسالكهم في تبرير فسادهم، والسعي لإفساد الخلق وإضلالهم، هو اتباع المتشابه من نصوص الكتاب والسُّنة وأقوال الأئمة؛ حيث يكون لديهم مقررات سابقة، وأحكام مبيَّتة، يريدون تبريرها وإقناع الناس بها، فيأتون إلى نصوص الكتاب والسُّنة، وإلى أقوال الأئمة، لا ليتعرفوا على حكم الله - تعالى - من خلالها، ولكن ليحرِّفوها ويلووا أعناقها ويؤولوها على غير المراد بها؛ لتتفق مع ما في نفوسهم من أحكام وقناعات سابقة، فتجدهم يأخذون بالمتشابه من نصوص الوحيين، ومن أقوال الأئمة المعتبَرين، ويتركون النصوص الصريحة المحكَمة، التي تدحض باطلهم، وتبطل فهمهم، وهذا هو منهج أهل الزيغ والضلال الذي حذرنا الله - تعالى - منه في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، فبيَّن أن آيات الكتاب منها المحكَم الواضح الدلالة، وهي أمُّ الكتاب؛ أي: أكثره، وأساسه الذي

(*) المشرف العام على موقع رسالة الإسلام.

يجب أن يُرَد المتشابه إليه ليُعرَف مراد الله منه، ومنها المتشابه الذي يحتمل أكثر من معنى، فيجب رد هذه المعاني المحتمَلة إلى المعاني الصحيحة التي دلَّت عليها الآيات المحكَمة، وألا يُضرَب كتاب الله - تعالى - بعضه ببعض، أو أن يؤول كلامه إلى معنى فاسد وإن كان اللفظ يحتمله؛ فليس في القرآن تناقض ولا اختلاف، ولا حجة فيه لضال ولا مبتدع؛ لأنه كما قال الله - تعالى -: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وكم رأينا من أهل الأهواء والضلال من يؤول النصوص المتشابهة على غير مراد الشارع منها، بل قد يحتجُّ بها على تحليل ما أجمع العلماء قاطبة على تحريمه، أو إسقاط ما أجمع العلماء قاطبة على وجوبه، ثم تجده يردد مشككاً في أحكام الله، وطاعناً في عقول العلماء الكبار وفهومهم: ليست المشكلة في النص القرآني أو النبوي، ولكن المشكلة في قراءة النص وفهم معناه.

وهم يقصدون بذلك الطعن في العلماء، والتشكيك في فهمهم لهذه النصوص الشرعية، ويجعلون ذلك ذريعة لتفسير نصوص الوحي بالهوى والتشهي، وأن يتصدى لتفسيرها كلُّ من هبَّ ودبَّ من الجهلة والعوام، وأهل الأهواء وأرباب الضلال.

وقد يبالغ بعضهم في التلبيس والخداع فيقول: إنه ثبت عن جماعة من السلف كابن عباس وغيره أن القرآن حمَّال أوجه، أو ذو وجوه[1]. ثم يضيفون: ونحن عرب مسلمون، ومن حقنا أن نبدي رأينا في معاني القرآن والسُّنة، ولسنا مرتهنين لرأي فلان أو فلان.

وهكذا جعلوا كلام الله - تعالى - وكلام رسوله ﷺ محلاً للتخرصات والتخبطات، وعُرضة للتحريف والتشويه، ووسيلة للإفساد والتضليل، وحِمَىً مباحاً لكل دعيٍّ ودخيل؛ فضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وطعنوا في مسلَّمات العقيدة ومحكمات الشريعة، مستدلين بالمشتبهات من نصوص الكتاب والسُّنة، وهما صراط الله المستقيم، ونوره المبين، والعاصمان من الضلال، والهاديان لأحسن الأخلاق والأعمال. ثم إنهم أخذوا أوَّل كلام ابن عباس وأهملوا آخره؛ حيث يقول - رضي الله عنه -: «فاحملوه على أحسن وجوهه»، فهم لا ينظرون في الأدلة الشرعية نظر المستبصر الباحث عن الحق، حتى يكون هواهم تبعاً لما يحبه الله ورسوله ﷺ، بل ينظرون إليها نظر من جعل إلهه هواه، ثم يأتي بالأدلة المشتبهة لتكون كالشاهد له على ضلاله.

وبهذا المنهج الخبيث استدل بعض النصارى، على تعدد الآلهة وأن الله ثالث ثلاثة بقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ، حيث جاءت الآية بلفظ الجمع في قوله: «إنَّا» مرتين، و «نحن»، و «نزلنا»، و «لحافظون»، ولو كان الله واحداً لقال: إني أنا نزَّلت الذكر وإني له لحافظ. وهم يعلمون أن تكلُّم المفرد بصيغة الجمع مقصوده التعظيم والتفخيم، وهو أسلوب عربي قديم، ويستعمله كثيراً الزعماءُ والحكامُ وعِليَة القوم في خطاباتهم وقرارتهم، كأن يقول أحدهم: نحن رئيس الدولة أمرنا بكذا وكذا... إلخ.

فهم أخذوا بالمتشابه من الآيات وتركوا الآيات المحكمات التي تدل دلالة قاطعة على أن الله - تعالى - واحد أحد، لا شريك له ولا نظير ولا ندَّ، كما قال ربنا - سبحانه -: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وقال: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، وغيرها كثير.

وإذا استدل هؤلاء الزائغون بالمشتبهات للطعن في أصل الدين، والتشكيك بعقيدة التوحيد، فليس بعيداً أن يستدل أحدهم على إباحة الزنى بمثل قوله - تعالى -: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء: ٢٤]، فيحرف الآية ويقطعها عن سابقها ولاحقها، ويحملها على غير معناها، ويتجاهل الآيات والأحاديث المحكَمَة الصريحة التي تدل دلالة قطعية على تحريم الزنى ووصفه بأنه فاحشة وشر سبيل، كقوله - تعالى -: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فلم ينهَ عن الزنى فقط، بل نهى عن كل وسيلة توصل إليه، وجفف منابع الفتنة التي تدعو إليه، فقال: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]، فنهى عن الزنى، والنهي يقتضي التحريم، ثم توعَّد فاعله بالعذاب والنكال الشديد.

وقد أجمع العلماء قاطبة على تحريم الزنى، وأطبقت على تحريمه جميع الشرائع السماوية، ثم يأتي هؤلاء الزائغون

(١) روى أبو نعيم والديلمي (٤٦٧٢) عن ابن عباس أنه قال: «القرآن ذو وجوه، فاحملوه على أحسن وجوهه»، ورواه الدارقطني: (٤/ ١٤٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وضعفه الألباني في سلسلة الضعيفة (١٠٣٦)، وينظر: كنز العمال (٢٤٦٩)، والجامع الكبير للسيوطي: (١/ ١٥٠٧٤).

ويستدلون بالمتشابه على تحليل ما حرم الله، ويضربون كتاب الله بعضه ببعض، ويفسرونه على غير مراد الله منه.

بل إن الآية التي استدلوا ببعضها على تقرير هذا المنكر العظيم تدل دلالة صريحة على تحريم الزنى؛ حيث جاء في أولها قوله - تعالى -: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]. فقد دلت على تحريم الزنى من وجهين:

الوجه الأول: قوله - تعالى -: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ والمقصود به المتزوجات؛ فإنهن من المحرَّمات في النكاح، فلا يحل نكاحهن ما دمن في عصمة أزواجهن، ولو كان الزنى جائزاً لما كانت هناك حاجة إلى الزواج، ولأصبح الناس كالبهائم والوحوش يتغلبون على الأعراض والفروج، وينزو بعضهم على بعض، ولكن الله - تعالى - بواسع رحمته، وعظيم حكمته، أباح النكاح وحرم السفاح.

والوجه الثاني: قوله - تعالى -: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهذه أصرح في تحريم الزنى من سابقتها؛ حيث اشترط لصحة النكاح العفة والإحصان في الناكح والمنكوح، فإن كانا زانيين مسافحين لم يتوبا من الزنى أو كان أحدهما كذلك، فلا يصح النكاح، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، فدلت الآية على تحريم نكاح الزانية وإنكاح الزاني، ما دام مصرّاً على الزنى لم يتب منه.

وثمة وجه ثالث ذكره بعض المفسرين، وهو أن المقصود بالآية نكاح المتعة، الذي كان مباحاً أول الإسلام، ثم حرَّمه الله - تعالى - إلى يوم القيامة، كما جاء في الصحيحين[1] من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وفي صحيح مسلم[2] من حديث الربيع بن سبرة بن معبد الجهني وغيره، رضي الله عنهم أجمعين.

كما أن الآية التي بعدها تدل صراحة على تحريم الزنى؛ حيث يقول ربنا - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

وقد دلت الآية على تحريم الزنى من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن الحُر إذا خشي العنت؛ وهو الوقوع في الزنى لغلبة الشهوة عليه، وكان عاجزاً عن نيل الحرة يجوز له في هذه الحال أن ينكح أَمَةً، لأجل أن يُعِف نفسه عن الزنى.

الوجه الثاني: قوله - تعالى -: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ فأمر بإنكاح الأَمَة واشترط في نكاحها أن تؤتى مهرها، وسمى مهرها أجراً كالآية التي قبلها، فدل هذا دلالة قاطعة على أن المراد بالأجر في الآيتين هو المهر، كما قال - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]. ثم أكد تحريم الزنى بقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، فاشترط لجواز نكاحها أن تكون عفيفة محصنة من الزنى غير مسافحةٍ ولا متخذةٍ لصديق يزني بها؛ فهل بعد هذا البيان من بيان؟

الوجه الثالث: قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، فقد وصف الزنى بأنه فاحشة، وأوجب إقامة الحد على الأَمَة إذا زنت، وأن عليها من العذاب نصف ما على الحرائر من النساء.

ولو أن هؤلاء أرادوا الحق ومعرفة مراد الله - تعالى - من الآية وحملوا المتشابه على المحكم لعلموا أن معنى قوله - تعالى -: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]: هو وجوب المهر في النكاح؛ فالاستمتاع في الآية هو النكاح، فيكون المعنى: كما أنكم تستمتعون بالمنكوحات فأعطوهن مهورهن في مقابلة ذلك، وهذا كقوله - تعالى - في الآية التي بعد هذه الآية مباشرة: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٢١٦)، وصحيح مسلم برقم (١٤٠٧).
(٢) برقم (١٤٠٦).

أَخْدَانٍ﴾، فأمر بإنكاحهن وأن يؤتَين أجورهن بالمعروف، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان، وكقوله - تعالى - في سورة الممتحنة: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ فالأجر المأمور بدفعه للزوجات في هذا الآيات وغيرها هو المهر، وقد شبهه الله بالأجرة؛ للدلالة على لزومه ووجوبه كلزوم الأجرة ووجوبها، ولأن الصداق لما كان في مقابلة الاستمتاع بالزوجة كان له شبه قوي بأثمان المنافع، فسمي أجراً. قال العلاَّمة الشنقيطي: «وسياق الآية التي نحن بصددها يدل دلالة واضحة على أن الآية في عقد النكاح كما بيَّنا، لا في نكاح المتعة؛ لأنه - تعالى - ذكر المحرَّمات التي لا يجوز نكاحها بقوله - تعالى -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلخ... ثم بيَّن أن غير تلك المحرمات حلال بالنكاح بقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، ثم بين أن من نكحتم منهن واستمتعتم بها يلزمكم أن تعطوها مهرها، مرتِّباً لذلك بالفاء على النكاح بقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] الآية، كما بيناه واضحاً، والعلم عند الله، تعالى»[1].

وما ذكرت هذين المثالين الموغلَين في الزيغ والضلال، والمصادمَين لصريح الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة إلا لأبيِّن أن هؤلاء الزائغين إذا تجرؤوا على الاحتجاج بالمتشابهات لإبطال الأحكام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة، فقد تجرؤوا على التشكيك بعقيدة التوحيد، التي هي أساس الإسلام، والغاية التي ابتعث الله لها جميع الرسل الكرام، وأنزل من أجلها جميع الكتب السماوية، ولبَّسوا على الجهلة بمثل هذه الآيات المتشابهات؛ فالتجرؤ على التلبيس والتشكيك بما دونها من الأحكام أَوْلَى وأيسر.

وكم استدل بعض الجهلة والأدعياء، وأرباب الشهوات والأهواء بمثل هذه المشتبهات من نصوص الكتاب والسُّنة، فيزعمون أن الله أراد كذا، وأن رسوله ﷺ أراد كذا، والله ورسوله منه بريئان؛ حتى وجدنا بكل أسف من بعض المنسوبين للعلم من يستدل بالمتشابهات لإباحة الشرك الأكبر والغلو في تعظيم أصحاب القبور وصرف أنواع العبادة لهم من دون الله، أو الجرأة على تكفير المسلمين، بل تكفير بعض الصحابة المشهود لهم بالجنة وَلَعنِهم، أو إباحة دماء المعصومين من المسلمين والمعاهدين، أو إباحة صريح الربا، أو إباحة التبرج والسفور وكشف العورات، أو الخلوة بالمرأة الأجنبية والاستمتاع بها بما دون الزنى، أو سماع المعازف والأغاني الفاحشة الماجنة بأنواعها، أو إباحة المتعة بالنساء، أو إباحة القمار والميسر، أو المسكرات والمخدرات... إلخ.

فإذا أُنكر على أحدهم هذا القول المنكَر المجمَع على تحريمه، أجاب بأنه لم يقله من تلقاء نفسه، ولم يأتِ به من جيبه، وإنما دلت عليه الآية الفلانية والحديث الفلاني. وما هو والله إلا تلبيسٌ وتدليسٌ، وتحريفٌ لكلام الله - سبحانه وتعالى - وكلام رسوله ﷺ، وتَرْكٌ لمحكمات النصوص، واتباعٌ للمتشابه منها؛ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها على غير مراد المتكلم بها.

وإذا صح لهم مثل هذا في نصوص الكتاب والسُّنة، فلا عجب أن يستعملوا هذا المنهج التشكيكي الإفسادي مع نصوص العلماء وأقوالهم، فيأخذوا بالمتشابه منها، ويتركوا المحكم الصريح، الذي يبيِّن مرادَهم ويكشف عن قناعاتهم، فينسبون لهم ما لم يقولوه، ويحملون كلامهم على ما لم يقصدوه. وقد يبترون النص المنقول عن سياقه، ويفصلونه عن أسبابه ومبرراته، وقد يكون كلاماً في حادثة خاصة، أو ظرف معيَّن، أو رخصة لضرورة أو حاجة ماسَّة، فيعممون الحكم، ويأخذونه على إطلاقه، ويجردونه من ضوابطه وشروطه... ويساعدهم في تحقيق ذلك أن العلماء مهما بلغوا من العلم والفهم فإنهم ليس عندهم من الاحتياط والدقة، والبلاغة والإحكام، ووضوح العبارة وقَصْرِها على المقصود مثل ما جعله الله - تعالى - للوحي المعصوم من نصوص الكتاب والسُّنة؛ فالله المستعان.

وقد حذرنا النبي ﷺ من هؤلاء المحرِّفين للكتاب والسُّنة،

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٥/ ٣٥. وينظر: تفسير الطبري: ٨/ ١٧٥، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٢٥٩، وتفسير السعدي: ١/ ١٧٤.

والمتبعين للمتشابهات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل كلام الله على غير مراده؛ فعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[١].

وقال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٢].

قال ابن القيم: «فأخبر أن الغالين يحرِّفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة؛ فلولا أن الله - تعالى - يقيم لدينه من ينفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء»[٣].

وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسُّنة في التحذير من الأئمة المضلين، والجهلة المتعلمين، والمتصدرين للفتوى وليسوا من أهلها، ولهذا أمرنا الله - تعالى - بسؤال أهل الذكر خاصة فقال - سبحانه -: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وأهل الذكر هم العلماء الراسخون، الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والإمامة في الدين، أما أدعياء العلم، وأنصاف المتعلمين، والمتطفلون على موائد العلماء، فليسوا أهلاً لأن يستفتوا ويُصدَر عن رأيهم، وبخاصة في الأمور العامة التي تمس مصالح الأمة.

والنبي ﷺ يحذر من هؤلاء تحذيراً شديداً فيقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٤].

وهذا يتضمن التحذير من ترئيس الجهال، وتخلية الساحة لهم، بقعود العلماء الراسخين عما أوجبه الله عليهم من البلاغ والتبيين. وفيه التحذير من استفتاء أدعياء العلم وأنصاف المتعلمين، ومن يتصدرون للفتوى وهم في الحقيقة جهال أدعياء. وفيه التحذير الشديد لهؤلاء من القول على الله بلا علم، وإقحام أنفسهم في ما لا يحسنون، والخوض في بحر لا يجيدون السباحة فيه، فيَضِلون ويُضِلون، ويتحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم بغير علم.

وقد صحَّ عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «يهدم الإسلام زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون»[٥]؛ فإذا كانت زلة العالم تهدم الإسلام، وتضل الأنام، فكيف بفتاوى أئمة الضلالة وأرباب الجهالة والغواية؛ فليس شيء أخطر على الأمة، ولا أضيع لدينها من جاهل دعي، أو منافق ذكي، يستعمل ذكاءه وعلمه وفصاحته في إضلال الخلق، وصدهم عن الهدى ودين الحق؛ فعن أبي عثمان النهدي قال: إني لجالس تحت منبر عمر - رضي الله عنه - وهو يخطب الناس، فقال في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان»[٦].

فإذا كان المنافق عليمَ اللسان، قويَّ البيان، كان ذلك سبباً لفتنة الناس ولَبْس الحق بالباطل، ولهذا كان أخوف شيء يخافه النبي ﷺ على أمته هم أئمة الضلالة هؤلاء، وذلك لشدة خطرهم، وعموم ضررهم؛ فعن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، وفي رواية: «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»[٧].

بل كان يخاف على أمته منهم أشد من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال، الذي أمرنا بالتعوذ من فتنته في كل صلاة، وما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال[٨]؛ وذلك لعظيم خطره، وشدة فتنته، ومع ذلك فأئمة الضلالة أشد ضرراً على الأمة من فتنته؛ فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «كنت مخاصر النبي ﷺ يوماً إلى منزله، فسمعته يقول: غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال. فلما خشيت أن يدخل قلت: يا رسول الله! أي شيء أخوف على أمتك من الدجال؟ قال: الأئمة المضلين»[٩]، وعن علي - رضي الله عنه - قال: «كنا

---

(١) رواه البخاري: ٤٥٤٧، ومسلم: ٢٦٦٥.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/٢٠٩، والطبراني: ٥٨٤، والطحاوي: ٣٢٦٩، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»: ١/٥٣.

(٣) إغاثة اللهفان: ١/١٥٩.

(٤) رواه البخاري: ١٠٠، ومسلم: ٢٦٧٣.

(٥) رواه الدارمي: ١/٢٤٤، وابن المبارك في «الزهد»: ١٤٧٥، وصححه ابن تيمية في «بيان تلبيس الجهمية»: ٢/٢٧٩، والألباني في مشكاة المصابيح: ١/٥٧.

(٦) رواه أحمد: ١/٤٤ - ٣٩٩، والبزار: ١/٤٣٤، وله شاهد من حديث عمران بن حصين، وصححهما الألباني في السلسلة الصحيحة: ٣/١١، ٣/٨٧.

(٧) رواه أبو داود: ٤٢٥٢، والترمذي: ٢٢٢٩، والدارمي: ٢٠٩، ٢٧٥٢، وأحمد: ٢٢٤٤٨، وابن حبان: ٦٧١٤. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: ٤/١٠٩، وذكر له شواهد عديدة من حديث عمر، وأبي الدرداء، وأبي ذر، وشداد بن أوس، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

(٨) روى مسلم في صحيحه: (٢٩٣٣) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب».

(٩) رواه أحمد: ٢١٣٣٥. ويشهد له الأحاديث التي قبله؛ ولذا قال الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: ٤/٦٤٣: فالحديث بمجموع ذلك صحيح.

جلوساً عند النبي ﷺ وهو نائم، فذكرنا الدجال، فاستيقظ محمراً وجهه فقال: غير الدجال أخوف عندي عليكم من الدجال: أئمة مضلون»[1].

ويؤكد ذلك أن النبي ﷺ حين حذر من فتنة الخوارج، وأمر بقتلهم، بيَّن أنهم إنما أُتوا من قِبَل جهلهم، وقلة فقههم، فجنوا على أنفسهم وعلى أمتهم، ولم يشفع لهم حُسْن نيتهم، وسلامة قصدهم، وكثرة عبادتهم؛ فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج في آخر الزمان قوم حُدثَاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[2].

وكلما تقادم الزمان، وبَعُد الناس عن عهد النبوة، كثر جهلهم، وقلَّ فقههم، ورقَّ دينهم، وتصدوا لما لا يعنيهم، وخاضوا في ما ليس من شأنهم، وتكلم الجهلة والغوغاء، والمنافقون وأهل الأهواء في مصالح الأمة وقضاياها العامة، فلبَّسوا الحق بالباطل، واستحلُّوا الحرمات، ووقعوا في المنكرات، واتبعوا الأهواء والشهوات، وتجرؤوا على حِمَى الشريعة، وحرماتها المنيعة، وهذا من أشراط الساعة، التي نبَّه عليها نبينا ﷺ في قوله: «إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[3]، وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنى، ويُشرَب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء، حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»[4].

وقد بين الإمام الشاطبي خطورة الاستدلال بالمتشابهات، وتأويلها على غير وجهها، وأن هذا من أكبر سمات المبتدعة وأهل الأهواء، وذكر لذلك أمثلةً كثيرة، كما نبه على المنهج الشرعي في التعامل مع هذه المتشابهات فقال: «ومنها: انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات التي للعقول فيها مواقف، وطلب الأخذ بها تأويلاً - كما أخبر الله تعالى في كتابه - إشارة إلى النصارى في قولهم بالثالوثي بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه، ويُشتَرَط في ذلك أن لا يعارضه أصل قطعي، فإذا لم يظهر معناه لإجمال أو اشتراك، أو عارضه قطعي كظهور تشبيه فليس بدليل؛ لأن حقيقة الدليل أن يكون ظاهراً في نفسه ودالاً على غيره، وإلا احتيج إلى دليل، فإن دل الدليل على عدم صحته فأحرى أن لا يكون دليلاً.

ولا يمكن أن تعارض الفروعُ الجزئيةُ الأصولَ الكلية؛ لأن الفروع الجزئية إن لم تقتضِ عملاً، فهي في محل التوقف، وإن اقتضت عملاً، فالرجوع إلى الأصول هو الصراط المستقيم... ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد: وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض، فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامِّها المرتب على خاصِّها، ومطلَقها المحمول على مقيَّدِها، ومجملها المفسَّر ببيِّنها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها؛ فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام فذلك الذي نظمت به حين استنبطت.

وما مثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي؛ فكما أن الإنسان لا يكون إنساناً حتى يستنطق، فلا ينطق باليد وحدها، ولا بالرجل وحدها، ولا بالرأس وحده، ولا باللسان وحده، بل بجملته التي سمي بها إنساناً، كذلك الشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، لا من دليل منها؛ أي دليل كان... فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها، كأعضاء الإنسان إذا صوِّرت صورة مثمرة. وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل مَّا؛ أي دليل كان، عفواً وأخذاً أوَّلياً، وإن كان ثَمَّ ما يعارضه من كُلِّي أو جزئي. فكان العضو الواحد لا يعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً، فمتبعه متَّبِع متشابَه، ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]»[5].

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده: ٤٦٦. وقد ضعف إسناده الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: ٤/١١١. لكن تشهد له الأحاديث التي قبله.
(٢) رواه البخاري: ٣٤١٥، ٤٧٧٠، ٦٥٣١، ومسلم: ١٠٦٦.
(٣) رواه ابن ماجه: ٤٠٤٢، والحاكم: ٤/٤٦٥ - ٥١٢، وأحمد: ٢/٢٩١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.
(٤) رواه البخاري: ٨١، ٤٩٣٣، ومسلم: ٢٦٧١.
(٥) الاعتصام: ١/١٨١، ١٨٥.

«الموسوعة البريطانية» ومقص الرقيب الكاثوليكي

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

تُعَدُّ الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia Britannica) التي نعرفها باسم «دائرة المعارف البريطانية» مرجعاً له مكانته في عالم البحث العلمي. ولعل اسم «إنسايكلوبيديا بريتانيكا» لا يزال يرنُّ في مسامع بعضنا منذ أن كنا صغاراً نشاهد أفلامها الوثائقية.

بدأ صدور الموسوعة البريطانية عام ١٧٦٨م بعد أن استُلهمت فكرتها من الموسوعة الفرنسية (Encyclopédie) التي ظهرت قبلها بعقد ونيِّف؛ فظهرت بعض الأقلام المتحررة من الصولجان البابوي، وتَشَكَّل بذلك تيارٌ فكري مناوئ للكهنوتية انتهى بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. ولكن بينما توقف صدور الموسوعة الفرنسية عام ١٧٨٠م، استمرت طبعات «الموسوعة البريطانية» إلى زمننا هذا، بعد أن «طُهِّرت بماء المعمودية» من قِبل الكنيسة.

لعل أذهان بعض الناس لا تتقبل صورةً لقسيس كاثوليكي يحرر موسوعة «ليبرالية»، لكنها الحقيقة التي أَقرَّ بها «اتحاد وِستمنستر الكاثوليكي» (Westminster Catholic Federation) الذي أشرف بنفسه على طقوس العماد. فبعد أن ذاع صيت الموسوعة وأصبحت مرجعاً للقراء الأمريكيين فضلاً عن الإنجليز بحلول عام ١٩٢٠م، كان لزاماً أن يعاد النظر في محتواها لتواكب التقدم العلمي آنذاك؛ فانتُخِب لهذه المهمة فريق من المحررين البريطانيين والأمريكيين. ولما انتهى المشروع عام ١٩٢٨م علق «اتحاد وستمنستر الكاثوليكي» على الحدث بكل جرأة قائلاً: «لقد قام مشروع مراجعة «الموسوعة البريطانية» لأجل حذف الأمور المعارضة لوجهة النظر الكاثوليكية وإضافة ما هو دقيق ومحايد. لقد تم تمحيص المجلدات الثمانية والعشرين، ثم حُددت

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

المقاطع المعارضة، وبُيِّنت أسباب حذفها أو تعديلها. إن كل الأسباب تدعو إلى الأمل في أن تكون الطبعة الجديدة من «الموسوعة البريطانية» أكثر دقة وحياداً من سابقاتها»[1].

ولنا وقفة هنا مع هذا الاعتراف الصادر عن السلطة الكاثوليكية التي باشرت بنفسها تعديل «الموسوعة البريطانية» لتجعلها سائغة للذوق البابوي؛ إنها دليل قاطع على أن سلطة الكنيسة الكاثوليكية في البلاد الغربية واقع لا يمكن تجاهله وإن غابت الأصابع المحرِّكة عن أنظار العامة. وهذا النفوذ الذي صرَّح به «اتحاد وستمنستر الكاثوليكي» نجد مثيله في الولايات المتحدة منذ القرن التاسع عشر، وقد عبر عنه «جستن فلتن» في كتابه «واشنطن في حجر روما» بقوله: «ما من صحيفة مؤثرة على الكنيسة الكاثوليكية يُسمح لها أن تطبع حتى تُعرَض على الكاردينال للنقد»[2].

ولعلِّي أضرب لذلك بعض الأمثلة: فبينما كنت ذات مرة أقرأ عن تنظيم المتنورين (الإلوميناتي) ومؤسسه «آدم وايسهاوبت» في طبعة عام ١٩١١م من «الموسوعة البريطانية» لفت نظري إقرار الموسوعة بأنه «أستاذ القانون الكنسي بـ «إنجولشتات»، ويسوعي سابق»، وهو ربط مباشر بين اليسوعية الكاثوليكية وبين مؤسس تنظيم ماسوني يُنسَب عادة إلى تأسيس «النظام العالمي الجديد». فلما رجعت إلى نسخةٍ حديثةٍ للموسوعة وجدت أن ذلك المقال المفصَّل حول «الإلوميناتي» صار لا يتجاوز بضعة أسطر، بل قُلِّمت أظفاره حتى صار هزيلاً لا يمتُّ إلى الأكاديمية بِصِلة.

كذلك المقال المتعلق بـ «لودريجو بورجا»، ذلك الكاهن الإسباني العربيد الماجن الذي أصبح يعرف فيما بعد بالبابا «الإسكندر السادس». لقد حاول مقص الرقيب الكاثوليكي بقدر الإمكان تحسين صورته لدى قارئ الموسوعة؛ فقد بيَّن كاتب المقال الأصلي أن الإسكندر عُرِف بانحلاله الخلقي قبل جلوسه على كرسي البابوية حينما كان كاردينالاً، ومع ذلك اختير ليعتلي عرش البابوية! فكان مما كتب: «بالرغم من الفساد الكنسي الذي بلغ ذروته إلا أن حياة العربدة التي عاشها [الإسكندر] جلبت له نقداً لاذعاً جداً من قِبل البابا «بيوس الثاني»؛ أي أن فساده الأخلاقي تجاوز المعهود في زمانه. وفي موطن آخر من المقال يذكر الكاتب أن «من أمثلة فساد البلاط البابوي أن «لوكريزا» ابنة «بورجا» [الإسكندر] كانت تعيش مع خليلته «جيليا» التي ولدت له ابنته «لورا» عام ١٤٩٢م (وهو العام الذي اختير فيه لمنصب البابوية)» لكن مقص الرقيب لم يتجاوز ما أوردتُه حتى حذف العبارتين كلتيهما بحجة الاختصار حتى لا تتضخم الموسوعة. لكن الموسوعة تتنازل عن مطلب الاختصار عندما يتعلق الأمر بتمجيد أعلام اللاهوت الكاثوليكي. فمقال «أثناسيوس» أسقف الإسكندرية الذي نافح عن الكنيسة ضد الآريوسية يزداد توسعاً في الطبعات اللاحقة.

وأختم بالمقال المتعلق بـ «اليسوعية» ذلك التنظيم الكاثوليكي الخطير الذي تحدثتُ عنه بإسهاب في غير هذا الموضع. فقد هُذِّب هذا المقال حتى في نُسَخِه القديمة. ثم وُكِلَت كتابة المقال إلى الأب اليسوعي «تونتون» الذي زيف حقيقة اليسوعية في أعين القراء وألبسها لباس التقوى والورع. لكنه قال في أثناء المقال: «إن حقيقتين مرَوِّعتين لا يُختلَف حولهما تقابلان الدارس المتتبِّع لتاريخ الجمعية [اليسوعية]:

أولهما: الشكوك والعداء العالميان اللذان جلبتهما على نفسها، ليس فقط من البروتستانت الذين تعهَّدَت بمعاداتهم ولا من أعداء الكهنوت، بل من كل الأمم الكاثوليكية في العالم. لقد كان أكبر أعدائها من أتباع العقيدة الرومية الكاثوليكية»

لكن مقص الرقيب أتى على هذا المقطع فلم يُبق منه سوى عبارة وجيزة تزعم أن «أبرز حقيقة في تاريخ الجمعية هي الشكوك والعداء اللذان جلبتهما على نفسها من أتباع العقيدة الرومية الكاثوليكية» والفرق بين المعنيين شاسع. لكن سبب الشكوك والعداء – وَفْقاً للنسخة المنقحة هذه – هو فضل اليسوعية وانعدام الأمانة عند منتقديها!

هذا غيض من فيض أردت منه بيان هيمنة البابوية على تاريخ الغرب وفكره. فمن أراد أن يعرف مدى هذه الهيمنة فلن يجده فيما يُنشَر للعامة؛ فمقص البابوية لم يترك موسوعةً بوزن الموسوعة البريطانية؛ فكيف بغيرها؟

لقد كُتِب التاريخ الغربي لنا بأيدٍ ملطخة بالدماء، ومن ظن أنها ستكتب لنا قصة الضحية فقد وَهِم. فها نحن نشهد تزويراً لتاريخ نشهده ونعلمه؛ فكيف بما لم نشهده وما لا نعلمه؟

(1) McCabe, Joseph. The Social Record of Christianity (Book Tree, 2000), p. 4.

(2) Fulton, Justin D. Washington in the Lap of Rome (Boston: W. Kellaway, 1888), p. 25.

نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ في القرآن الكريم

توفيق علي زبادي

حِكَم وأسرار:

كثيراً ما يقرن الباري - سبحانه وتعالى - بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما.

أولاً: اقتران نبوَّة محمد ﷺ ونبوَّة موسى ﷺ: قال - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ١ - ٢]، وقال - تعالى -: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقال - تعالى -: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣]، وقال - تعالى -: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]، وقال - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: ١٥].

ثانياً: اقتران كتابيهما: قال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

ثالثاً: اقتران اتباعهما: قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾. [الأحزاب: ٦٩]

وفي السُّنة النبوية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاساً فِي الْقِسْمَةِ؛ فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاساً مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ. قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ! فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ! فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»)[1].

ومن حكمة هذا الاقتران:

أن كتابيهما أفضل الكتب، وأن شريعتيهما أكمل الشرائع، وأن نبوَّتيهما أعلى النبوات، أن أتباعهما أكثر المؤمنين، وأن كليهما كانت مهمته شاقة في دكِّ عروش الظلم وحصون الاستبداد ومقاومة الطغيان والإلحاد والخرافة، وتحرير الرقاب والقلوب من استعباد الإنسان للإنسان واستعباد الهوى للنفس؛ فبنو إسرائيل أذلَّهم الحكم الطاغي فأصبحوا

(١) صحيح البخاري: بَاب مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنْ الْخُمُسِ وَنَحْوِهِ، (٢٩١٧).

لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، والعرب أخذ سلطان القبيلة بنواصيهم واستحوذت العصبية القبلية على نفوسهم فخضع الضعفاء للأقوياء ودان العبيد للسادة[1].

وإن الله – سبحانه – علم أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مرَّ فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل؛ فعرض عليها مزالقَ الطريق، مصوَّرةً في تاريخ بني إسرائيل؛ لتكون لها عظةً وعبرةً؛ ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيَد الله – سبحانه – قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق[2].

وكما أن الأنبياء لا تخلو من الابتلاء بالمعاندين، كما حدث لموسى وهارون – عليهما الصلاة والسلام – فكذا لا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين؛ فقلما انفك وليٌّ أو عالم عن ضروب من الإيذاء، بنحو إخراج من بلدة، وسعاية إلى سلطان، وشهادة عليه حتى بالكفر، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا[3].

(١) تفسير سورة الأعراف د: محمد البهي، ص ٩٨.
(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٢٤٢.
(٣) فيض القدير: ٤/ ٣٦.

من مقاصد بعثة الرُّسل تحرير الإنسان:

أولاً: المقصد من بعثة الرُسُل تحرير أقوامهم من عبودية البشر:

قال – تعالى – على لسان موسى ﷺ ملخِّصاً مقصدَ رسالته: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقال – تعالى – آمراً موسى وهارون – عليهما السلام –: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٤٧]؛ أي: (أطلقهم من أسْرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم)[4]، (فإن بني إسرائيل عبيد لله وحدَه، وإن الإنسان لا يخدم سيدين، ولا يعبد إلهين؛ فمن كان عبداً لله، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه. وإذا كان فرعون إنما يُعَبِّد بني إسرائيل لهواه؛ فقد أعلن له موسى ﷺ أن رب العالمين هو الله. وإعلان هذه الحقيقة يُنهِي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل. إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان:

– تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله.

– تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٥٤.

البشر، ومن حكم البشر)[1].

وحتى يتحقق كمال الحرية لا بد أن تكون الحرية مع أهل الرشد والسداد؛ كما قال موسى ﷺ (مَعِيَ) فَتَقْيِيدُهُ بِـ (مَعِيَ)؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ إخْرَاجِهِمْ مِنْ مِصْرَ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الرَّسُولِ ليرشدهم وَيُدبر شؤونهم[2].

وهنا تساؤل: لماذا اقتصر موسى ﷺ عَلَى طَلَبِ إطْلَاقِ بَنِي إسْرَائِيلَ؟

قال ابن عاشور – رحمه الله –: (والِاقْتِصَارُ عَلَى طَلَبِ إطْلَاقِ بَنِي إسْرَائِيلَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى أُرْسِلَ لِإِنْقَاذِ بَنِي إسْرَائِيلَ وَتَكْوِينِ أُمَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ؛ بِأَنْ يَبُثَّ فِيهِمُ الشَّرِيعَةَ الْمُصْلِحَةَ لَهُمْ، وَالْمُقِيمَةَ لِاسْتِقْلَالِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ»[3].

وهذا الذي قاله موسى ﷺ يَسُن لنا أن يكون قادةُ النهضة أهلَ رُشدٍ وسدادٍ، قادرين على تدبير شؤون الخلق بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة. وأنه لا يستطيع قادةُ النهضة تكوين أمة ناهضة إلا بعد تحريرهم من استبداد المستبدين.

وهنا تساؤل أيضاً: هل حَرَّرَ موسى ﷺ بني إسرائيل من استبداد فرعون؟

نعم! لقد تحقق ذلك، ودليل ذلك: قول الله – تعالى – على لسان موسى ﷺ ممتنّاً على بني اسرائيل: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]. قيل: المراد بالمُلْك أنهم مَلَكُوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون[4]. وقال السدي – رحمه الله –: «جعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية فينا، ولا يغلبكم على أنفسكم غالب»[5]. وقال الحسن – رحمه الله –: «لأنهم مَلَكوا أنفسهم بأن خلَّصهم من استعباد القبط لهم»[6].

ثانياً: التوحيد هو الصورة المُثْلَى للتحرر:

إن الحرية الكاملة هي العبودية الكاملة لله لا لأحد سواه، وهذا ما حكاه القرآن عن نذر امرأة عمران. قال – تعالى –: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]؛ «أي: خالصاً مفرَّغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس»[7]. فهو: محرر من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله، سبحانه. والتعبير عن الخلوص المطلَق بأنه تحرير تعبيرٌ موحٍ؛ فما يتحرر حقاً إلا من يَخلُص لله كله، ويفر إلى الله بجملته، وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة؛ فلا تكون عبوديته إلا لله وحده. فهذا هو التحرر إذن، وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية.

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر؛ فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء مَّا في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرِّف هذه الحياة... لا تحرُّرَ وفي قلب الإنسان تعلُّق أو تطلُّع أو عبودية لغير الله، وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدَّة من غير الله. وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان[8].

من دلائل حرية الإنسان في القرآن:

- استخلاف الله - تعالى - الإنسانَ وتسخير العالم المشاهَد كله لخدمته:

لقد منح الله الإنسان كامل السيادة على الكون المشاهَد؛ وهذه لا تكون إلا لمن هو كامل الحرية القادر على إعمار الأرض وإقامة شرع الله فيها. قال – تعالى –: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فهي المشيئة العليا تريد أن تسلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمامَ هذه الأرض، وتطلقَ فيها يدَه، وتَكِلَ إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكَشْف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله – بإذن الله – في المهمة الضخمة التي وَكَلَها الله إليه[9]، كما قال – تعالى –: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

- القدرة على التمييز بين الخير والشر:

لقد وهب الله الإنسان حرية الإرادة والاختيار ليحاسَب على عمله ويتحمل المسؤولية الكاملة المترتبة عليه، وهذه الإرادة هبة ربانية، وهي مَنَاط تكليف الإنسان على غيره من المخلوقات. قال – تعالى –: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. قال الكعبي: (الآية دالة على أن العبد متمكِّن من الخير والشر،

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ٢٦٨.
(٢) التحرير والتنوير: ٩/ ٤٠.
(٣) التحرير والتنوير: ٩/ ٤٠.
(٤) فتح القدير: ٢/ ٢٨٩.
(٥) تفسير الرازي: ٦/ ٢٢.
(٦) تفسير النكت والعيون: ١/ ٣٥٥.
(٧) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣.
(٨) في ظلال القرآن: ١/ ٣٦٣.
(٩) في ظلال القرآن: ١/ ٢٨.

وأنه غيـــر مجبور على عمل بعينه أصلاً؛ لأن قولـــه: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ إنما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد. أما المجبور على أحد الطرفين، الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به)[1].

ثالثاً: إرسال الرسل دليل على حرية الإنسان:

فإذا كان الإنســـان مجبوراً على أعماله لا خيار له فيها، فما الفائدة من إرسال الرســـل إليه؟ ولماذا وجَّه الرسل دعوتهم إلى أقوامهـــم إذا كانوا لا حرية لهم؟ وما تفســـير إنجاء الله للذين سمعوا للرسل وأطاعوا؟ وما تفســـير إهلاك الله للذين سمعوا وعصوا؟ إلا أنهم مُنحوا الحرية للاختيار بين طريق الحق وطريق الباطل، بين سبيل الهُدى وسبيل الضلال.

وقد حكى لنا القرآن قصة قرية كذبوا الرسل فأخذهم الله بالعذاب كما قـــال – تعالى –: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَـــةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّـــةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَـــدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُـــمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢ – ١١٣].

وحكـــى لنا القرآن قصة قرية نفعهـــا إيمانها وهم أهل قرية يونس بن مَتَّى؛ فإنهم لـمَّا أيقنوا أن العذاب نازل بهم تابوا إلى الله – تعالى – توبة نصوحاً، فلمَّا تبيَّن منهم الصدق في توبتهم كشـــف اللـــه عنهم عذاب الخزي بعد أن اقتـــرب منهم، وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم، كما قال – تعالى –: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ضوابط الحرية:

لقد حدد الرســـول ﷺ مفهوم الحرية فـــي الحديث الذي رواه النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْـــفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَـــمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً»[2]. ومن هذه الضوابط:

١ – الاستقامة على شرع الله: والمراد: تمكُّن الاستقامة في النفس حتى تصرِّف غرائزها بمقتضى آداب الله تصريفاً جِبِلِّياً.

٢ – عدم إيقاع الضرر بالنفـــس وبالآخرين: فالحرية هي ألا تتجـاوز حـدود الآخـرين فتضـرَّهـــم. والإضرار بالنفس لا يجوز كذلك؛ فالإنسان يسعى في أرض الله ويبتغي الربح، ولكن بالوسائل المشـــروعة التي لا تـــؤذي المجتمع، ومن هنا حرَّم الإســـلام الربا والقمار واحتكار أقوات الناس، كما أعطى الإسلامُ الإنسان حرية التصرف في ما رزقه الله من مال وثروة ولكن بشـــرط ألا يتعدى الحدود الفاصلة بين العاقل والسفيه؛ فإن فعل وجب تعطيل نعمة الله عليه وسحب الحرية التي مُنِحَها فلم يُحسن استخدامها؛ كما قال – تعالى –: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّـــفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِـــي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

٣ – ألا تـــؤدِيَ حرية الفرد أو الجماعة إلى تهديد ســـلامة النظام العام وتقويض أركانه.

٤ – وألا تفوِّتَ حقوقـــاً أعم منها؛ وذلك بالنظر إلى قيمتها في ذاتها ورتبتها ونتائجها.

إذن فحرية الإنســـان مقدســـة، ليس لأحد أن يعتدي عليها، ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تُقرُّها، «كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»[3]. ولا يجوز لشـــعب أن يعتدي على حرية شـــعب آخر، وللشـــعب المُعْتَدى عليه أن يرد العدوان، ويســـتردَّ حريته بكل الســـبل الممكنة. قـــال – تعالى –: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ «أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم»[4]. وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته.

مما ســـبق ذكره يتضح لنـــا: أن المُتَمَتِّع بكامـــل حريته في التصـــرف في ما يملكه، يكون عزيزاً قوياً، قادراً على تأســـيس نهضة جديدة بمـــا ملَّكه الله من طاقـــات وإمكانات ووهبه من إبداعات في حدود الضوابط التي حددها الشـــرع متعبداً بذلك لله، ساعياً لرضاه بما فيه ســـعادة الخلق أجمعين، صابراً على الابتلاء واللأواء مستعيناً في ذلك برب الأرض والسماء.

وورثـــةُ الأنبياء منوطٌ بهم الســـعي لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، والله معهم ولن يترهم أعمالهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) تفسير الرازي: ١٠/ ١٧.

(٢) صحيح البخاري، بَاب: هَلْ يُقْرَعُ فِي الْقِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، (٢٣١٣).

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين المتقي الهندي: (١٢/ ٨٧٣)، كلمة لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩م.

(٤) تفسير ابن كثير: (٥/ ١٥١).

ضرورة في القلوب

عماد الصامت

لقد تظاهرت الآيات القرآنية، وتواترت الأحاديث النبوية، وشهدت الفِطَر المستقيمة، واتفقت كلمة المسلمين على أن الله – سبحانه تعالى – فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ينزِّل ملائكته بالروح من أمره على من يشاء من عباده. قال – سبحانه تعالى –: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقال – سبحانه تعالى –: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال – سبحانه –: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال في عبده المسيح – عليه الصلاة والسلام –: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، إلى غير ذلك من نصوص القرآن، جل قائله وتعالى منزله. أما الأحاديث فهي كثيرة جداً وأشهر من أن تُذكَر وأكثر من أن تُحصَر، وقد ذكر الحافظ الذهبي – رحمه الله – في كتاب العلو أكثر من مائة حديثٍ صحيح، تدل دلالة ظاهرة على علو الله – تعالى – على عرشه، ويكفي المنصفَ من ذلك

أحاديثُ النـــزول؛ فإنها متواترة رغم أنف كل معطل؛ كما قال الذهبي وابن القيم والألباني، وقـــد جمعها الحافظ الذهبي في جزء مفرد، ويكفي المنصفَ أيضاً أحاديثُ معراجه ﷺ إلى الســـموات العليا حتى وصل إلى سدرة المنتهى ورأى من آيات ربـــه الكبرى إن في ذلك لآيةً لكل ذي لب، وكفاية لمن له قلب. ونحن سنذكر للقارئ حديثاً واحداً؛ لأن المقام ليس مقام بسط الأدلة وإنما غرضنا الإشـــارة، وهو حديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم، ولا يشك في صحته إلا من كان في قلبه زيغ.

ومـــن أراد المزيد؛ فَلْيطالع (كتاب العلو) للذهبي و (اجتماع الجيوش الإسلامية) لابن القيم؛ ففيهما ما تنشرح له الصدور وتطمئن له القلوب.

عن معاوية بن الحكم السلمي قال: «كانت لي غنم بين أحدٍ والجوانية فيها جارية لـــي، فأطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشـــاة، وأنا رجل من بني آدم، فآسِفتُ؛ فصككتها؛ فأتيت النبـــي ﷺ فذكرت ذلك له، فَعَظَّم ذلك عليَّ، فقلت: يا رســـول الله أفلا أُعتقها؟ قال: ادعها. فدعوتها فقال لها: أين الله؟ قالت: في الســـماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها؛ فإنها مؤمنة».

قـــال الحافـــظ الذهبي – رحمه اللـــه – معلقاً على هذا الحديث: (وهكذا رأينا كل من يُسأل: أين الله؟ يبادر بفطرته ويقول: في السماء؟ ففي الخبر مسألتان:

إحداهما: شرعية قول المسلم: أين الله؟

ثانيتهما: قول المســـؤول: في الســـماء. فمن أنكر هاتين المسألتين فإنما ينكر على المصطفى ﷺ)[1].

إن صفة العلـــو قِبلَةٌ للقلوب، ومهوىً للأفئدة، ومســـتقر لـــلأرواح. قال الإمام أبو محمد الجوينـــي (والد أبي المعالي) مبيناً أثر عقيـــدة العلو في قلب المؤمن بها: (العبد إذا أيقن أن الله – تعالى – فوق الســـماء عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفيـــة، صار ذلك لقلبه قبلة في صلاته وتوجُّهه ودعائه، ومن لا يعرف ربه بأنه فوق سماواته على عرشه؛ فإنه يبقى ضائعاً لا يعـــرف وجهة معبوده بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشـياء، فإذا دخل في الصلاة وكبر توجه قلبه إلى جهة العـرش منزِّهاً ربه – تعالى – عن الحصر)[2].

فإذا قال المؤمن: يا رباه! قام بقلبه رب قيوم قائم بنفســـه مستوٍ على عرشه تُرفَع إليه الأيدي، ويصعد إليه الكلم الطيب، وتعـــرج الملائكة والروح إليه، وينـــزل الوحي من عنده، ويقف العباد بين يديه.

وهذه ضـــرورة من الضرورات، تهجـــم على النفوس فلا تســـتطيع ردها ولا يســـعها إنكارها؛ كما قال الشيخ العارف أبـــو جعفر الهمداني مخاطباً أبـــا المعالي الجويني (وقد كان أبو المعالي حينذاك ينكر صفة العلو): (هل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما تريد بهذا القول؟ وما تعني بهذه الإشارة؟ قال أبو جعفر: ما قال عارف قط: يا رباه! إلا قبل أن يتحرك لســـانه، قام من باطنه قصدٌ لا يلتفت يمنة ولا يســـرة يقصد الفوق؛ فهل لهذا القصد الضـــروري عندك من حيلة؟ فنبئنا نتخلـــص من الفوق والتحت. قال أبو جعفر: فبكيت وبكى مَنْ حولي فضرب الأستاذ أبو المعالي بكمه على السرير وصاح: يا للحيرة وكان بعد ذلك يقول حيرني الهمداني)[3].

وكانت حيرة أبي المعالي هذه قبل اســـتقراره على مذهب الســـلف؛ بل لعلها كانت المنطلق إلى هذا الاستقرار الذي أبان عنه في الرسالة النظامية.

قريب في علوِّه... عليٌّ في دنوِّه:

وهو – ســـبحانه – قريب في علوِّه، عليٌّ في دنوِّه وقربه، يقترب من عباده كيف شـــاء، و يقرِّب إليه من عباده من شاء، ويدنـــي إليه من يشـــاء، وأقرب ما يكون العبـــد منه إذا كان ســـاجداً بين يديه، أو كان داعياً رافعاً إليه يديه، أو كان العبد محســـناً كأنه يراه بين يديه. قـــال العلاَّمة ابن القيم – رحمه اللـــه –: (وإنْ عَسِـــرَ على فهم اجتمـــاع الأمرين فإنه يوضح ذلك معرفةُ إحاطة الرب وســـعته، وأنه أكبر من كل شـــيء، وأن الســـموات الســـبع والأرضين في يـــده كخردلة في كف العبد، وأنه يطوي سمواته السبع بيده، ويقبض الأرضين باليد الأخرى ثم يهزهن؛ فمن هذا شأنه كيف يعسر عليه الدنو ممن يريد الدنو منه وهو على عرشـــه، وهذا يوجب لك فهم اسمه الظاهر والباطن)[4].

(١) الذهبي، كتاب العلو، ص ١٨.
(٢) انظر رسالته في الاستواء في مجموعة الرسائل المنيرية: (١/ ١٧٧).
(٣) كتاب العلو، ص ٢٧، وقال الألباني: سند هذه القصة مسلسل بالحفاظ.
(٤) ابن القيم (مختصر الصواعق)، ص ٤٤٩.

نفسيَّة المستمع

سعيد السواح

أيها القارئ الحبيب!

هـذا الـكلام أوجهـه إلـى نفسـي أولاً قبـل أن أتوجه بـه إليـك كقارئ أو مسـتمع؛ فأقول لنفسـي: عندما أبدأ في الاسـتماع إلـى محاضرة، أو قراءة في كتـاب، أو قراءة موضـوع مـن الموضوعـات، أقـول: مـا هـو الهـدف الـذي أردت مـن أجلـه أن أقـرأ هذا الكتـاب أو أسـتمع إلى هذه المحاضـرة؛ إذ لا بـد مـن الحضـور القلبي قبـل الحضور البدني، ولا بد أن أدقق النظر في النفسية التي أُقدِم من خلالها للاطلاع أو الاسـتماع، فنفسية المستمع أو القارئ على إحدى صور ثلاث:

١ - (أسـتمعُ أو أقرأُ) **للمعرفـة**: أي: لزيادة في رصيد المعلومـات، والمعرفة بمعنى آخـر: ثقافة وإلمام بهذا الأمر؛ سـواء كان دينيـاً أو غيـره، ولوجود الرغبـة الكافية داخل نفسي ومحبتي لهذه الموضوعات (دينية كانت أو دنيوية).

٢ - (أسـتمعُ أو أقرأُ) **بـكل جوارحي للجدال والنقد**: فهـذا يقـرأ ويسـتمع بنفسـية يحاول مـن خلالهـا إيجاد الثغـرات التي سـيجادل ويعـارض من خلالهـا؛ لإبطال أو دفع ما يسمع أو يقرأ.

٣ - (أسـتمعُ أو أقرأُ) **وقد تهيـأت جوارحي للتنفيذ**: فأسمع بهذه النفسية؛ لكي أقف على ما هو المطلوب، وقد تهيأت تماماً للتنفيذ الفوري.

وأنـــا وأنت أيها القـارئ (نقرأ ونســـتمع) وينطبـق علينا ما قاله الله – تعالى –: ﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْـتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَى إِذَا خَرَجُوا مِـنْ عِندِكَ قَالُـوا لِلَذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَـاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِـكَ الَذِينَ طَبَعَ اللَهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَبَعُوا أَهْوَاءَهُـمْ ﴿١٦﴾ وَالَذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٦ – ١٧]. فالكل قد استمع، والكل حضور في مجلس واحد، ويستمعون من معلم واحد. تُرَى ما هي النفسية التي جاءت بها الطائفة الأولى الذين حرموا الفهم؟

فالحضـــور البدني موجود إذن، ولكن الحضور القلبي مـــا زال معلقاً عليـــه القفل الحاجز والمانع من الاســـتيعاب والفهم.

والله – ســـبحانه – يعلمنا ويرشـــدنا، إلى النفسية التي (نســـتمع أو نقرأ) من خلالها؛ إذ يقول – سبحانه –: ﴿ يَا أَيُهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَهَ وَرَسُـولَهُ وَلا تَوَلَوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْـمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَذِينَ قَالُوا سَـمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْـمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَ شَرَ الدَوَابِ عِندَ اللَهِ الصُمُ الْبُكْمُ الَذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْـمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْـمَعَهُمْ لَتَوَلَوْا وَهُم مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَهِ وَلِلرَسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾. [الأنفـال: ٢٠ – ٢٤]. انظر إلى مـــا بين النداءين؛ إذ ينبهنا في النداء الأول على وجوب طاعة الله – تعالى – وطاعة رسوله ﷺ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ويحذرنا من التولي والإعراض بعد ما ســـمعنا ما هو المطلوب، وبعد ما تُليَت علينـــا من آيات ربنا، فعرفنا ما وصانا الله به وما أمرنا به وما نهانا عنه، وحذرنا الله – تعالى – أن نتشـــبه بهـــؤلاء الذين اكتفوا بأنهم ســـمعوا ســـماع إدراك لم يتعد الآذان وقلوبهم مغلقة ما زال عليها القفل؛ فلم تدخل المعاني إلى نفوسهم وقلوبهم؛ فكانت منهم الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، وهؤلاء هم شر الدواب.

ولـــم يكتف الوعـــظ أن يقف عند ذلك، بـــل بيَّن الاتجاه الصحيح وما يراد من الاستماع؛ ألا وهو الإجابة، فكان النداء الثاني الذي بين لنا أن الغرض من الاستماع إلى آيات الرحمن: السمع والطاعة، وإجابة الداعي. وكذلك نفسية الجن عندما استمعوا إلى كلام الله – تعالى – عندما كان يقرؤه النبي ﷺ في صلاة الصبح: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَ أَنَهُ اسْـتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ فَقَالُوا إِنَا سَـمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُشْدِ فَآمَنَا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِنَا أَحَداً ﴿٢﴾ وَأَنَهُ تَعَالَى جَدُ رَبِنَا مَا اتَخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً ﴾ [الجن: ١ – ٣].

لقد تعلمنا من الجن كيف نســـتمع، فـــكان هذا هو معيار اســـتماع هؤلاء الذين صرفهم الله – تعالى – إلى رســـوله ﷺ ليســـتمعوا إلى قراءتـــه وتلاوته التـــي كان يتلوها في صلاة الصبح، وهذه هي نفســـية الباحث عن الحق، والحقيقة؛ فإنه يبحث بكل كيانه وجوارحه؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿ وَأَنَا لَمَا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً ﴾ [الجن: ١٣].

وإليـــك هذه الآيات التي تصف لنا كيف تهيئوا للاســـتماع فكان حضور القلب قبل اســـتماع الأذن: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَا سَـمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَـى مُصَدِقاً لَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْـتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَـهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لاَ يُجِـبْ دَاعِيَ اللَهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأحقـاف: ٢٩ – ٣٢]. فانظر إلى هذا الأثر الظاهر على سلوكهم بعد ما سمعوا ووعوا وفهموا المعاني والدلالات.

نفسية من سعى وبحث للوصول إلى الحق:

﴿ لَتَجِدَنَ أَشَـدَ النَاسِ عَـدَاوَةً لِلَذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَ أَقْرَبَهُم مَوَدَةً لِلَذِينَ آمَنُوا الَذِيـنَ قَالُوا إِنَا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَ مِنْهُمْ قِسِيسِـينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَـمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَسُـولِ تَرَى أَعْيُنَهُـمْ تَفِيضُ مِنَ الدَمْعِ مِمَا عَرَفُوا مِـنَ الْحَقِ يَقُولُونَ رَبَنَا آمَنَا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَـاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِ وَنَطْمَـعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُنَـا مَعَ الْقَوْمِ الصَالِحِـينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْـرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِـنِينَ ﴾ [المائـدة: ٨٢ – ٨٥]. فتراهم عندهم معيار للحق، فإذا وصل إلى مســـمعهم آيات الرحمن علموا مباشـــرة أنه الحق؛ وذلك من خلال الميزان الذي أقاموه في نفوسهم وقلوبهم.

فنقول – أيها القارئ الحبيب –: ماذا بعد الســـماع؟ هل نقف عند الوصول للمفهوم الصحيح وانتهى الأمر؟ إننا نتعلم ونســـتمع ونقرأ؛ لكـــي نقف على المدلول الصحيـــح، ومن ثَمَّ ننطلق بعد ذلك إلى العمل والتنفيذ؛ لأن صحة العمل موقوفة على صحة الفهم.

النفسية التي يستمع بها المؤمن:

﴿ وَقُرْآنـاً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَاسِ عَلَـى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُـلْ آمِنُوا بِـهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَ الَذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِـهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلأَذْقَانِ سُـجَداً ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُـبْحَانَ رَبِنَـا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِنَا لَـمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦ – ١٠٩]، فعمل الظاهر يدل على أن السماع كان صحيحاً.

والنفســـية التي يستمع بها العقلاء (نفســـية أولي الألباب) تتجلى في قوله – تعالى –: ﴿ رَبَنَا إِنَنَا سَـمِعْنَا مُنَادِيـاً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ

آمنُـوا برَبِكُمْ فَآمَنَا رَبَنَا فَاغْفِرْ لَنَـا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَا سَـيِئَاتِنَا وَتَوَفَنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَنَـا وَآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُـلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣ – ١٩٤].

فهم استمعوا سماع المستجيب لما تدعوه إليه الآيات؛ ولذا ترى علاقة الاسـتجابة متمثلة في الأعمال الصالحة واللجوء إلى الله – تعالى – بالدعاء وطلب المغفرة: ﴿فَبَشِـرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبِعُونَ أَحْسَـنَهُ أُوْلَئِكَ الَذِينَ هَدَاهُمُ اللَهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨].

فهم اسـتمعوا إلى آيات الرحمن وأعقبوا ذلك بالعمل من خلال ما دلت عليه الآيات.

نفسية المنشغل بالمطالب الدنيوية:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِهِم مُحْدَثٍ إِلاَ اسْـتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾. [الأنبياء: ١ – ٣]، فهذا المنشغل يستمع سماع إدراك؛ فقد وصل الكلام إلى أذنيه، ولكن انشغال القلب ما ترك له فرصة للتدبر والفكـر، فكان الحضور البدني، أمـا الحضور الروحي فهذا مفقود؛ فالقلب منشغل مغلق غير يقظان.

نفسية المجادل:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَـمِعْنَا لَوْ نَشَـاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَ أَسَاطِيرُ الأَوَلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، فهذا المجادل يسمع، ولكن ليست بنفسية المستمع المستجيب الذي يبحث عن الحق، وعن طريق النجاة، ولكن بنفسـية الكاره للحق؛ فهو لم يرغب من استماعه الوصول إلى الحق، ولكن قضيته في السعي لإبطال الحق.

نفسية المستكبر:

فهذا المستكبر يستمع، ولكنه ليس بباحث عن الحق، ولكن بنفسـية المتعالي عن الحق المتعاظم في نفسه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِ أَفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْـمَعُ آيَاتِ اللَهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَ يُصِرُ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧ – ٨].

النفسـية التي كان الصحابة – رضي الله عنهم – يستمعون بها:

فلقد كان الصحابة – رضي الله عنهم – عندما يستمعون إلى كلام ربهم، يسـتمعون إليه وقد هُيِّئوا تماماً للاسـتقبال والتنفيذ الفوري، فكانت الأذان تسـمع ثم تنقل هذا المسموع علـى الفور وفي اللحظة نفسـها إلى قلوبهـم؛ ليترجَم ذلك المسـموع، ويظهر في صـورة التطبيق الفـوري بلا تأخير، يتمثلون في ذلك قول الله – تعالى –: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعـراف: ٢٠٤]، وقوله: ﴿إِنَمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُوا سُـجَداً وَسَـبَحُوا بِحَمْـدِ رَبِهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، فكانت هذه الآية هي القاعدة التي يتعاملون من خلالها مع آيات ربهم.

وختاماً إليك – أخي – هذه القصة:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: (لَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَهِ ﷺ: ﴿لِلَهِ مَا فِي السَـمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِـكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِـبْكُم بِهِ اللَهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِبُ مَن يَشَاءُ وَاللَهُ عَلَى كُلِ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُـولَ اللَهِ ﷺ ثُمَ بَرَكُوا عَلَى الرُكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَلاةَ وَالصِيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَدَقَةَ. وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُـولُ اللَهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُـوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَتْ بِهَا أَلْسِـنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَـهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَسُـولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِـن رَبِهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُلٌ آمَنَ بِاللَـهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لا نُفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَا فَعَلُـوا ذَلِكَ نَسَـخَهَا اللَـهُ، تَعَالَى. فَأَنْزَلَ اللَـهُ – عَزَ وَجَلَ –: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَهُ نَفْسًا إِلاَ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَـا مَا اكْتَسَـبَتْ رَبَنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِـينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قَالَ: «نَعَمْ». ﴿رَبَنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾. قَالَ: «نَعَمْ». ﴿رَبَنَـا وَلا تُحَمِلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾. قَالَ: «نَعَمْ». ﴿وَاعْفُ عَنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. قَالَ: «نَعَمْ»)[1].

فهل رأيت كيف فهم الصحابة – رضي الله عنهم – الآيات؛ فاندفعوا عندها إلى النبي ﷺ يشـتكون ضيقهم، وأن مدلول الآية لو طُبِّق؛ لهلكوا؟

ثم انظـر إلى تربية النبي ﷺ للصحابـة، وتربيتهم على تصحيح النفسـية التي يسـتمعون بها فلا تكن كحال نفسية اليهود والنصارى الذين يسـتمعون بنفسية المتولي والمعرض، ولكن نفسية المؤمن؛ نفسية المستمع المستجيب.

وانظر إلى نفسية الصحابة – رضي الله عنهم – لما سمعوا ما قال النبي ﷺ: «بَلْ قُولُوا: سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فقالوا من فورهم بلا تردد ولا تباطؤ: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).

(١) رواه مسلم.

ولا أسهل!

الآن .. منتجات دواجن الوطنية أصبحت أكثر تنوعاً وأكثر سهولة لتناسب كافة الأذواق، لتكون اختيار الأم الحقيقي

حب الأم الحقيقي.. متنوع حقيقي

AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيد أمينة

HACCP
SGS
أعلى المقاييس الدولية للغذاء

MOODY INTERNATIONAL CERTIFICATION
UKAS
ISO 9001-2000 REGISTERED COMPANY

إنتاج المملكة العربية السعودية • الرقم المجاني ٨٠٠١٢٤٤٦٦٦ • www.al-watania.com

اضطراب الملحدين (٢-٤)

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

اضطرابهم في نقدهم لأدلة وجود الخالق:

علَّل بعض الغربيين إنكارهم لوجود الخالق بنقدهم لما سُمي ببراهين وجود الخالق كما وجدوها عند بعض فلاسفتهم وعلماء دينهم. وأكثر هذه البراهين شهرة عندهم هي البراهين المنسوبة إلى قديسهم توما الأكويني Thomas Aquinas الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، والذي كان قد تأثر كثيراً بكتابات علماء المسلمين وفلاسفتهم؛ ولا سيما الفقيه الفيلسوف ابن رشد، عليه رحمة الله. والبراهين المنسوبة إليه كانت في جوهرها؛ بل أحياناً في ألفاظها مأخوذة من كتابات المسلمين.

ومن آخر مَنْ انتقد هذه البراهين الأكوينية وزعم أنها باطلة وجعل بطلانها دليلاً على عدم وجود الخالق: الداروني المشهور ريتشارد دوكنز Richard Dawking في كتابٍ له حديثٍ نال شهرة واسعة. حشد دوكنز في هذا الكتاب كلَّ ما عرف الغربيون من شبهات تشكِّك في وجود الخالق، وكان من هذه الشبهات: الزعم بأن الأدلة العقلية على وجوده أدلَّة باطلة.

اختار دوكنز ثلاثة براهين لكنني سأختار واحداً منها فقط؛ لأنه انتقدها كلها نقداً واحداً.

يقول دوكنز مقرراً هذا البرهان الذي أسموه بالسبب الذي لا مسبب له: (لا شيء يكون سبباً لنفسه. كل أثر له سبب سابق، وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى تسلسلٍ قَبْلي يجب أن يوقف بسببٍ أوَّل، وهو الذي نسميه الله)[1].

ويقول دوكنز: (كل هذه الحجج تعتمد على فكرة التسلسل القَبْلي وتلجأ إلى الخالق لينهيه. إنها تفترض افتراضاً لا مسوغ له، هو أن الخالق نفسَه غير خاضع لهذا التسلسل. حتى لو سمحنا بالترف المشكوك في فائدته، ترف استحضار قاطع للتسلسل بطريقة تحكُّمية، وإعطائه اسماً لا لسبب إلا لأننا بحاجة إليه، فليس هنالك سبب على الإطلاق لإضفاء أيٍّ من الصفات عليه التي يوصف بها الله في العادة)[2].

أقول: إن نقد دوكنز هذا يدل على أنه لم يفهم الدليل؛ ربما لأن تشبثَه بالإلحاد، واعتقادَه أنه لا يمكن أن يقوم دليل على وجود الخالق منعه من أن يتأمله، فتعجَّل في نقده له نقداً جائراً.

إن جوهر الدليل، هو إثبات أن الكون حادث. وهذا ما كان ليوجد لولا وجود موجِدٍ غير حادث؛ فالدليل يقول: إن الحادث لا بد له من محدِث؛ فإذا كان سبب الحادث حادثاً فلا بد لهذا الثاني من محدِث وهكذا في الثالث والرابع

(1) Richard Dawkins, The God Delusion, Bantam Press, 2006, p.77

(2) Ibid, p77.

وإلى ما شئت. لكن هذا معناه: أن وجود الحادث معلَّق على عدد لا ينتهي من الأسباب المحدَثة، وهذا معناه: أنه لن يحدث. لا بد لوجود الحوادث إذن من سبب أزلي غير حادث.

لماذا لا يكون الخالق خاضعاً للتسلسل؟ أي لماذا لا نقول عنه كما نقول عن الحوادث: ما سبب وجوده، وما سبب وجود ما أوجده؟ وهكذا. هذا سؤال أراه في غاية الغباء؛ لكنه سؤال يكرره بعض عِلْيَة القوم المتخصصين بالفيزياء، كما فعل الفيزيائي المعاصر المشهور هوكنج. إنه سؤال في غاية الغباء؛ لأنه ما دام الخالق أزلياً غير حادث، فلا مجال للسؤال عن موجد له. فإذا قيل: من أوجده قلنا: لا شيء أوجده؛ لأنه ظل موجوداً منذ الأزل.

يقول بعضهم: ما الدليل على أنه أزلي؟ ونقول كما قال من سبقنا من العلماء: إن الدليل على أزليته هو وجود الأشياء الحادثة التي ما كانت لتحدث - كما قدمنا - لو أنها كانت معتمدة في وجودها على حوادث مثلها. فوجود الحوادث هو الدليل على موجدٍ غير حادث.

وقول دوكنز: إنه لا سبب على الإطلاق لإضفاء شيء من الصفات التي يوصف بها الله - تعالى - على السبب الذي يقطع التسلسل، هو من أعظم الأدلة على أن الكفر يُعمِي قلب الإنسان ويَذهَب بعقله. كيف لا يتصف بشيء من صفات الله، تعالى؟ ألا تدل الحجة على أنه أزلي غير حادث؟ وأليست هذه من أول صفات الخالق التي يعرفها كل مؤمن به؟ ثم إذا كان أزلياً فلا بد أن يكون أبدياً لا يزول، وهذه صفة ثانيةٌ من صفات الخالق، وهما الصفتان المعبَّر عنهما في القرآن بوصف الله - تعالى - بكونه: هو الأول والآخر. وإذا لم يكن حادثاً فإنه لا يُحدِث آثاره كما تُحدِث الأسباب الحادثة آثارها بطريقة طبيعية لا إرادة فيها، بل لا بد أن يكون فاعلاً مريداً. وإذا كان مريداً فلا بد أن يكون حيّاً.

وهكذا نستطيع أن ندلل على كثير من صفات الخالق الواردة في الشرع بأدلة عقلية. وهذا أمر قد عرفه كثير من أئمة أهل السُّنة؛ حتى إن بعضهم قال: إن صفة العلو يمكن أن تُعرَف بالعقل؟

إن حجة التسلسل التي كنا ننصرها حتى الآن حجة صحيحة، لكن الحجة العقلية القرآنية على وجوده - سبحانه - أحسن منها، وأخصر، وأبين، وأبسط. يقول الله - تعالى -: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

تقول هذه الآيات للمنكرين لوجود الخالق: إذا لم يكن هنالك خالق؛ فكيف وُجِدتُّم؟ هل جئتم من العدم، أم أنكم أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟ ومن الذي خلق هذا الكون؟ هل كنتم أنتم الذين خلقتموه؟

فلا بد أن يكون الذي خلقه هو الله - تعالى - لأنه يستحيل أن يأتي من العدم ويستحيل أن يخلق نفسه.

هذا الذي قلنا: إنه مستحيل عقلاً، كان أمراً مسلَّماً به عند كل العقلاء؛ من آمن منهم ومن كفر، لكن بعض علماء الفيزياء في عصرنا صاروا يقولون بإمكانه، أتدرون لماذا؟ لأن نظرية الانفجار العظيم أحرجتهم فصاروا مضطرين لأن يختاروا بين القول بوجود خالق للكون أو القول بكونه أوجد نفسه من العدم، فاختاروا هذا المستحيل هرباً من الاعتراف بوجود الخالق.

يقول الفيزيائي هوكنج في كتاب له حديثٍ، كما روى عنه مستعرضو كتابه: (لأن هنالك قانوناً مثل قانون الجاذبية؛ فإن الكون يستطيع أن يوجِد نفسه من العدم، بل إنه سيفعل ذلك... إن الخلق التلقائي هو السبب في أن هنالك شيئاً، وليس لا شيء، وهو السبب في وجود الكون وفي وجودنا. وبناءً عليه فلا داعي للُّجوء إلى الله لجعل الكون يسير)[1].

هذا كلام لو قاله شخص عادي لظن الناس أن في عقله خللاً. أليس قانون الجاذبية قانوناً في داخل الكون؟ كيف يكون إذن سبباً في وجوده؟ ثم ما معنى أن يُخلَق شيء من العدم؟ إن العدم ليس بشيء؛ فكيف يُخلَق منه أو به شيء؟

ومن الغرائب أنه قبل ظهور نظرية الانفجار العظيم، كان أكثر ما يأخذه علماء الطبيعة والفلاسفة الملحدون على الدين كونَه يقول: إن الله - تعالى - خلق الإنسان أو الكون من العدم. هذا مع أن فكرة الخلق من العدم - رغم ذيوعها - ليست مما جاء به الدين؛ فلا يوجد في الإسلام نص على خلق شيء من العدم. وكذلك الأمر بالنسبة للكتب (المقدسة) عند النصارى واليهود؛ كما تقول دائرة المعارف الدينية.

اعترض كثير من الفيزيائيين، بل حتى من الملحدين منهم على كلام هوكنز ذاك فقال بعضهم: إنه حشره حشراً في الموضوع، وقال بعضهم: إنه إذا كانت هنالك مشكلة في وجود الخالق، فإن المشكلات الموجودة في نظرية الانفجار أعظم منها.

(1) http://ca.news.yahoo.com/s/reuters/100902/science/science_us_britain_hawking.

هوس التفسير السياسي

فهد بن صالح العجلان

تتملكني الدهشة والإعجاب كلما نظرت في بعض المواقف الصارمة لأئمة السلف من الأحكام الفقهية المتعلقة بالتعامل مع (السلطة السياسية)، ولو فتح الشخص صفحة ذلك التاريخ لانهالت على ناظريه عشرات القصص والأخبار في إنكار الدخول على السلاطين، أو تولي القضاء لهم، وإسقاط الرواية عمَّن وجدوه مترخصاً في ذلك، إلى مواقف أشد حسماً وصرامة كمثل ما روي أن (خلفاً البزار) رفض الرواية عن شيخه (الكسائي) بسبب أنه سمعه مرة يقول: سيدي الرشيد، فقال: (إن إنساناً مقدار الدنيا عنده أن يجعل من إجلالها هذا الإجلال لحري أن لا يؤخذ عنه شيء من العلم)[1].

وأتساءل مع القارئ الكريم: ما سبب هذه الصرامة المنهجية التي سلكها أولئك الأئمة؟

يحلو لكثير من الناس أن يبحث لها عن مبررات وأعذار؛ لأن ثَمَّ قناعة في التفكير الفقهي المعاصر بعدم رجحان مثل هذه المواقف بناءً على قاعدة جلب المصالح ودفع المفاسد، وهي آراء قابلة في تفاصيلها للاجتهاد والأخذ والرد، غير أن ما يدهش المتابع حقاً أن هذا الموقف في جملته قد كان صيانة ربانية وعناية إلهية لهذه الشريعة من حيث لا نشعر؛ لأن (التفسير السياسي) هو أعظم قوس جائرة سُدِّدت إلى جسد التراث الإسلامي؛ فكل الدراسات الفكرية المعاصرة التي أخذت تنبش في تاريخ الإسلام وتراثه كانت تعتمد بشكل رئيس على تأثير السياسة على النصوص الشرعية وطرائق الاستدلال والاجتهاد، وأن الأحكام والنصوص لم يكن مردُّها إلى التشريع والديانة بقدر ما هي متأثرة بواقعها الذي صاغته السياسة.

وحين يعرف المتابع حقيقة ما كان عليه العلماء في ذلك الزمن، وبُعدَهم عن السلطة، وتحاشيهم عنها، وتحفُّظهم من مجرد الدخول عليها أو تولي القضاء لديها، فإنه سيجد أن مثل هذا الاتهام ضرب من الهجاء والشتيمة لا أساس له من البحث العلمي.

يغطي التفسير السياسي مساحة واسعة في حركة خلايا العقل العَلماني المعاصر، ولو تعطل هذا التفسير لتوقفت حركة تلك القراءات عن البحث في تراث الفقهاء ونصوص السَّنة؛ فلا يقرأ الباحث منهم أي حكم أو ينظر في أي نص إلا ويفتش عن أثر السياسة في الموضوع، وبطريقة كسولة جداً لا تتعدى ربط أي نص شرعي بأقرب حدث سياسي، وتعليق أي حكم بأدنى سلطان (فما من شيء في هذا التاريخ إلا وهو مبصوم بخاتم السياسة: الفكر، والفقه، والاجتماع، والاقتصاد، واللغة، والفن، والجغرافيا، والسيكولوجيا، بل النص الشرعي ذاته)[2].

فكلها مصبوغة بالسياسة، ولم يبقَ ما هو خارج عن تأثير السياسة إلا شيء واحد، وهو ما يكتبه مثل هذا المؤلف، والبحوث والأفكار التي يقررها فهي بلا شك بعيدة عن تأثير السياسة التي تبصم على كل شيء.

ومع أن التفسير السياسي هو أكبر الأدوات التفسيرية التي يعتمدها هؤلاء في قراءتهم للتراث، وهو أكثرها شيوعاً وحضوراً؛ إلا أنه في الوقت نفسه أضعف نقطة وأهش زاوية يعتمدون عليها؛ فنشر نماذج وأمثلة للتفسير السياسي على السطح كافٍ لكشف المستوى الموضوعي والعلمي لتلك الدراسات، وأن هذا التفسير يعبر عن حالة مَرَضيَّة أكثر من تعبيره عن روح علمية.

فأحدهم يقرر تأثير السياسة على الشافعي؛ لأنه (الفقيه الوحيد من فقهاء عصره الذي تعاون مع الأمويين مختاراً راضياً)[3]. ولشدة ضغط المرض السياسي خفي عليه معرفة مولد الشافعي الذي يعرفه الجميع وهو (سنة ١٥٠هـ)؛ أي: بعد زوال الدولة الأموية بثماني عشرة سنة.

وباحث آخر يفسر الظاهرة التي كان عليها (ابن حزم) بأنها موقف سياسي اتخذه

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ٢/١٣٣.

(٢) السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، لعبد الجواد ياسين، ص ١٦٨.

(٣) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، نصر حامد أبو زيد، ص ١٦.

ابن حزم لأجل أن الدولة الأموية بالأندلس تحتاج لمشروع يناهض المشروع الثقافي لخصميها (العباسي) و (العبيدي) فجاءت بابن حزم (لينطق باسمها ويحمل مشروعها الثقافي)[1]. وقد أعماه التفسير السياسي عن إدراك الحقيقة التاريخية الواضحة من أن الدولة الأموية بالأندلس قامت سنة (١٣٨ هـ)؛ أي: قبل مولد ابن حزم بما يقارب قرنين ونصف من الزمان؛ إذ ولد سنة (٣٨٤ هـ)، وسقطت الدولة سنة (٤٢٢ هـ) وابن حزم ما يزال في عز شبابه (ت ٤٥٦هـ).

ومؤلِّف ثالث يتهم كعب الأحبار بأنه يروي الأخبار تملُّقاً لعبد الملك بن مروان[2] مع أن كعباً قد توفي عام ٣٤ هـ قبل أن يتولى عبد الملك الخلافة بما يزيد عن ثلاثين سنة، وهي فضيحة يستحي منها أي باحث لم يبتلى بمرض التفسير السياسي.

وقد كنا نحسب مصطلح (إجماع أهل المدينة) عند المالكية دليلاً وأصلاً شرعياً، لكننا لم ننتبه لكونه سلاحاً سياسيّاً وعصياناً للسلطة كما تفطَّن أحدهم حين قال: (فلو أراد إمام دار الهجرة التقرب إلى السلطة السياسية لوجد الطريق إلى ذلك سهلاً، بإسقاط هذا الأصل الذي انفرد به دون غيره، والذي يكفي لندرك بعده أن نرى فيه محاولة لإضفاء الشرعية على إجماع أولئك الذين قاوموا طويلاً سلطتي دمشق وبغداد)[3].

وخذ من الأمثلة والقراءات العقلانية التي تحكم على الحديث إذا ورد في فضل أحدٍ بأنه من وضع أنصاره، وإذا ورد في ذم أحدٍ بأنه من وضع أعدائه، وأي نص له علاقة بالواقع فهو من صياغة الواقع له.

ومع ذلك، فالهوس بالتفسير السياسي لم يكن من إبداعهم وابتكارهم، بل نقلته تلك الدراسات المعاصرة من المدرسة الاستشراقية التي غرستها في أدمغة تلاميذها المقلدة فما عادوا يبصرون جيداً من دونها، وقد أحسن العلاَّمة (المعلمي) وصف بعض أسباب الخلل لديهم من أنهم (إنما يعرفون الدواعي إلى الكذب ولا يعرفون معظم الموانع منها)[4]؛ فهؤلاء الناس يعرفون الدواعي لتأثير السياسة من جهة قوة السلطان ورغبة الناس في التملق إليهم لكنهم لا يعرفون الموانع التي تحول دون تأثير السياسة كمثل ما عليه العلماء من الديانة والعدالة، ونفرتهم من الكذب، وما جرى من صيانة للعلم بالرواية والتدوين والجرح والتعديل مما يجعل تأثير السياسة فيها مستحيلاً.

فحقيقة الأمر أن كثيراً من القوم إنما يعبرون عما يجدونه في نفوسهم، فإذا شاهدوا تأثير السياسة على تغيير قناعاتهم ومذاهبهم ظنوا أن غيرهم لن يكون أحسن حالاً منهم، مع كثافة جهلٍ تحول دون فهمهم لحال التراث والشريعة التي يريدون تقديم تفسير لها، للحد الذي يقرر فيه أحدهم: (لقد كان القائمون بجمع الروايات (النصوص) من المحدثين هم أنفسهم الفقهاء الذين يمارسون اللحظة ذاتها، عملية التدوين النصي وعملية التنظير الفقهي وفي ظل هذا الوضع لا يؤمَن من التداخل والقلب بين التشريع والتفسير)[5]، فهو يتصور أن الفقهاء لم يكونوا يفرقون بين أقوالهم وبين أقوال النبي ﷺ؛ فيمكن للفقيه أن تختلط عليه فيجعل قوله هو قول الرسول ﷺ من حيث لا يشعر، فهذا التصور الظريف في فهم تاريخ المسلمين يفسر لك سر تضخم هذا الوهم في رؤوسهم.

هذا (التفسير السياسي) لا يقوم على أي إثبات أو برهنة علمية، فطريقتهم تقوم على ربط أي حكم أو نص شرعي بالسياسة من دون أي دلائل قاطعة، وإنما لأنه يشك – أو يريد أن يشك بالأصح – يبدأ في البحث عن أي مؤثر سياسي من دون أي يقدم على ذلك أي برهنة، وهذه الطريقة في إنكار الحقائق والطعن في الشرائع بمحض الأوهام ليست مبتكرة لهم فهي طريقة قديمة في التعامل مع محكمات الشريعة، فهذا أحد المبتدعة القدامى يدعي أن الزنادقة قد دسوا على أهل الحديث اثنا عشر ألف حديث من حيث لا يشعرون (لاحظ ضخامة العدد)، وهو ما دفع الإمام الدارمي إلى الجواب عنه متهكماً (دونك أيها المعارض فأوجدنا عشرة أحاديث دلسوها على أهل العلم... أو جرب أنت فدلس عليهم عشرة حتى تراهم كيف يردونها في نحرك)[6].

هل معنى هذا أن السياسة لا تؤثر ولا تستغل الأحكام الشرعية؟

أبداً، بل لها تأثير ولا شك في ذلك، لكن تأثيرهم لم يمسَّ أصل الشريعة ولا نصوصها ولا مذاهب الفقهاء وأصولهم؛ فالتأثير يكمن في استغلال بعض النصوص والمواقف، وربما في تقديم بعض الفقهاء لأهوائهم وشهواتهم إرضاءً للسياسة لكن ذلك لا يضر إلا من فعل، أما نصوص الشريعة وأصول الاستدلال وقواعد الفقه فقد كانت في منعة أي منعة، عن التأثر بذلك، وكل محاولة تُثبِت خلاف ذلك فإنها ما زالت عاجزة عن إقامة أي إثبات علمي سوى الاعتماد على الشك والخرص على طريقة أحدهم حين يحلل أحداث التاريخ منطلقاً من (يبدو) و (أظن) و (لا يُستبعَد)، ثم بعد ذلك (فتحصل يقيناً)[7].

(١) تكوين العقل العربي، لمحمد عابد الجابري، ص ٣٠٩.
(٢) السلطة في الإسلام، لعبد الجواد ياسين، ص ٢٧٤.
(٣) الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، لعبد المجيد الصغير، ص ٢٣٥.
(٤) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، لعبد الرحمن المعلمي: ١/ ٢٧.
(٥) السلطة في الإسلام، لعبد الجواد ياسين، ص ٣٢١.
(٦) نقض عثمان بن سعيد، ص ٤٠١.
(٧) أشير هنا وأشيد برسالة لطيفة بعنوان (التفسير السياسي للقضايا العقدية في الفكر العربي المعاصر) للأستاذ الباحث: سلطان العميري، وهي من إصدارات مركز التأصيل للدراسات والبحوث، فهي جديرة بالقراءة والاطلاع.

حرقة

د. أحمد بن يحيى بهكلي

أنـــت - إن تحـــرق وإن لـــم تحـــرق -
حـــاقـــدٌ مـــن أخـــمـــصٍ لـــلـــمـــفـــرقِ

لـــســـتَ شـــيـــئـــاً، مـــا عـــهـــدنـــا حـــســـنـــاً
مـــنـــكـــمـــو، يـــا جُـــحْـــر جـــهـــلٍ مـــغـــرقِ

ربمـــا فـــاض بـــك الحُـــمْـــق، وهـــل
مـــن هـــدى يُـــرجَـــى لـــعـــقـــل الأحـــمـــقِ؟

صَـــه، وإن كُـــنَّـــا عـــرفـــنـــاك فـــمـــا
أنـــت إلا الـــصِّـــل ذو الـــسُّـــم الـــنـــقـــي

لـــســـتَ تـــرقـــى لـــهـــجـــائـــي، إنـــمـــا
أنـــت مـــأفـــونٌ خـــســـيـــسٌ المـــنـــطـــقِ

ولمـــــاذا أُرهِـــــق الـــنـــفـــس إذا
كـــنـــتَ مـــن لـــؤمـــكَ لـــم تُـــرهَـــقِ؟

ولِـــــمَ الـــلَّـــوم لمـــن لا يـــرعـــوي
عـــن غِـــوايـــاتِ الـــطـــريـــق الأخـــرقِ؟

وكـــتـــاب الـــلـــه مـــحـــفـــوظٌ بمـــا
وَعَـــد الـــرحـــمـــن مـــا حَـــيٌّ بـــقـــي

وهـــو يـــجـــري فـــي الـــشـــرايـــين وإن
بـــات فـــيـــنـــا صـــامـــتـــاً كـــالـــمُـــطـــرقِ

أســـفـــي زادَ عـــلـــى مـــن هـــجـــرُوا
مـــنـــه مـــا يـــضـــمـــن ســـعـــداً لـــلـــشَّـــقـــي

لـــم يـــعـــوا مـــنـــه ســـوى تَـــنْـــغِـــيـــمـــة
أو يـــروا غـــيـــرَ صـــقـــيـــل الـــورقِ

وسَّـــــدوه أرفـــفـــاً خـــاويـــةً
مـــن ســـوى الـــصـــمـــتِ الـــثـــقـــيـــل المـــطـــبـــقِ

أوثـــقـــوا أحـــكـــامَـــه أســـراً وقـــدْ
رَكِـــبُـــوه طـــبـــقـــاً عـــن طـــبـــقِ

وبـــرغـــم الأُفُـــقُ الـــضَّـــافـــي لـــه
حـــســـبـــوه فـــي إطـــارٍ ضـــيِّـــقِ

هـــو مـــحـــفـــوظ، نَـــعَـــم، فـــي أضـــلـــعٍ
نـــرتـــجـــي مـــن حُـــبِّـــنـــا أن تـــتـــقـــي

هـــو مـــحـــبـــوب، وفـــي أفـــئـــدةٍ
نـــســـألُ الـــلـــه لـــهـــا أن تـــلـــتـــقـــي

هـــو مـــحـــروس، وفـــي كـــلِّ الأُلَـــى
آمـــنـــوا، صـــانـــوه بـــيـــن الحـــدقِ

إنـــه الـــقـــرآن، مـــا يـــبـــلَـــى على
طـــول مـــا يـــبـــدو، كـــبـــدرِ الأُلـــقِ

إنـــه الـــفـــرقـــانُ، مـــا يـــخـــفـــى على
مـــا يـــجـــلـــو مـــن ديـــاجـــيـــرِ الـــغـــســـقِ

مـــا الـــذي كـــان لـــنـــا مِـــنْ قـــبـــلـــه
غـــيـــر أرزاءِ الـــطـــوى والـــفـــرَقِ

داحـــسٌ يـــحـــرق فـــي الـــغـــبـــراء، مـــا
تـــنـــطـــفـــي نـــارٌ بـــغـــيـــر الـــغـــرقِ

وعـــلـــى كـــفِّ الـــبـــســـوس انـــفـــســـحـــتْ
مـــن دمـــانـــا أنـــهـــر كـــالـــشـــفـــقِ

وبـــــراءاتٌ جـــهـــاراً وُئـــدت
لـــهـــف نـــفـــســـي لـــيـــتـــهـــا لـــم تُـــخـــلَـــقِ

وعـــلـــى الحـــصـــبـــاء يـــجـــثـــو هُـــبَـــلٌ
مـــســـتـــبـــيـــحـــاً كـــلَّ عـــقـــل أخـــرقِ

مـــا الـــذي كـــان لـــنـــا مـــن قَـــبْـــل أن
يـــهـــطـــل الـــوحـــي كـــغـــيـــثٍ غَـــدِقِ؟

قـــبـــل أن يُـــشـــرِقَ فـــيـــنـــا المـــصـــطـــفـــى
ويـــعـــمَّ الأرضَ طـــيـــبُ الـــعـــبـــقِ

مـــا الـــذي يـــبـــقـــى إذا مـــا انـــزاح من
أُفْـــقـــنـــا بـــدرُ الـــقُـــرآن المـــشـــرقِ؟

نـــحـــن أَوْلَـــــى بمـــــلام مـــن بـــنـــي
(تـــيْـــري جـــونـــز) أو بـــنـــي المـــصـــطـــلـــقِ

أمـــتـــي لـــلـــعـــز دربٌ صـــاعـــدٌ
وطـــريـــقُ الـــذل مـــثـــلُ الـــنـــفـــقِ

ومـــــذاقُ الـــنـــصـــر حـــلـــوٌ ســـائـــغٌ
ومـــــذاق الـــقـــهـــر مـــثـــل الـــعِـــشْـــرقِ

فـــاصـــطـــفـــي - يـــا أمـــتـــي - مـــثـــواك في
جـــنـــة أو فـــي الـــــردى والحـــــرقِ

[المسلمون.. والعالم]

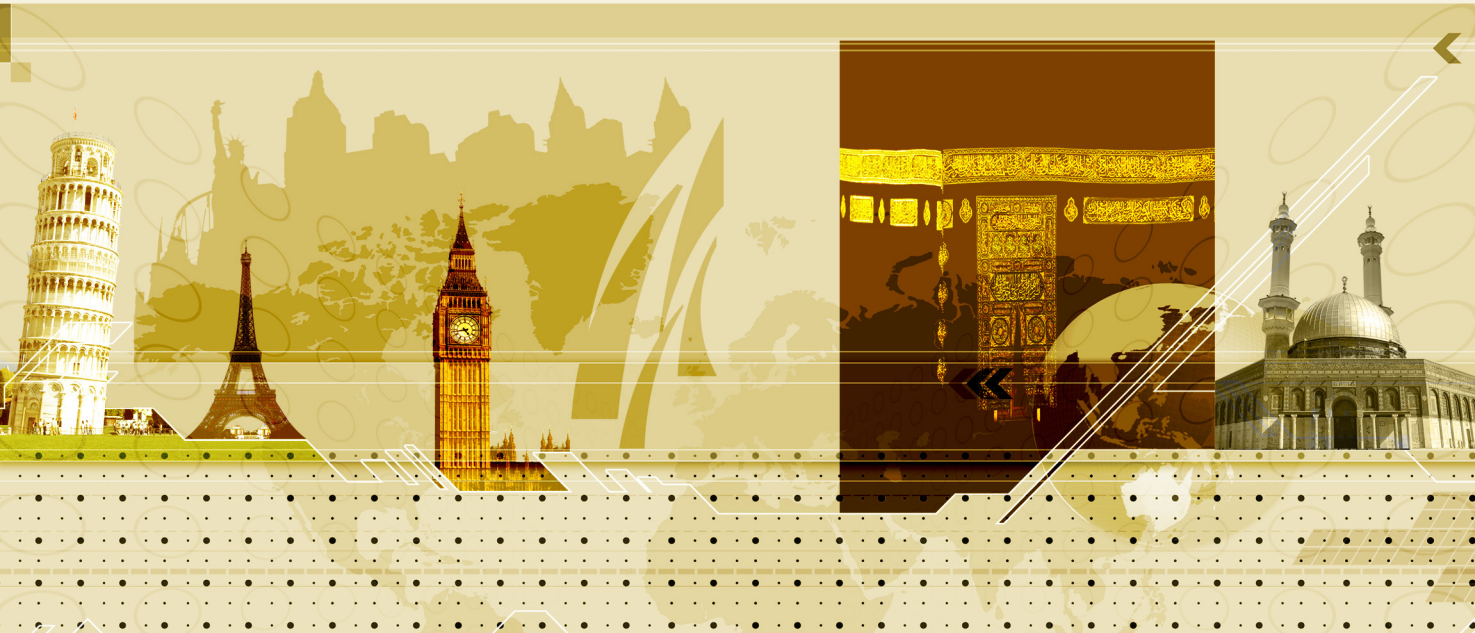

الحكومة الجديدة في العراق تناقضات الأضداد وتزاحمات الولاءات
حارث الأزدي

البحرين... أزمة: تنتهي، أَم تتوارى؟
أحمد فهمي

إيران المتجهة إلى إفريقيا تبشيراً واستثماراً
أمير سعيد

حكايةُ أبٍ غيَّبه الأَسْر
فؤاد الخفش

الأحزاب الإسرائيلية ودعم نتنياهو
هشام منور

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

الحكومة الجديدة في العراق

تناقضات الأضداد وتزاحمات الولاءات

حـــــــارث الأزدي(*)
alazdiharith@gmail.com

إنهـــا صفحة امتداديـــة أخرى تمثل مواصلـــة التناغم بين إدارة دولة الاحتلال للملـــف العراقـــي والدولـــة المتمددة في ظلـــه (إيران)، لقد جـــاءت هذه الصفحة بعـــد ترتيـــب دام ثمانية أشـــهر لتخرج إلـــى العلن بعـــد اتفاقات أطلقـــوا عليها مســـمى (اتفاقات سياســـية) باستحداث منصب (المجلس السياســـي للسياســـات الإستراتيجية)، لا يقره دستورهم الملغوم؛ ولكنهم وافقوا عليه مـــن أجل دفع عجلة العمليـــة السياســـية المتهالكـــة التي بان عوارها للقاصي والداني ومن دون الحاجة لدليـــل على تهالكها؛ فالدســـتور عندهم صياغات مطاطية تتشكل حسب الإرادات الاحتلالية والتمددية.

لقـــد جـــرى تجديد الولايـــة لرئيس الجمهوريـــة بأغلبيـــة بســـيطة متعثـــرة مدفوعة الثمن باتفاقات تقاســـم وتناهب خيرات العراق، أعقبها تكليف (ســـلقي) متفق عليه مســـبقاً لمسمى رئيس الوزراء؛ لا على أساس الاختيار لما يناسب المرحلة؛ وإنما هو تطبيق حرفـــي لما جرى الاتفاق عليه بأن يكون وجه العراق – وَفْقَ المشروع الأمريكي – طائفياً عنصرياً، وثمة إقصاء متعمَّـــد لأهله الحقيقيـــين الذين رفضوا الاحتلال وما نتج عنه. وقد انسحب هذا التوجه على من نصَّب نفسه ممثلاً لمكون من مكونات أبناء العراق (العرب الســـنة) ليشـــكلوا صورة ثلاثية الأبعاد مع الأكراد والأحزاب الطائفيـــة الموالية لإيران التي تمثل التوجـــه الطائفـــي لتكتمل الصورة الديكورية المراد تسويقها للعالم بأنَّ حكومةً تمثـــل أطياف العراق قائمـــة، وأنَّ عمليةً سياسية تحتكم لصناديق الاقتراع تجري، وأنَّ ما يسمى بالديمقراطية التي سوقتها أمريكا للمنطقة تسير بشكل طبيعي، وأنَّ تداولاً للســـلطة بصورة سلمية قائم على قدم وســـاق، والواقع العراقي يكذب ذلك كله؛ فلا ديموقراطية، ولا تداول للسلطة، ولا حتى صناديق الاقتراع موجودة وَفْقَ أي منظومة معتمدة فـــي العالم؛ فما يجري في العراق تلفيق ديمقراطي لأبشـــع أنواع الديمقراطيـــات في العالـــم؛ لتمكين من جاء مع المحتل لمواصلة مشـــروع الاحتلال الأمريكي في صفحته السياسية.

وبدأ التحضير للدخول إلى النســـخة الخامسة من صفحة الاحتلال السياسية بانقلابيـــة المفاهيـــم وخلـــط التصورات ومغادرة صفحة الشـــحن الطائفي صورياً لحتمية الدخول إلـــى مرحلة جديدة من الســـوق الانتخابية؛ وهـــو ما حدا بجميع الكتـــل السياســـية إلـــى تغييـــر جلدها والتظاهـــر بالوطنية زوراً وبهتاناً من أجل

إيهام النـــاس أن مرحلة جديـــدة للتغيير ســـيدخلونها بانتخابهم للحكومة القادمة المتمثلة بانتخاب ما يسمى مجلس النواب الذي ظلت شخوصه ثابتة ورموزه مسيطِرة على مجريات العملية السياســـية الجارية في ظل الاحتـــلال ولم يطـــرأ عليها أي تغيير؛ فهذا ألغـــى وصفه الثوري فاكتفى بمســـمى المجلس الأعلى من دون الثورية التي كانت أســـاس انبثاقه كمـــا يدَّعون، وذاك تنـــازل عن مســـمى حزبيته المقيتة وتنصل عنها بالالتفاف على مسمى ظاهرُه قانوني وباطنُه طائفـــي مقيت، فالتزم ما حبـــاه المنصـــب الزائف بمســـمى (دولة الرئيس) فأســـماه دولة القانون في دولة لم تعرف القانون في ظل الاحتلال؛ حيث المحاكمات الصورية والاعتقالات من دون مذكرة قضائية، وآخر التفَّ على الســـوق الانتخابي بأحلام العصافير من أنه سيغير قانون العملية السياسية بائتلافه للعراقية ســـعياً وراء وَهْـــم تغيير قانـــون العملية السياسية التي أرادها المحتل مستنداً إلى الضوء الأخضر الأمريكي الذي ســـرعان مـــا انقلب إلى لون أحمر وقد خرج بخفَّي حنين بعـــد أن أعطى تشـــكيل الحكومة شرعيتها الصورية كما في سابقاتها. أما الطـــرف اللاعب في العملية السياســـية التي وفـــرت له اللعب مـــع الغالب أو ما يسمى ببيضة القبان؛ وهم ساسة الأكراد، فقـــد بقيت ائتلافاتهم من أجل مشـــروع مستقبلي تتقاسمه الإقطاعيات السياسية التي أنشاها المحتل واعتمد من يعتمدونه؛ لأنهـــم يمثلـــون الإرادة الخالصة للمحتل بينمـــا ظـــل العنصر الديكوري المســـمى التوافقي يلوك ألفاظ الانحسار والاندحار معلقاً خســـاراته على هذا الطرف أو ذاك بعـــد أن أخذت القائمة العراقية منه زمام تمثيـــل المكوِّن ومع ذلك ظـــل مخلصاً في انتمائه لمجموعة الشر التي روجت لمشروع الاحتلال.

إن انقلابية المفاهيم التي سارت عليها هذه الصفحة كما تبيَّن في السطور القليلة السابقة لم تصمد طويلاً وقد طفحت على ســـطح الأحداث حقيقةٌ أظهرتهم جميعاً على حقيقتهم من أنهم انخرطوا في مركب احتلالـــي واحد يحدوهم جـــوع المناصب والانتصار للفئويـــة والعنصرية والطائفية والحزبية وحتى الشخصية؛ فقد أوهم إياد علاوي ناخبيه بأنَّ تغييراً ســـيحصل في حال فوزه وأنه سيغير معالم هذه العملية ويعيد ترتيب أوراقها، وقد كشف المراقبون ضحالة هذا التصـــور بالرجوع إلى قانون إدارة الدولـــة الذي أصدره الحاكم المدني بريمر سيء الصيت بتقاسم النفوذ وجعل واجهة العراق طائفية تتناغم مع تمددات جارة العراق السيئة إيران، وعنصرية تنذر بشرٍّ مستطير على المنطقة في حال نجاح مشروعهم التقســـيمي وإعلان الانفصال لتتبعـــه مخططات منتظرة لتقســـيم دول المنطقـــة بابتعـــاث الأقليـــات والمجاميع الانفصاليـــة التي تمثل العمـــود الفِقْري المعتمد عليه في تنفيذ مخططات التفتيت والتقســـيم والشـــرذمة الاحتلاليـــة التي تستهدف المنطقة بالكامل.

لقد تضمنت مرحلة الإعداد لانطلاق هذه الحكومة المرتقبـــة صفعات متبادلة بـــين المتصارعـــين على التمثيـــل ما بين اجتثاثٍ وتصفيـــاتٍ وزيـــاراتٍ (بايدنية) وأخرى إلـــى دول الجـــوار؛ للإعداد لها وخرجـــت نتائجهـــا، التي كانـــت متوقعة مثلمـــا كتب عنها المتابعـــون؛ فكانت إرادة أمريكية إيرانيـــة متناغمة بتوزيع متقارب للكتل الأربعـــة الفائزة بالانتخابات المهزلة (العراقيـــة وعلى رأســـها إياد علاوي ٩١ مقعداً) و (دولة قانـــون نوري المالكي ٨٩ مقعـــداً) والائتلاف الوطني لعمار الحكيم ٧١ مقعداً) و (ائتـــلاف الأحزاب الكردية ٤١ مقعداً) ليشـــتد الصراع وتبقى صورة هـــذه الصراعـــات طافية على الســـطح لتوهـــم الناظـــر إلى الســـطح أن عملية سياســـية حقيقيـــة جارية فـــي العراق، وحين فوجـــئ اللاعبون بتلك النتائج ردُّوا هذه الصفعة بأخرى بالتشـــكيك بنتائجها وإعـــادة فرزها يدوياً، ولمـــا لم ينجح ذلك لجـــؤوا إلى تفســـير جديد لم يكن ببال من ينافسهم: إما لســـوء تدبيره أو لأنه لم يفهـــم مجريات اللعبـــة الانتخابية وكيفية إدارتها، فجاءت تفســـيرات ما يسمى المحكمة الاتحادية – وهي إحدى مؤسســـات الحاكمين وتأتمر بأمرهم – بـــأن الكتلة الأكبر هي مـــن تمتلك العدد الأكبر بعد دخولها القبة البرلمانية؛ وليست الفائزة بعدد أكبر في الانتخابات؛ فكانت لطمة كبيـــرة لم تصمد معهـــا محاولات التدخـــل العربي الخالي من مشـــروع في العراق وكأنـــه لا يعنيهم ولا حتى الرعاية التركية للمشـــروع السياسي الجاري في العراق تحت الاحتلال التي هاجمها جلال الطالباني ووصف سياستها تجاه القضية العراقية بالفشـــل بعد اطمئنانه بالتعيين لدورة أخرى.

ظهرت الجلســـة الأُوَلى التي عقدها البرلمان الجديد شكلية مستهلكة استمرت لعشـــرين دقيقـــة اكتفت بفتح الجلســـة وإبقائها مفتوحة اســـتناداً لتفســـيراتهم التـــي يصرُّون على وصفها بالدســـتورية، وبقيت زهاء ثلاثة أشـــهر مفتوحة تنتظر التوافقات على بيع وتقسيم العراق وتوزيع المناصـــب؛ إذ أصرت القائمـــة العراقية خلالهـــا على رئاســـة الـــوزراء ولم يكن لها ذلك، واشـــتدت أزمة التحالفات بين العراقيـــة ودولة القانـــون، وبين الائتلاف

الوطني والكردستاني؛ كلٌّ يريد الحصة الأكبر، وقد كان لتدخلات إيران بالإيحاء للحائري بإصدار فتوى لأتباع مقتدى الصدر بوجوب تأييدهم للمالكي لتظهر صورة التوجهات على حقيقتها من ضعف جانب العراقية وهزالة إسنادها، ورجحان كفَّة المالكي بحصده أصوات الصدريين. عندها ظهرت التهديدات وتوالت السيناريوهات لتطرح احتمالات الانهيار أو الاستمرار لهذه العملية؛ فهذا يرجح انسحاب علاوي، وذاك يحذر من تحالف جديد ظهر بشكل انتهازي بين قائمة وحدة العراق والتوافق تحت مسمى ائتلاف الوسط، وقد استُخدِم هذا الائتلاف للضغط من أجل استمرار هذه العملية المسخ.

إن حكومة المالكي الجديدة بدورتها الثانية لن تختلف عن سابقاتها بشيء سوى أنها ستكون أكثر تخصصاً بالانتماء للمالكي، وأكبر حصاداً للأكراد، وأكثر جرماً من سابقاتها؛ فالمالكي الذي أصر على بقائه في السلطة يريد استكمال بناء مؤسساته الطائفية وإسكات المناهضين لمشروعه ومشروع الاحتلال؛ فهو من جهة إيران مرغوب فيه لدرجة تبادل التهاني بعد إعادة تكليفه لدورة أخرى ومرغوب أمريكياً أيضاً؛ بناءً على تنازلاته غير المحدودة، واستعداده لتجديد البقاء وعقد الاتفاقيات معهم وتمكين وجودهم، ومؤيَّد من الأكراد بعد توقيعه على مطالبهم التسعة عشر التي تمكِّن الساسة الأكراد من التمتع بخصوصية في شمال العراق ومسك زمام الأمور في الحكومة المركزية.

ولكن مع كل هذه الميزات والتأييدات والتحالفات تبقى هذه الحكومات ورقية لا تقوى على إدارة دولة، وستبقى حكومة فاقدة للثقة بين أطرافها المتشاكسين؛ وهذا ما حدث في أول جلسة ضمتهم بعد اجتماع أربيل تحت قبة البرلمان؛ فالمواثيق السياسية مع أنها مكتوبة ولم يجف حبرها إلا أن لعق الاتفاقات والنكوص والتنصل ديدن من انخرط في مشروع الاحتلال.

وكذلك تدخلات إيران وشراكتها مع الاحتلال الأمريكي. وصيغة الشراكة بين أطراف متناحرين، وانعدام الثقة في ما بينهم، ستجعل من الحكومة القادمة حكومة ضعيفة كسابقاتها مهلهلة لا يجمعها جامع ولا يربطها رابط، وأبرز ما فيها تجديد التعيين الاحتلالي لرموزها؛ فبدلاً من واحد يكون على رأس السلطة وهو الذريعة الأمريكية للتدخل جاءتنا بمجموعات احتلالية ظلت جاثمة على رأس السلطة منذ مجلس الحكم الصوري الذي أقر قانون إدارة الدولة تأسيساً بمقررات مؤتمرَي لندن وصلاح الدين، ومروراً بالحكومة المعيَّنة من الاحتلال (حكومة إياد علاوي) التي تولت ضرب المدن العراقية، وكذلك حكومة إبراهيم الجعفري التي كانت مهمتها الدفع بالشحن الطائفي وتأجيج الصراع بين مكونات الشعب العراقي، وليس انتهاءً بحكومة المالكي السابقة التي ملأت السجون والمعتقلات بالأبرياء لإسكات أبناء العراق وإرغامهم على القبول بما يسمى الأمر الواقع. ستكون هذه الحكومة كسابقاتها من حيث الارتماء بحضن المحتل والدولة الإقليمية المتمددة.

هذه الحكومات الضعيفة تمثل إرادة الاحتلال والتمدد الإقليمي وليس لها من مقومات البقاء سوى هذا الدعم وذاك الإسناد؛ بدليل أن حكومة المالكي السابقة استقال منها سبعة عشر وزيراً وبقيت على حالها لم تتأثر ليس لقوتها وإنما للإسناد الاحتلالي والإقليمي لها.

إن تصريحات علاوي الأخيرة التي تكشف عن إحباطه وإبعاده واستخدامه كعامل مساعد لاستمرار هذه العملية لن تكون كما أوردها في تصريحاته بأن هذه الحكومة لن تصمد طويلاً؛ فعدم صمودها ليس راجعاً لأنها خالفت النصوص المتفق عليها بين الأطراف؛ وإنما برفض أبناء العراق لها؛ لأنها ستكون حكومة جهة واحدة بتفرد محض واستفادة كردية لتأسيس إقليمهم تمهيداً لإعلان انفصالهم.

بقي أن نقول: إن هذا الحَراك السياسي على وهميَّته يمثل جانباً واحداً من جوانب المشهد العراقي وإن هناك ما يكافئه ويضادُّه في التوجهات؛ فالقوى الرافضة للاحتلال تمتلك بحمد الله جهداً ميدانياً أرغم المحتل على البحث في زوايا مراكز بحثه عن خطط ودراسات للخروج من وحل الهزيمة بالاكتفاء بالدعم والإسناد لهذه الشراذم بحكم العراق، وتمتلك كذلك رؤية سياسية ثاقبة استطاعت بجهود ذاتية أن تثبت وجودها على الساحتين (العربية والإسلامية)؛ مع أن الجفاء العربي والبعد العالمي عن دعم القوى الرافضة للاحتلال مردُّه إلى أن العراق ساحة للمشروع الأمريكي المسمى مشروع القرن، واستطاعت هذه القوى – بتوفيق الله – أن تهزم هذا المشروع وتوقفه ويساند جهدها الميداني والسياسي جهد إعلامي استطاع أن يوجد مساحة للفهم وإدراك الأمور على حقيقتها.

إن ثوابت القوى الرافضة للاحتلال أثبتت صحتها وصدق رؤيتها؛ فالعالم اليوم متيقن أن ثوابت هذه القوى وخياراتها هي الحل الأنجع لما يعانيه العراق من ويلات محتل غاصب استقدم مجاميع وأحزاب تنهش بجسد العراق وقد صارت عبئاً على المحتل نفسه بتوفيره الدعم والحماية والاسناد لها.

بشرى للمدارس ودور التحفيظ

القرآن الكريم

بصوت أربعة قراء

الشيخين السديس والشريم

والشيخ محمد صديق المنشاوي

والشيخ عبدالله بصفر

مع

تفسير الجلالين

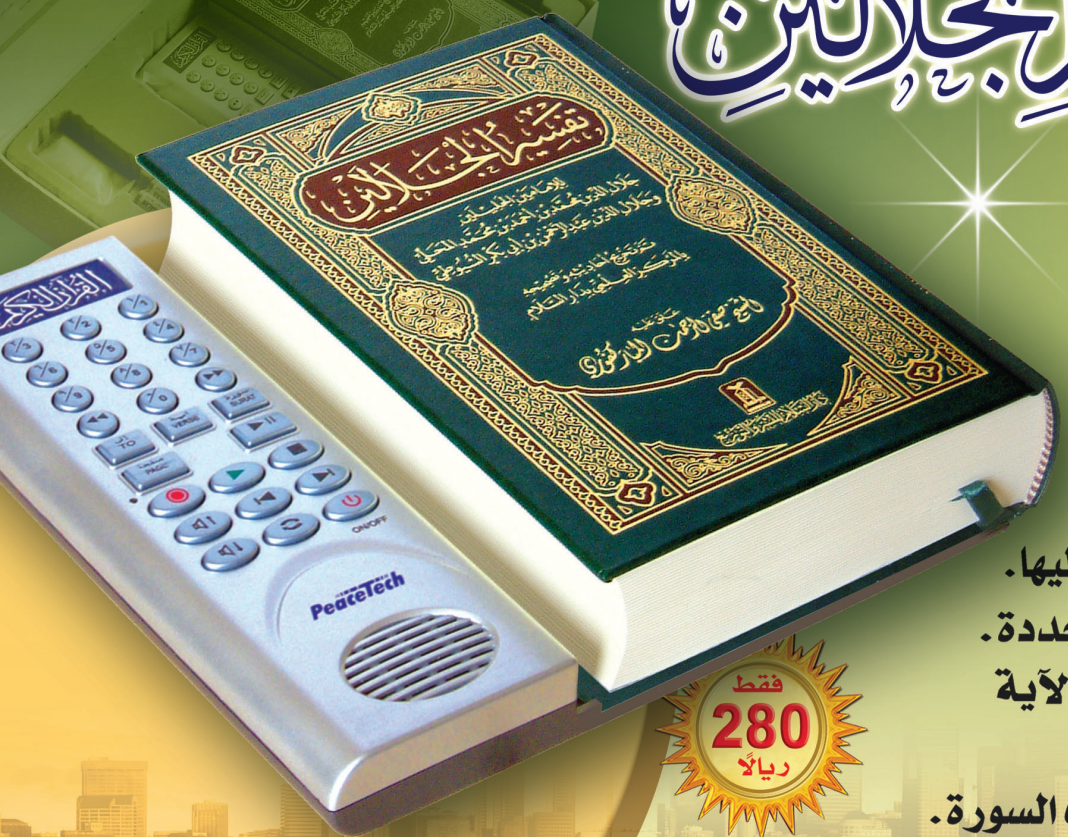

يمكنك:

- تحديد مجموعة آيات والاستماع إليها.
- تكرار الآيات المحددة.
- الاستماع لنفس الآية بأكثر من صوت.
- الاستماع حسب السورة.
- الاستماع حسب الصفحة.

فقط 280 ريالاً

يعمل بالكهرباء والبطارية

دار السلام للنشر والتوزيع

المكتب الرئيسي الرياض: ٤٠٣٣٩٦٢-٤٠٤٣٤٣٢ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ الفروع: العليا: ٤٦١٤٤٨٣ الملز: ٤٧٣٥٢٢٠ السويلم: ٢٨٦٠٤٢٢

مندوبون: ٠٥٠٥١٩٦٧٣٦ - ٠٥٠٣٤٥٩٦٩٥ - ٠٥٠٤٤٠٥٩٤٣ جدة: ٦٨٧٩٢٥٤ الخبر: ٨٦٩٢٩٠٠ المدينة المنورة: ٨٢٣٤٤٤٦ - ٠٤

خميس مشيط: ٠٥٠٠٧١٠٣٢٨ القصيم: ٠٥٠٣٤١٧١٥٦ ينبع البحر: ٠٥٠٠٨٨٧٣٤١ الشارقة: ٥٦٣٢٦٢٣-٦-٠٠٩٧١ الكويت: ٩٦٠٠٨٧٥

دار السلام DARUSSALAM

البحرين... أزمة: تنتهي، أم تتوارى؟

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com

مـــن التناقضات الغريبـــة التي تواجه الـــدارس للواقع السياســـي الشـــيعي في البحرين: قلة اعتنـــاء الرأي العام الشيعي بما يحدث في ذلك البلد مقارنة بدول أخرى، مثل: العـــراق، ولبنان، واليمن، بل إن التفاعل الذي يبديه شـــيعة البحريـــن مع القضايا الشـــيعية الخارجيـــة، يفوق بمراحل تفاعل التجمعات الشيعية الأخرى مع قضاياهم المحلية.

لذا فإنه من المألوف أن تُنظِّم التيارات الشيعية في البحرين تظاهـــرة أو حملة تبرعات من أجل دعـــم حزب الله، لكن في المقابل لم تُرصد أي فعاليات جماهيرية في مناطق التجمعات الشيعية الرئيسة تأييداً لمطالب إخوانهم في البحرين.

تقدم الرؤية التحليلية لهذه الظاهرة عدة أســـباب، من أبرزها – وهو ما يتعلق بموضوع المقال – سببان:

الأول: إخفـاق التيـارات السياسـية الشـيعية في البحرين في تقديم قضية حقيقية للرأي العام الشيعي يتبلور حولها الخطاب السياسي الموجه للعالم الخارجي: ويتضح ذلـــك عند المقارنة مـــع التجمعات الشـــيعية الأخرى: ففي العراق – على ســـبيل المثـــال – كان الخطاب يتمحور حول الاضطهاد، وســـلب حقوق «الأغلبية»، والتضييق على المرجعية، والقمع الدموي للمعارضة، وكان العالم الخارجي على اســـتعداد لتقبُّل هذه المزاعم بالنظر إلى أداء النظام البعثي آنذاك.

وفي لبنان، تبنَّـــى حزب الله قضية «المقاومة» فنفث فيها ونفخ حتى تضخمت وتعاظمت، وفي اليمن نجح الحوثيون في إبراز قضيتهم من خلال الدخول في صراع مســـلح مع الدولة نجم عنه ما يشبه الحكم الذاتي، أو المناطق الشيعية المغلقة.

أما في البحرين، فلم يكن هناك عدو على الحدود كي تنشأ مقاومة، ولم يقدم النظام ما يمكن أن يُدعِّم «خطاب المظلومية» المعتاد في الثقافة الشـــيعية، بل تمتع شـــيعة البحرين بدرجة من الحرية في ممارســـة الشـــعائر الدينية وإقامة الجمعيات والمؤسسات حتى بات بعض نظرائهم في دول أخرى يحسدونهم علـــى تلك النعمة، ومن ثَـــمَّ كان طبيعيـــاً أن يُنظَر إلى دعاوى المظلومية التي يطرحها رموز وقيادات الشيعة في البحرين على أنها مجرد مناورات سياســـية لنيل المزيد من المكاسب، وهكذا فإن الرأي العام الشـــيعي لا يصنِّف البحرين من الأساس على أنها منطقة «أزمة» بالمفهوم الشيعي.

الثاني: يمكن وصف المجتمع الشيعي في البحرين بأنه بيئة اســتيرادية إلى حـد كبير: وذلك في مجال العلوم الدينية والفكر والحركة، فلم يُؤْثَر عن شيعة البحرين تخريج علمـــاء كبارٍ وصولاً إلى مرتبـــة المرجعية العليا منذ

مئات السنين، وأبرز علمائهم التاريخيين، هم: يوسف البحراني (ت ١١٨٦هـ)، وحسين آل عصفور (ت ١٢١٦هـ) وكلاهما كان إخبارياً، ومن بعدهم لم يبرز عالِم تُشَدُّ إليه الرحال أو يُطرَح اسمُه في سياق المرجعية.

أما في مجال الفكر والحركة، فإن المجتمع البحريني ظل خاضعاً منذ خمسين عاماً وحتى الآن للموجات الثورية الشيعية الثلاث التي انبعثت من العراق وإيران، بدءاً بتيار المرجع الشيرازي المعروف باسم «التيار الرسالي» ثم تيار (حزب الدعوة - الصدر)، ثم الخمينية المنبعثة من إيران، ولم يُطرح في تلك الفترة أي بديل بحريني مستقل يمكنه كفاية الداخل أو جذب الخارج، مع أن الخمينية أفرزت عدة نماذج قابلة للتصدير في عدة دول، مثل: نموذج حزب الله اللبناني، ونموذج المجلس الشيعي الأعلى في العراق، لكن لم يحدث ذلك في البحرين وظل المجتمع الشيعي متطلعاً إلى الخارج متلقِّياً عنه؛ وهو ما انعكس سلباً عندما انتقلت الإشكالات الطائفية التي فجرتها تلك الموجات الثورية الشيعية من بلدانها الأصلية إلى البحرين.

البحرين والتسونامي الثوري:

الموجة الأولى: بدأت في العراق على يد «آية الله العظمى» محمد الحسيني الشيرازي منتصف الستينيات، وهو إيراني الأصل، (ت ٢٠٠١م)؛ حيث تأسست «الحركة المرجعية» كتنظيم سري ثم تحولت إلى «منظمة العمل الإسلامي»، وأصبح أتباعها يُعرفُون باسم «الرساليون»، بلغت هذه الموجة شاطئ البحرين بواسطة رجل الدين هادي المدرِّسي (إيراني الأصل) الذي اضطلع بمهمة تأسيس مجموعات سرية تابعة للتنظيم الأم، وقام باختراق طبقات المجتمع الشيعي في البحرين مع التركيز على فئة الشباب، وكان التيار يتبنَّى أسلوب التثوير الجماهيري اعتماداً على ثقافة «المظلومية»، وتبنَّى تنظيمه لاحقاً أسلوب الانقلابات والعمل المسلح حتى تلقَّى ضربة قوية عام ١٩٨١م عندما اعتقل ٧٣ من أنصاره بتهمة التخطيط لانقلاب تلقَّوا تدريباً عليه في البحرين.

الموجة الثانية: انبعثت من العراق أيضاً؛ حيث انتقل الفكر السري المرحلي لحزب الدعوة في مرحلة الستينيات إلى البحرين عن طريق الطلاب الدارسين في النجف، ومن أبرزهم الشيوخ البارزون: سليمان المدني، عبد الأمير الجمري، عيسى قاسم، وكان هؤلاء يدينون بالولاء للمرجع محمد باقر الصدر حتى إعدامه عام ١٩٨٠م في العراق.

الموجة الثالثة: بدأت مع ثورة الخميني عام ١٩٧٩م، وبلغت ذروتها في البحرين مطلع الثمانينيات عندما انخلع الدعويون من حزبهم القديم وتحولوا إلى خط الإمام (الخميني) ولا يزال أغلبهم كذلك حتى الآن.

خلاصة التجارب البحرينية في ٤٥ عاماً:

طيلة خمسة عقود تقريباً جربت التيارات السياسية الشيعية في البحرين كل الوسائل ومنهجيات التغيير الممكنة؛ ففي حقبة السبعينيات غلب طابع التنظيمات السرية لكن في اتجاهين:

الأول: يهدف إلى تثوير الجماهير (الرساليون).

والثاني: يهدف إلى اختراق الجماهير وتنظيمهم، والسعي إلى السيطرة على الحكم عبر مراحل متدرجة (الدعويون).

وفي مطلع الثمانينيات تبنَّى الرساليون النهج العسكري في التغيير ثم تحول الدعويون إلى الدمج بين الأسلوب التنظيمي والجماهيري وبين معارضتي الداخل والخارج مع وجود جناح عسكري (حزب الله البحريني) في محاكاة لتجربة الخميني مع نظام الشاه.

لقد أثبت الرساليون إخفاقاً ذريعاً، بينما تصاعد النهج الآخر وصولاً إلى حقبة التسعينيات؛ حيث اندلعت الأحداث الدامية التي أطلق عليها البحرينيون «انتفاضة التسعينيات» التي كانت تقليداً للأحداث التي سبقت ثورة الخميني في إيران، لكن مع فارق أن جميع قادة المعارضة الشيعية انتهى بهم المطاف بين الاعتقال والمنفى.

وعَقِب وفاة الأمير السابق للبحرين الشيخ سلمان، وتولي ابنه مقاليد الحكم (الملك الحالي) بدأت ملامح الإصلاح السياسي، ووجد قادة التيارات الشيعية أنفسهم أمام خلاصة تجارب متعددة أنهكت مجتمعهم دون تحقيق نتائج تُذكَر، وجُلُّ ما تحقق هو إغراق البلد في أزمات متتالية منذ عام ١٩٧٩م عندما دخلت إيران إلى الساحة السياسية في المنطقة، ومن ثَمَّ لم يبق أمام هؤلاء القادة إلا الخيار السياسي سبيلاً وحيداً متاحاً.

فكان أن تحول الرساليون إلى تأسيس جمعية العمل الإسلامي برئاسة الشيخ محمد محفوظ، واندمج الدعويون واتباع خط الإمام في جميعة الوفاق (تأسست في نوفمبر ٢٠٠١م ويرأسها حالياً الشيخ علي سلمان) ليشكلوا الكتلة الرئيسة المتحكمة في غالبية المجتمع الشيعي، واختُزِلت المعارضة الخارجية إلى حدِّها الأدنى ممثلة في عدة أشخاص على شاكلة د. سعيد الشهابي وآخرين دون أن

يكون لهم تأثير كبير في الداخل.

الانتخابات بين الممانعة والمسايرة:

في فبراير عام ٢٠٠١م أُجري استفتاء شعبي على ميثاق العمل الوطني للمرحلة الجديدة وحظي بنسبة تأييد تجاوزت ٩٨ ٪، ثم انبثق عن الميثاق دستور جديد لم يحظَ برضى كثير من قادة الوفاق الجدد، فحدث انشقاق في الصف، وكان أبرز المنشقين عبد الوهاب حسين من مؤسسي الجمعية[١]؛ وهو صاحب رؤية تنظيرية وتاريخ سياسي عريق، وأسفر الانشقاق عن امتناع الوفاق عن المشاركة في انتخابات عام ٢٠٠٢م النيابية بينما شاركت في البلدية، ثم في سبتمبر ٢٠٠٥م انشق كلٌّ من حسن مشيمع وسعيد الشهابي وعبد الجليل السنكيس عن الوفاق احتجاجاً على موافقة الجمعية على الانضواء تحت قانون الجمعيات السياسية الجديد.

وفي عام ٢٠٠٦م عادت الوفاق لتشارك في الانتخابات النيابية والبلدية، وأحرزت في الأولى انتصاراً كبيراً بلغ ١٧ مقعداً، بالإضافة إلى مقعد في دائرة محسوبة على الوفاق تنازلت فيها الجمعية عن مقعدها لحساب أحد حلفائها اليساريين، وفي عام ٢٠٠٨م أسس عبد الوهاب حسين تيار الوفاء الإسلامي كما أسس مشيمع حركة حق، وشكل الاثنان مع ناشطين آخرين تياراً أطلقوا عليه اسم «الممانعة» في مواجهة جمعية الوفاق التي أطلقوا على أتباعها اسم «تيار المسايرة».

وفي عام ٢٠١٠م حققت جمعية الوفاق نتيجة مماثلة لعام ٢٠٠٦م وفازت بثمانية عشر مقعداً، في مقابل تراجع حصة التيارات الإسلامية السُّنية، وهو تطور ذو دلالة.

وأصبح الشارع الشيعي منقسماً بين التيارين؛ حيث ينادي أحدهما بالمشاركة السياسية في الانتخابات، وينادي التيار الآخر بالمقاطعة، ولأن تيار الممانعة لا ينافس الوفاق في الانتخابات كان من الصعب تحديد نسبة التأييد الشعبي له؛ إذ من المسلَّم به في حالة انقسام المجتمع إلى فريقين: مشارك ومقاطع، فإن من يؤيدون المشاركة يحققون أهدافهم ولو كانت نسبتهم لا تتجاوز ١٠ ٪ طالما لا يوجد لهم منافس، وفي هذا السياق يقدِّم عبد الوهاب حسين أبرز قادة الممانعة تحليلاً لنتائج انتخابات ٢٠١٠م يوكد تزايد مؤيدي الممانعة في الأوساط الشيعية – وهو تطور خطير بلا شك – فيذكر أن نسبة الذين أيدوا الوفاق في دوائرها ٤٧,٥ ٪، ونسبة الذين أيدوا منافسي الوفاق بلغت ١٣,٩ ٪، أما نسبة المقاطعين في الدوائر نفسها فبلغت ٣٨,٦ ٪[٢]، وبحسب حسين فإن أكثر من نصف المجتمع الشيعي لا يرحب (أو لا يتحمس) لمشاركة الوفاق في الانتخابات، وهذه دلالة مقلقة، خاصة أن كثيراً من المنتمين إلى هذا التيار يرفضون الدستور ولا يعترفون بالنظام ويصفون حكم آل خليفة بأنه «احتلال للبحرين» ويدعون صراحة إلى الانتفاضة الجماهيرية لتغيير النظام.

لقد تلقى تيار الممانعة ضربة أمنية قوية عندما اتُّهِم عدد كبير من أعضائه بالانتماء لشبكة سرية لها اتصالات خارجية ونظام تمويل وأهداف تمس الأمن القومي، وكان على رأس المتهمين: مشيمع، الشهابي، السنكيس، لكن بالنظر إلى الثقافة التراكمية للمجتمع البحريني، فإن هذه الاعتقالات من شأنها أن ترفع شعبية المعتقلين لدى شرائح متعددة خاصة من الشباب. وهذا يعني أن اكتشاف الشبكة ينهي؛ ولكنه يمهد لأزمة أخرى قادمة.

مشاركة الوفاق... قناعة دائمة أم مرحلية؟

عادة ما يؤدي انشقاق تيار متطرف جديد عن التيار الأصلي إلى إبراز الأخير بوصفه تياراً معتدلاً متوازناً دون أن يتبنى بالضرورة مفاهيم جديدة أو يعدل في مفاهيمه القديمة، وهذا ما حدث مع تيار الوفاق الذي حقق مكاسب سياسية كبيرة بظهور تيار الممانعة؛ حيث ظل محتفظاً بخطابه الناقد للنظام متمتعاً بكافة المساحات الرحبة للعمل في أوساط المجتمع الشيعي من خلال المؤسسات والجمعيات والمآتم والمساجد، وفي الوقت نفسه متشحاً برداء الاعتدال والحكمة، ويمارس التيار سيطرته على المجتمع من خلال أجنحته الثلاثة: جمعية الوفاق التي تمثل الجناح السياسي، والمجلس العلمائي الذي يمثل الجناح الديني، وجمعية التوعية التي تمثل الجناح الاجتماعي، وينبثق عن كل جناح مؤسسات أخرى وفعاليات تخترق كافة مجالات الحياة داخل المجتمع.

إن هذه المكاسب الهائلة التي تحققت للوفاق (المعتدل) عن طريق مشاركته في النظام السياسي، كان من الممكن أن تندرج ضمن قائمة مطالب ثورية يسعى إلى نيلها من خلال اتباع طريق معقد مضطرب ممتلئ بالصراعات والخسائر، لكنَّ ما تحقق للتيار عن طريق المشاركة لم يكن يحلم به قبل ثلاثين عاماً، ومع ذلك لا تبدو ملامح القناعة واردة في سياق الخطاب السياسي للتيار، وهو ما يطرح تساؤلاً حول ما إذا كانت القناعة الوفاقية بالمشاركة في النظام السياسي هي مجرد رؤية «مرحلية» تسعى لتحقيق أكبر قدر من المكاسب ترقباً لتغير الأوضاع والظروف الإقليمية والدولية ومن ثَمَّ الانتقال إلى مرحلة جديدة يتغير

(١) من أعضاء لجنة المبادرة، ورئيس سابق لجمعية التوعية، ورئيس اللجنة التحضيرية لجمعية الوفاق.

(٢) انظر: لقاء الثلاثاء: ٢٩/١٠/٢٠١٠م، موقع الأستاذ.

فيها الخطاب ويرتفع سقف المطالب؟

توجد عدة مؤشرات تؤيد هذه «المرحلية» في الأداء الوفاقي؛ فقادة التيار ورموزه يمتلكون خبرة عريقة في العمل المرحلي مستقاة من حقبة الانتماء إلى حزب الدعوة، كما أنهم يصرُّون على الترويج للأغلبية الشيعية التي تتجاوز ٧٠ ٪، ويلوِّح بعضهم أحياناً ببعض المطالب ذات الدلالة، كما فعل علي سلمان عندما طالب مطلع عام ٢٠١٠م في المؤتمر العام للجمعية بأن يُطرح منصب رئيس الوزراء للانتخاب، وهذا من شأنه أن يُحدث تغييراً جوهرياً في بنية النظام.

إيران والمجتمعات الشيعية:

يمكن تقسيم المجتمعات الشيعية – غالباً – من المنظور الإيراني إلى أربعة مستويات:

المستوى الأول: مجتمعات الفعل السياسي: وهي التي يساهم حَراكها السياسي ونشاطها المتنوع في دعم الأجندة السياسية الإيرانية بصورة مباشرة، مثل حزب الله اللبناني والمجلس الأعلى في العراق.

المستوى الثاني: مجتمعات التمويل والدعاية: وهي التي تساهم في تقديم تمويل لبعض المشروعات والأنشطة في دول مختلفة بالإضافة إلى الخُمس، كما تدعم عدداً من الأنشطة الدعائية، ومثالها: شيعة الكويت.

المستوى الثالث: مجتمعات الشغب: ومثالها: الحوثيون في اليمن.

المستوى الرابع: المجتمعات النائمة: وهي المجتمعات التي يصعب على إيران التدخل في شؤونها بشكل مباشر نظراً للحساسية السياسية المرتبطة بها، ولكنها تمتلك في أوساطها نفوذاً لا بأس به يمكن تفعيله في مرحلة مستقبلية، ومن أمثلته: المجتمع الشيعي البحريني، وهذا التقسيم بالطبع من المنظور الإيراني ولا يلزم تطابقه مع رؤية هذه المجتمعات الشيعية نفسها؛ إذ من الطبيعي أن يوجد في أوساطها من يرفض النفوذ الإيراني وينتقده، ويبقى الفيصل بعد ذلك في موقف التيارات والقادة والأتباع من إيران سياسة ونهجاً.

إيران والبحرين:

تبعاً لِـمَا أُثبت في فاتحة المقال من كون المجتمع الشيعي البحريني يتبنَّى نهج الاستيراد الديني والفكري، فإن كافة التيارات والحركات الشيعية لا يستقيم عودها إلا بأن تُبرز للجماهير عمق صِلاتِها الخارجية وروابطها المنهجية والفكرية مع الخارج وتحديداً مع إيران، وهذا أمر لا مواربة فيه ويتم التصريح به دون تحفظ.

ومن المعروف أن تيار الوفاق يتَّبعُ أغلبُ قادته ما يُعرف باسم «خط الإمام» ويرفع أتباعه صور قادة إيران الحاليين والسابقين في المجالس والمحافل والمآتم، كما تنتشر في أوساطهم شعارات التأييد للخميني والخامنئي وولاية الفقيه، ومن ذلك الشعار المعروف: ولائي ولائي للخامنئي[١]، وقد دفعت هذه الظاهرة كاتباً شيعياً مثل منصور الجمري (المتحدث السابق باسم حركة أحرار البحرين) إلى أن يكتب في صحيفة الوسط قائلاً: «السؤال الذي طرحه عليَّ شخصياً كثير من المراقبين: لماذا يرفع البحرينيون – تحديداً – صور قادة إيران؟ ما الرسالة التي يودُّون إرسالها إلى حكومتهم وإلى الفئات الأخرى التي تعيش معهم في البحرين وإلى العالم الخارجي أجمع؟ لماذا يرفعون صور الخامنئي في كل مكان، ويكتبون في المنتديات الإلكترونية شعارات مثل: ولائي ولائي لعلي خامنئي؟»[٢].

وقد استقر في قم مئات العلماء من شيعة البحرين إبان الاضطرابات والانتفاضات، وقد عاد هؤلاء لاحقاً ومارسوا تأثيراً كبيراً على الخطاب الديني، ولعبوا دوراً كبيراً في الترويج للقادة الإيرانيين في المحافل الدينية والسياسية[٣]، وأغلبهم ينتمي إلى تيار الوفاق.

أما على مستوى تيار المانعة، فلا يُبقي مؤسِّسه عبد الوهاب حسين أي مجال للشك، فهو يقول: «تيار الوفاء الإسلامي يؤمن بولاية الفقيه حتى النخاع، ويلتزم بها عملياً»[٤]، ويقول سعيد النوري أحد رموز تيار الوفاء: «ونحن في تيار الوفاء قررنا منذ البداية الالتزام فكرياً وسياسياً بالنظرية والمنهج الفكري والسياسي للإمام الخميني (قده) والسيد القائد (يقصد علي خامنئي)؛ فنحن كتيار إسلامي لا بد أن نرجع لمرجعية شرعية لتحديد قضية المنهج والنظرية الفكرية والسياسية»[٥].

إنه من اللغو حقاً بعد هذا التأييد الواضح أن يُسأل عن مدى النفوذ الإيراني في الأوساط السياسية البحرينية، فرموز التيارات يُقرُّون بأنفسهم الارتكان إلى المرجعية الشرعية المتمثلة في الخميني وخامنئي، ويعلن الأتباع صراحة أن ولاءهم للخامنئي.

لا جدال في أن هذه الشعبية الجارفة لإيران تستتبع نفوذاً وتأثيراً يجعل من البحرين بنداً ثابتاً على أجندة طهران، أما متى يُفعَّل هذا البند بصورة مباشرة، فهذا أمر يعلمه الله

---

(١) انظر مقال فريد أحمد حسن: ولائي ولائي، صحيفة الوقت: ٢٠١٠/١/٧م.
(٢) صحيفة الوسط: ٢٠٠٧/٩/٢٥م.
(٣) انظر ندى الوادي، مقال: الوفاق من التأسيس إلى الانشقاق، الوسط: ٢٠٠٧/٨/٢٢م.
(٤) لقاء الثلاثاء، موقع الأستاذ: ٢٠٠٩/١٠/٢٨م.
(٥) سعيد النوري، حوارات مع موقع العزة أون لاين.

إيران المتجهة إلى إفريقيا تبشيراً واستثماراً

أمير سعيد
amirsaid@gawab.com

تأخذنا الاشتباكات الفكرية والصراعات الطائفية كثيراً إلى غير المكان الذي نريده؛ فحيث تغدو طموحاتنا العربية والإسلامية بحاجة إلى تفعيلٍ وبناءٍ ونهضةٍ حضارية، تبدو خريطتنا العربية وحوضها الإسلامي الحاضن مقبلة على إعادة رسمها بريشة جديدة وهو ما يتطلب قدرة على تجهيز أدوات دفاعها عن مكتسباتها القليلة التي ظلت محتفظة بها حتى الآن بعد سلسلة من التراجعات والتنازلات والإخفاقات.

ولقد أضحى متعيناً على فضائنا الإسلامي أن ينظر بقلقٍ بالغٍ إلى تحديات لم تكن قبل عقود على الدرجة العالية هذه من الأهمية؛ لا سيما تلك التي تتعلق بتغيير الخرائط الديموغرافية والتي هي الأ كثر خطراً من الخرائط السياسية وترسيم الحدود؛ فمسألة استعادة أراضٍ وقعت تحت احتلال مَّا، أو إعادة ترسيم حدود هي أدنى بكثير من أن يعود المرء إلى دياره وأوطانه فينكرها ويراها على وجه غريب لم يألفه، وأخطر ما في ذلك أن يَمسَّ هذا التغيير عقائده وأصوله وأركانه وثقافته، وهذا الذي تُحدِثه بقوة هذه الأيام

إيرانُ في المحيط الإســـلامي الشاسع؛ إذ لا تفتأ تتحرك فيه داعية إلى أيديولوجيتها أو داعمة لها بأكثر من وسيلة.

واللافـــت للنظر أنها إذ تفعل ذلك؛ فـــإن أحداً لا يمكنه أن يحل هذا اللغـــز عمَّن يدعم الآخر: أهي الأيديولوجية، أم المصلحة الوطنية والقومية؟ بمعنى أن التشـــييع الذي تقوم به الدولة الإيرانية ما زال يتردد بين الوســـيلة والغاية في تحرك أجهزة الدولة الإيرانية؛ فلا يمكـــن تحديد الخادم الحقيقي للآخـــر، غير أن مدى اقتراب الملالي من الإخلاص لعقيدتهم أو التفاتهـــم إلى مصالحهم هو ما يعـــيِّن بقَدْر أوضح مقدار خدمـــة هذا لـــذاك، أو يحدد الفوارق ما بـــين الأيديولوجي والسياسي في منطلقات الدعوة إلى التشيع في العالم.

على أن الأبســـط من الوقوع في شَرَك هذا التشريح، هو الخروج إلى معادلة انتشار التشـــيع في العالم، الذي يساوي نفوذاً أعلى للجمهورية الإيرانية؛ سواء جرى تصنيفها طائفية أو فارسية (والعكس بالعكس)، وهذا التصنيف الأخير لا يغيِّر أيضاً من المعادلة شيئاً كبيراً؛ فاختلاط الفارسية بالمعتقد هو ما أضفى (قدسية) على الأُوْلى، وجعلها تبلغ حدّاً أيديولوجياً جعل ذات مرة المرشـــد الأول للثورة (الخميني) يتصلب كثيراً في موقفه حيال تســـمية الخليج العربي بالإســـلامي (كحل مقتـــرح من قادة مســـلمين) والإصرار على فارســـية الخليج بشكل أرسى هذا التزاوج الواضح بين القومية والأيديولوجية (المختارة) للدولة.

ومـــن هنا، فإننا حينمـــا نتحدث عـــن إفريقيا، ونقتبس هذه العبارة من داعية شـــيعي بالسودان، (وهو معتصم سيد أحمد)، يقول فيها في حوار مع موقع المرجع الديني الشـــيعي المدرِّســـي: (هنالك تربة خصبة في القـــارة الإفريقية؛ فإذا نظرنا للجزء الشمالي من القارة الإفريقية من مصر والجزائر والمغرب والسودان نجد أن هناك حُبّاً متجذراً في نفوس هذه الشعوب بالولاء لأهـل البيت - عليهم السلام - كذلك هنالك نوع من البســـاطة في قبول الطرف الآخر؛ فالإفريقي بشكل عام متســـامح يقبل الحوار ويقبل الطرف الآخر بعكس بعض العقليات المتشددة الموجودة في البوادي).

إنه لا يمكننا أن نفســـر هذا التدفق الدعوي الشيعي إلى إفريقيا في ضوء هذا المعيار وحدَه الذي ينظر به دعاة التشيع إلى إفريقيا كأرض خصبة فقط لنشـــر معتقداتهم؛ بل ينبغي أن نستحضر جملة من الأســـباب الدافعة إلى هذا الالتفات الإيراني إلى هـــذه القارة المقهورة، وهـــي من تحرِّك غيرها من الدول ليس لنشـــر معتقدات بالضرورة؛ بل إلى الاستثمار والهيمنة وإيجاد موطئ قدم لها على أرض الكنوز الدفينة.

إن مخزونات قابلة للاســـتخراج من النفط الخام والغاز والفحـــم واليورانيوم فـــي إفريقيا تقدَّر بنحـــو ١٣ - ١٤,٥ تريليـــون دولار، و ١,٧ تريليـــون دولار من الثـــروة الكامنة والإنتاج في قطاعات مثل: الزراعة والســـياحة والمياه، قدَّرتها دراســـة حديثة أعدتها (أفريكا إنفســـتور) و (أفريكا غروب) للأبحاث الاستثمارية في شهر يوليو الماضي، هذه المخزونات مثيرة لشـــهية أي دولة لديها نية في لعب دور إقليمي ودولي؛ لا سيما إذا كان (الاهتمام الكامن بإفريقيا ضخماً جداً)، كما يقول ســـتيفن جنينجز، الرئيس التنفيذي لـ (بنك الاستثمار الروســـي) لقمة رويترز، وكذلك لا يسع ستيفن هانسن المحلل الاقتصادي الأمريكي الشـــهير سوى القول: إن هذا العقد هو عقد إفريقيا بامتياز[1] .

إن الاقتصـــاد غير بعيد عن طموحات إيران في إفريقيا، والسياســـة تدفعها إلى محاكاة (إســـرائيل) في الاتجاه إلى إفريقيا التي توفر عدداً كبيراً من الأصوات في الأمم المتحدة، وتحـــرص الدول - لا ســـيما الدول ذات الســـجل الحقوقي والأمني السيء كـ (إسرائيل) وإيران والصين - على استقطاب أصواتها.

هذه إحدى محفزات إيران للاتجاه إلى إفريقيا، وليســـت طبيعة الإفريقي (المتسامح بشـــكل عام)، وقدرته على (قبول الطرف الآخر) فقط كما قال ســـيد أحمد، ولا قدرة المعتقد الشيعي الإثني عشري الذي يمكنه أن يقتات على (مظلومية) الأفارقة الحقيقية التي حفرها (المستعمر) الغربي في الذاكرة الإفريقية بجبروته وطغيانه الفظيع الذي استنزف من إفريقيا الدماء قبل الثروات، وأقـــام إمبراطورياته الحالية على أكبر تجارة اســـتنزافية في العالم في القرن السابع عشر وما تلاه؛ وهـــي تجارة العبيد، قبل أن يتجه إلى اســـتنزاف النفط لدى العرب بعد الثورة الصناعيـــة الكبرى التي لم تعد تحتاج إلى

(١) ستيفن هانسن، الأموال تتجه إلى إفريقيا، موقع الرؤية الاقتصادية المتخصص: ٢٠١٠/٧/١٠م.

العبيد فـ (حررتهم) قبل قرنين مضيا.

وهذه (المظلومية) كفيلة بأن تهيئ للقادمين من أرض فارس والعراق ولبنان أرضاً خصبة لنشر أيديولوجيتهم جنباً إلى جنب مع استثماراتهم ومشروعاتهم، وفي استدعاء الظلم الذي وقع على (الحسين) - رضي الله عنه - سلوانٌ للمظلومين عبر القرون، المتطلعين إلى غدٍ إفريقي أفضل.

ولا بأس في أن يستغل المسؤولون ميداناً هو الأكثر فساداً في العالم؛ بحسب مؤسسة غالوب في استطلاعها الذي قامت به لصالح منظمة الشفافية العالمية المعنيَّة بمحاربة الفساد حول العالم؛ إذ جاءت الدول الإفريقية على رأس الدول الأكثر فساداً في العالم. لا بأس أن يُستغَل ذلك في بذل المال الكافي لضمان ترافق (الدعوة) والاستثمار معاً جملة واحدة؛ لا سيما في نيجيريا وكينيا وجنوب إفريقيا والسنغال وغانا الدول الواعدة ضمن دائرة الضوء الاستثماري العالمي الغارقة في الفساد أيضاً، ومن فضول القول: إن كثيراً من مروِّجي الأفكار الباطنية والثقافات المستورَدة الدخيلة من جهة، والشركات المتعددة الجنسيات من جهة أخرى تفضِّل التعامل مع أنظمة فاسدة بدلاً من أخرى تدقق في الداخل والخارج من الأفكار والاستثمارات.

وإذا كان من الغبن عزو النشاط الشيعي الملاحَظ بقوة الآن في إفريقيا إلى هذه المشهِّيات والمحفزات آنفة الذكر؛ فإن من الضروري للتعرف على هذا النشاط بشكل موضوعي أن نعاين العوامل الرئيسة في انتشار التشيع في إفريقيا على النحو الذي نلمسه اليوم، وإنَّ تتبُّعاً لتواريخ نشاط الترويج للتشيع في إفريقيا سيقودنا إلى محطتين بارزتين رئيسيتين وأخريات فرعيات مرَّ بها هذا النشاط تزوَّد بوقود اشتعاله منها:

المحطة الأولى: هي قيام نظام الجمهورية الإيرانية الشيعية في إيران عام ١٩٧٩م، وقد أطلق معها المرشد الأعلى للثورة (الخميني) مشروعه لتصدير ما أسماه بالثورة، وعنى به الأيديولوجية الشيعية، وحدد لها مجالاً تقليدياً هو المحيط الإسلامي؛ إذ إنه من المعروف أن النشاط الدعوي الشيعي مقصور على الداخل الإسلامي في معظمه الغالب ولا ينشط خارج إطار المسلمين؛ فهو غير معني أصلاً بانتشار الإسلام، وإنما بذيوع الفكرة الشيعية المتمردة على المحيط السُّني باعتباره أحد مفرزات الخلافة الراشدة[1] والدولة الأموية والعباسية والعثمانية.

وفي إفريقيا (محل النظر)، وعند تتبع النشاطات والمؤسسات التي تأسست في إفريقيا يُلحَظ أن معظمها بدأت عملها في الأعوام التي تلت الثورة الإيرانية، وبدءاً من عام ١٩٨٣م تقريباً، وأن العالم العربي سرعان ما تلمَّس أصداء هذه الثورة لا سيما في إفريقيا، وشعرت دول مؤثرة كمصر بهذا الحضور الإيراني خصوصاً في القرن الإفريقي ومنطقة البحيرات العظمى، التي هي الامتداد الإستراتيجي الطبيعي لمصر في إفريقيا.

المحطة الثانية: هي العدوان على العراق واحتلاله في عام ٢٠٠٣م وما نجم عن ذلك من تسلُّم الحوزات والقوى الشيعية لحكم العراق، وانسياب قطاعات من الأجهزة الأمنية الإيرانية الاستخبارية والعسكرية إلى العراق، وسيطرتها على معظم نقاط التأثير في الدولة العراقية، وتمتُّع المراجع الدينية الشيعية العربية والإيرانية بهامشِ تحرُّكٍ واسع المدى مستفيدين من المناخ الدولي المشجع على هذا الظهور والتحرك على أكثر من صعيد.

وبالترافق مع ذلك تبدو ثمة عوامل كثيرة مشجعة على دعوة شيعية ممتدة في بلدان إفريقيا تتغذى على ضعف المقابل السُّني عن تعزيز مكانته بإفريقيا، وتستحضر نقاط قوتها بسهولة في ظل غيابٍ لافتٍ للمعوقات، ومنها - على سبيل المثال -:

١ - الفقر والجهل اللذان تعانيان منهما القارة، ويفسحان المجال للنشاط الدعوي الشيعي القائم على منظومة متكاملة من العمل (الخيري) الطبي، والتعليمي، في بيئة تسمح بتمرير معتقدات شيعية خالصة باسم الإسلام لدى البسطاء ومحدودي الثقافة الدينية.

٢ - الإفادة من انتهاء الحرب الإيرانية العراقية أواخر ثمانينات القرن الماضي في توجيه جزء من عوائد النفط إلى النشاط الدعوي بإفريقيا، واستغلال ارتفاع أسعار النفط أثناء حرب الكويت ثم العدوان على العراق وما تلا ذلك في

(١) باستثناء فترة الصحابي علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ضخٍّ أموالٍ تصرف على التشييع بإفريقيا.

٣ - تراجع الدور السياسي العربي في إفريقيا، وقد بدا أن ثمة فجوةً إستراتيجيةً واضحةً خلَّفها هذا التراجع على الصعيدين (السياسي والاقتصادي) شجعت قوى إقليمية كالكيان الصهيوني وإيران علىالتمدد في هذا الفراغ، وهو أمر منطقي قد غاب ربما عن واضعي السياسات العربية في إفريقيا.

٤ - استغلال حاجات الدول إلى مساندات سياسية واقتصادية وعسكرية مُلِحَّة: كحاجة السودان إلى كل ذلك في ظل علاقات لم تكن جيدة مع القاهرة أثناء فترة وجود الزعيم السوداني حسن الترابي في رأس السلطة السودانية.

٥ ـ الرضى (أمريكي - فرنسي) عن النشاط الشيعي في دول إفريقية ذات غالبية مسلمة؛ لا سيما نيجيريا وغانا وإريتريا وكينيا والسنغال... وغيرها.

٦ - أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وما نجم عنها من التضييق الدولي على قطاع العمل الخيري الخليجي (السُّني) وما يرافقه من نشاطات دعوية، وتخوُّفٍ كثيرٍ من المؤسسات الخيرية من دمج التوعية الدينية مع عملها الخيري إن وجد؛ خشيةً من تحميل نشاطهم أكثر مما يحتمل؛ لا سيما مع توافر أجواء تسمح بلصق تُهَم دعم الإرهاب به من قِبَل قوى دولية.

٧ - ضعف دور الأزهر في إفريقياً بسبب انكفائه على الداخل وعدم حضوره لاعباً قوي في إفريقيا مثلما كان في الفترات التي سبقت شيخه الراحل، وعدم تقديم الدعم الكافي لدعاته (الموفدين أو الوافدين من الأزهر) إلى دول إفريقية، وعدم وضع الأزهر (منهجاً ودعوة وتعليماً) قضية التشييع على سُلَّم أولوياته؛ سواء في الداخل الجامعي أم الخارج الإفريقي.

٨ - إقامة دول عربية علاقات رسمية مع الكيان الصهيوني وهو ما سمح لحركة التشييع في الإفادة من خيبة أمل بعض المسلمين الأفارقة في تلك البلدان، وتهيئتهم لقبول (الفكرة الثورية الحسينية) الرافضة لممارسات تطبيعية مع الصهاينة.

٩ - حرب لبنان ٢٠٠٦م وما واكبها من صناعة كاريزما خاصة بزعيم حزب الله اللبناني (حسن نصر الله)، وهو ما وفَّر بدوره شخصية أسطورية ثورية نجح الدعاة الشيعة في تجسيدها كمثال على التمرد الشيعي على (الخنوع الوهابي بنظرهم) للدول السُّنية، الذي أفرز الهزائم العربية أمام الصهاينة بينما نجح تنظيم (ثوري حسيني) في تحقيق (النصر) على الكيان الصهيوني.

١٠ - التفجيرات وأعمال العنف التي حدثت في أكثر من بلد إفريقي مثل تنزانيا وكينيا والصومال والجزائر ونيجيريا المنسوبة إلى تنظيم القاعدة أو تنظيمات سُنية مشابهة، يُصرُّ الدعاة الشيعة بإفريقيا وغيرها على صدورها عن عناصر أخذت أفكارها من (الفكر الوهابي)، والبناء على ذلك ببعث رسالة إلى الحكومات والأنظمة والشعوب الإفريقية بأن البديل (الآمن) للفكر التكفيري العنيف، هو الفكر الشيعي ومعتقداته (السلمية).

إن هذه المحطات ونقاطَ القوة تلك قد أفادت منها إيران كثيراً في تعزيز نفوذها بإفريقيا على الأصعدة الرسمية والشعبية، وفي مجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ونستطيع أن نرصد آلياتٍ استخدمتْها القيادة الإيرانية بصورة احترافية واعية أسهمت في صعود (المد الشيعي) في إفريقيا، وهو ما لا يمكننا تقديره بشكل دقيق في ظل صعوبة الوقوف على إحصاءات دقيقة تمكننا من حصر تعداد حركة التشييع في إفريقيا، وهو ما لا يمكن أن يتوفر أبداً؛ لا سيما إذا كان التقدير لطائفة تعتمد (التقية) و (الباطنية) اللتين تَحُولان دون حصرها بشكل واضح؛ إلا أنه بوسعنا تلمُّس آثارها؛ خاصة في بلدان بدا فيها التشييع ظاهرة واضحة لا نستطيع تجاهلها.

ولقد يمكننا تلمُّس بعض الآليات التي نجحت طهران والمرتكزات الشيعية الأخرى: كقم ومشهد والنجف وكربلاء... وغيرها في استعمالها لتوسيع رقعة التشيع في إفريقيا، ونلاحظ فيها أنه في حين تشترك كل محاولات التشييع في الدول الإفريقية في بعض آلياتها المعروفة؛ فإنها تختلف وتنفرد أحياناً في حالات بعينها.

وقبل استعراضها، فإن ثمة ملاحظةً بالغةَ الأهمية تتعلق بالإستراتيجية الإيرانية في إفريقيا، وهي أنها: لا تقتصر كليَّةً على الجانب الدعوي التشييعي، وإنما قد ترضى بقدر من التشييع السياسي - إن جاز التعبير - تارة، وقد تستعيض

عن ذلك كله بتحقيق مصالح لها علاقة بإيران الدولة، أكثر ما تكون لإيران حامية الطائفة و (المذهب)؛ ولذا؛ فإن علاقة إيران بدول معيَّنة ربما لا توجد فيها إلا أقليات إسلامية ضئيلة العدد (أو حتى كبيرة) لا تتعلق أساساً بالرغبة في تغيير قناعات شعوبها الدينية، وإنما بالطبيعة الاقتصادية لها أو الموقع الإستراتيجي ونحو ذلك.

ولعل من أبرز تلك الآليات المشتركة:

- إقامة المستشفيات في الدول الفقيرة، كموريتانيا وغينيا ومالي... وغيرها.

- إقامة الجمعيات الأهلية المتعلقة بالمرأة (ويحمل كثير منها اسم (فاطمة الزهراء) ونحو ذلك).

- نشر مجلات وقنوات فضائية أو إذاعية، وإقامة الاحتفالات الطائفية (الدينية) المتعددة بشكل علني والتسويق للمذهب عبر الاحتفاء بآل البيت، والتواصل الجيد مع المسؤولين في الدولة[1].

وتشترك كل الأنشطة الدعوية الإيرانية في إغراء السكان بالمال في قِطاع التعليم والصحة وغيره، كما تعتمد آليةَ الابتعاث إلى إيران وسوريا للنابغين من طلاب المعتقَد الشيعي.

وتتعدد الآليات المنفردة أو المقتصرة على بعض الدول دون غيرها، وأضرب لها أمثلة بما يلي:

١ - تمرير التشييع مستفيدة من علاقات عسكرية جيدة: كما في الحال الإرتيرية، وتجدر الإشارة إلى أن علاقة إريتريا بـ (إسرائيل) لم تَحُل دون تنامي هذه العلاقة، التي نجم عنها تشجيع للمؤسسات الشيعية للتوسع في هذا البلد المسلم، لكن الحماسة (الدينية) لنشر التشيع في إريتريا ظلت محكومة بعدم رغبة الإيرانيين في استفزاز أسمرة، ومن ثَمَّ تفويت فرصة إيجاد موطئ قَدَم بالقرب من مضيق باب المندب، والحضور العسكري الداعم لحركة التمرد في اليمن، ومن ثَمَّ لا نجد حركة التشييع مندفعة، ولكنها حاضرة في إريتريا بعكس دول أخرى لا تراعي تلك المحدِّدات الإستراتيجية.

٢ - لم تنظر طهران إلى السودان كدولة تستطيع من خلالها تنمية علاقاتها الاقتصادية معها فحسب، بل ظلت تنظر إليها كدولة لها نفوذها الديني الإقليمي، وامتدادها العميق باتجاه الغرب الإفريقي والجنوب الساحلي معزَّزة بزخم تاريخي هائل، كانت كلمة (السودان) فيه تعني منطقة الحزام الأوسط لإفريقيا، ثم أضحت جسراً ثقافياً إسلامياً وعربياً إبَّان حكم أسرة محمد علي الألبانية بمصر؛ ولذا حرصت سلطة الملالي على نشر التشيع في السودان على نحو يكاد يتجاوز اهتمامها بتنمية علاقاتها الرسمية مع نظامها على الأصعدة (الاقتصادية والعسكرية والسياسية)، حتى بعدما صار السودان الآن الأعلى إفريقياً من حيث معدلات النمو الاقتصادي، وهو ما يسيل لعاب المستثمرين للمجيء إليه.

٣ - الاهتمام الإيراني بقطاع ما يُسمى بـ (الأشراف) في مصر والسودان لا يكاد يجد نظيره في بلدان إفريقية أخرى لا يتوفَّر فيها هذا العدد الكبير الذي يعد بالملايين من (المنتسبين) إلى آل بيت النبي ﷺ - سواء كان حقاً أو باطلاً - وهو قنطرة لا يفوِّتها الملالي لنشر التشيع عبر العمل على اختراق هذه (النخبة) التي ليس لها تأثيرها العددي فقط، بل نفوذها السلطوي أيضاً في أكثر من مركز مهم من مراكز الدولة لا سيما في مصر؛ ولذا فإن التعاطي مع مسألة (الأشراف) قلَّ أن يوجد لها نظير في غير هاتين الدولتين الإفريقيتين الرئيستين.

٤ - وكذلك لا تُغفِل سلطة الملالي في قم وطهران وغيرهما ما لمسألة حب آل البيت من أهمية لدى قِطاعات عريضة من الطرق الصوفية في مصر والسودان؛ فإنها تنظر بعين حادة إلى دولة كبيرة كنيجيريا ينتشر فيها التصوف و (محبة الأولياء) على الرغم من أن دولتها الإسلامية الرئيسة تاريخياً وهي مملكة عثمان بن فودي، قامت (على أجزاء كبيرة منها وكذا أجزاء من النيجر وغانا) متأثرةً بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (العدو التقليدي للشيعة الإمامية)، وهو ما يعطي بدوره دفعة إضافية لنشر التشيع في منطقة لم تزل بعض تياراتها متأثرة بدعوته، رحمه الله.

٥ - استغلت طهران العلاقة الوثيقة التي تربط بعض مستثمري لبنان من الطائفة الشيعية بالاستخبارات الفرنسية

(١) في إفريقية الآن رئيس إفريقي شيعي هو رئيس جمهورية جُزُر القُمُر، وثلاثة وزراء في غينيا، إلى جانب عدد من المسؤولين في دول إفريقية أخرى، وآخرين من السُّنة تقيم معهم علاقات متميزة.

في تمهيد الطريق لنشر التشيع في دولة كالسنغال، كما أنها لاحظت المستقبل المنظور لدولة اقتصادية واعدة كغانا، والماضي الممتد اتساعاً على رقعة تأثيرية كبيرة في الغرب الإفريقي يعززها تاريخ إمبراطورية غانا الكبيرة في ضخ أموال في مجال القطاع التعليمي الشيعي إليها، وإنشاء (الجامعة الإسلامية) فيها، وهي التي خرَّجت أكثر من خمس دفعات حتى الآن لنشر التشيع في الداخل والمحيط الإقليمي.

٦ - عمدت طهران إلى مد جسورٍ مع الأقلية المسلمة في جمهورية جنوب إفريقيا هادفة إلى إيجاد (لوبي شيعي) في تلك الدولة التي يحاول الغرب تهيئتها لتكون الدولة القائدة الأولى في إفريقيا عبر سلسلة من الفعاليات والإجراءات، وتفيد سلطة الملالي من وجود أقلية هندية بين مسلميها يمكن من خلالها التواصل مع مراكز هندية شيعية.

٧ - لم تهمل الدوائر العاملة على نشر التشيع في الشمال الإفريقي الزخم الذي صاحب حرب لبنان عام ٢٠٠٦م في السعي لنشر فكرة (الثورة الحسينية) في أوساط متحمسة للقضية الفلسطينية في دول كالجزائر والمغرب تشهد عادة أكبر حشود من المظاهرات ضد (إسرائيل) أثناء المعارك التي خاضتها قوى المقاومة أو (حزب الله) مع الكيان الصهيوني، كما أن تلك الدوائر لا يمكنها أن تتجاهل الدول والممالك الشيعية - ولو خالفت في أصول الطائفة نوعاً مَّا كالإسماعيلية - التي قامت في الماضي ونجحت في التوسع وإقامة إمبراطورية كبيرة كالعبيديين (المسمين بالفاطميين) لدغدغة مشاعر بعض المغاربة الذين قد يروق لهم النظر إلى دولة متمكنة شاسعة كالعبيدية بقَدْر من التقدير. كما أنه لا يمكن التغاضي عن مسألة الشعور بـ (المظلومية) في منطقة القبائل الجزائرية لإنعاش المشاعر الشيعية القديمة لدى بعض الأمازيغ، الذين ينتشر لديهم الآن التشيع والتنصير جنباً إلى جنب بشكل لافت للنظر.

٨ - أفادت طهران من (تسامح) بعض الجماعات الإسلامية (السلمية) إزاء مسألة التشيع حتى بين صفوف بعض عناصرها أو إعجابها بشخصيات تدَّعي المقاومة من الطائفة الشيعية في تجنيد شخصيات نخبوية إسلامية لا سيما في مصر وتونس.

٩ - هيأت بعض مجموعات العنف في الجزائر وموريتانيا وجنوب الصحراء (لا سيما في مالي والنيجر ونيجيريا) المناخَ المناسب لتقديم مسوِّقي الفكر الشيعي بضاعتهم كبديل لأفكار (العنف والإرهاب والتشدد والتكفير والوهابية) على حد تعبير الأدبيات الشيعية، كما شجعت دولاً (استعمارية) تقليدية كبريطانيا وفرنسا، وحديثة كالولايات المتحدة على القبول بالتشيع كبديل لتلك الأفكار، لا ينتج عنفاً موجَّهاً إليها[1].

١٠ - تحاول إيران الإفادة من العلاقات الوثيقة التي تربطها بالصين في العبور من خلالها إلى السوق الإفريقية الواعد، وهي بذلك تسعى إلى مزاوجة التشييع بالاقتصاد وتوفير فرص عمل لمن يُسمَّون بالمستبصرين وهم المتشيعون، أو أولئك الواقعون تحت تأثير الدعوة الشيعية.

وخلاصة القول: إن حركة التشييع ماضية على قدم وساق في إفريقيا، مشفوعةً بعدد من العوامل المساندة لها وهو ما وفَّر لها أعداداً تتحدث بعض المصادر كصحيفة (الشرق الأوسط) أنها ٧ ملايين في الغرب الإفريقي، ومليون في غانا وحدها وَفْقاً لتقرير صادر عن بعض دعاتها السُّنة، وبعضها تتحدث عن عدة آلاف في الجزائر (١٧٠٠ وَفْقاً للكاتب والباحث رضا مالك)، وفي تنزانيا وغينيا وتونس والسودان وكينيا ومصر وغيرها (طبقاً لمصادر أوردتُها تفصيلياً في كتاب خريطة الشيعة في العالم)، وجُزُر القُمُر وإرتيريا وجنوب إفريقيا.

وتلك العوامل يغذيها التراجع السُّني على الأصعدة (السياسية والعلمية والخيرية)، كما أن كثيراً من المؤسسات الإسلامية الناشطة في هذا المجال تفتقر إلى التخصص والوعي بطبيعة المرحلة الراهنة ومحدداتها الحاكمة، كما لا يمكن تحميلها كامل المسؤولية؛ لأنه في الحقيقة لا يمكن لمؤسسات صغيرة أن تواجه مجهودات دولة كبيرة ومؤثرة كإيران.

(١) وهي لا تمانع بالمناسبة في عنف موجَّه إلى المسلمين أنفسهم مثلما لم تمانعه في العراق وغيره، مثلاً.

حكايةُ أبٍ غيَّبه الأَسْر

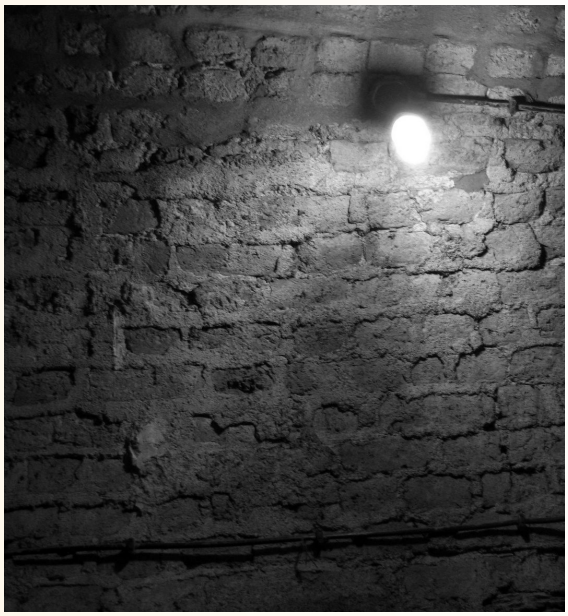

فؤاد الخفش(*)

قد يستطيع السجان أَسْر جسد إنسان وتكبيله بالحديد وحصر رؤيته في زنزانة ضيقة لا تتسع حدودها لأكثر من شخص، ولكن من المؤكد أنه غير قادر على محاصرة فكر وخيال أسير أُسِر جسده وبقيت روحه وقلبه يحلقان في سماء مَنْ عشق وأحب، ومِن أجله قاتل وأُسِر.

وقد يضطر هذا الأسير إلى إعادة شريط الذكريات كلَّ يوم أكثر من مرة حتى تبقى هذه الذكريات عالقة في الخاطر، أو لأنها قليلة من حيث المدةُ الزمنيةُ وغير غنية وغير حافلة بالأحداث الكثيرة والكبيرة؛ لأن الأيام التي جمعتهم بمن أحبوا وعشقوا تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة من قلَّتها.

هذا حال صاحب قصتنا وبطل حكايتنا الأسير البطل (خالد المرداوي): إنه راحلة من رواحل فلسطين، وقصة من قصص البطولة التي سجلها الفلسطيني بصبره وثباته على أرض هذا الوطن؛ فتجاوز خياله وآماله وذكرياته حدود الزنزانة الصغيرة، ولم يسمح لعقارب الساعة المتوقفة في سجن عسقلان وقت الغروب بإيقاف خيالاته وطموحاته وذكرياته الجميلة. فَحضَن ابنتَه الوحيدة التي رزقه الله بها وهو أسير من دون أن يلامسها وهذب لها شعرها من دون أن يراه وحلَّق خيالُه بعيداً إلى ذلك اليوم الذي دخلت فيه المدرسة وكيف كانت تجلس في الصف، وكيف كان الخوف يسيطر عليها، وكيف كانت تقول اسمها على استحياء، وكيف كانت تلهو مع رفيقاتها، وهي تكبر مع كل يوم... كان يمر عليه العام، بل الأعوام الكثيرة فتخيل يوم نجاحها بالثانوية العامة،

(*) كاتب وباحث متخصص في شؤون الأسرى الفلسطينيين.

ويوم دخولها الجامعة، ويوم أن تقدَّم أحد الشباب لخطبتها وكيف كان ردُّه؟ وكان هو من يوصلها لبيت زوجها وهو أول من حمل حفيده الصغير وحلق له شعر رأسه وضمه إلى صدره.

كل هذه الأفكار والصور جالت برأس الأسير خالد المرداوي الذي رُزِق بمولدته البكر الوحيدة (إباء) قبل أكثر من ثمانية عشر عاماً ونيِّفاً، وما زال فكره يجول ولكن إلى أبعد مما سبق؛ فإباء كبرت ودخلت المدرسة ونجحت، وهي الآن طالبة في العام الأول بجامعة النجاح الوطنية، وبقي من أحلامه وأفكاره الكثيرة أن يخرج ليحتضن ابنته الوحيدة ويزفها إلى بيت زوجها بحضور أصحابه من رفاق القيد والزنزانة.

إن خالد المرداوي المعتقل في سجن عسقلان من تاريخ ٢٨ / ٨ / ١٩٩٢م وقد مضى من عمره خمسة وأربعون عاماً، وهو محكوم بالسجن مدى الحياة أربع مرات، إنه عُمْلَة نادرة، ومعدِن ثمين لا يقدَّر بثمن، ورجل أحبَّه كل من التقى به، واستطاع بدماثته ورفيع خُلُقِه أن يأسر قلب كل من التقاه وأن يترك بصمة في صدر كل من جمعته به زنزانة أو سجون؛ فكان خالد المرداوي من الأسماء التي لا يمكن لإنسان أن ينساها.

إنه الشاب الجميل الذي كسا شعرَه الشيبُ وغيرت تجاعيد الزمان بعض ملامحه حباه الله بكثير من الميزات؛ فقد رزقه الله بزوجة مجاهدة صابرة مصابرة لا مثيل لها في وقتنا الحالي، حكاياتها تذكرنا بزمن الصحابيات والفدائيات؛ كيف لا وهي التي قبلت أن تقترن بخالد وهو مطارَد من قِبل جيش الاحتلال وقد زُفَّت إليه بالخفاء ولم يحضر أحد عرسها، ولم تلبس البدلة البيضاء، لقد قبلت بكل هذا وهي تقول: شرف لنا أن نقترن بالمجاهدين، وكل متاع الدنيا يزول.

قَبِلت أن تُزفَّ بلا ناس ومن دون غناء ولا حناء؛ فقط أن ترتبط بهذا المجاهد الذي كان قد اختار لنفسه الكهوف وأعالي المغارات بدل البيوت والقصور، وعاشت معه أحد عشر شهراً بالتمام والكمال قبل أن ينقضَّ عليه شذاذ الآفاق بليل ويعتقلونه ويضربونه ويحكمون عليه بأكثر من أربعمائة عام.

ما زالت ميسون (أم إباء) تذكر تفاصيل كل الساعات والأيام التي أمضتها مع زوجها الحبيب وفي كل يوم تعيد شريط الذكريات وتتمنى عودة الحبيب الغائب والفارس الهصور، رفضت أم إباء كلَّ الدعوات التي دعتها لترك زوجها الذي يواجه حكماً عالياً ولا أُفُقَ لخروجه وبقيت مخلصة له وهي التي كانت تحمل في أحشائها طفلتها الصغيرة البكر إباء، وكلما قيل لها: انظري إلى مستقبلك وفكري بنفسك واتركيه وشأنه. كان قرارها حاسماً: لن أجعل إباء تعيش اليتم الذي تعرضْتُ له وأنا صغيرة، وسأصبر وسأرضعها لبن العزة والإباء، ويكفي أن صورة أبيها تزين جدران المنزل.

مرت الأيام وما زالت بقسوة على إباء وميسون وخالد وجميعهم يحلمون بذلك اليوم الذي تُكسَر فيه جدران الزنزانة ليخرج ذلك البطل ويضمَّ بين ذراعيه زوجته ميسون وابنتَه إباء يمسح على رأسيهما يعوضهما الحرمان ويحاول أن يجعل القادم من الأيام أفضل من تلك التي مضت؛ وهل هناك من يستطيع أن يجزي أمَّ إباء على صبرها وإصرارها على البقاء على ذمة زوجها الذي تركها عروساً وهي التي حفظت غيبته وسترت عرضه وربَّت ابنته أجمل تربية.

لقد فقد خالد المرداوي والدته وهو في الأسر، وكان آخر لقاء له بها محزناً ومبكياً؛ فقد ذهبت الوالدة إليه وهي على فراش الموت من خلال سيارات الصليب الأحمر، وفي زيارة كانت هي الأخيرة جلس بين يديها قبَّلهما وقبَّل قدميها وبكت العيون وسكتت الألسن، وطلب منها أن تسامحه؛ لأنه كان سبباً في إتعابها عقداً ونصف عقد يتنقل من سجن لآخر، أومأت الأم برأسها وطلبت منه أن يهتم بنفسه، وجر عربتها المتحركة موظف الصليب الأحمر، وودعها ولدُها وفِلْذة كبدها الوداع الأخير، وبعد ذلك توفاها الله وأُنزلَت قبرها من دون أن يلقي عليه نظرة وداع أو قبلة حانية.

ما يزال خالد المرداوي في زنزانته العاجزة عن سرقة فرحته بالقادم من الأيام تزين جدران زنزانته صورة الطفلة إباء التي أصبحت شابة في مقتبل العمر، تمسح الماضي القاتم وتفتح دفتر الغد المشرق، تخفف القيد عن المعصم، وترسم المستقبل مع زوجته الصابرة في ربوع بلدته التي أحبها (حبلة) القريبة من مدينة قلقيلية.

وإلى أن يأتي ذلك اليوم أقول لك: خالد حُقَّ لك أن تفخر بزوجتك التي صبرت على بُعدِك وشقَّت طريق العلم فانتزعت مؤهلاً علمياً عالياً وأصبحت مديرة مدرسة وربَّت لك درة عينك؛ فكانت إباء التي يتمنى كل إنسان أن يرزق بابنة مثلها. وإلى أن نلقاك نقول: فرَّج الله كربك وفكَّ أسرك وعُدْتَ لنا ولهم سالماً غانماً.

الأحزاب الإسرائيلية ودعم نتنياهو

هشام منور(*)
hichammunawar@gmail.com

في الوقت الذي يعرف فيه المشهد الفلسطيني انشقاقاً سياسياً حاداً وفاصلاً إزاء الموقف من المفاوضات المباشرة، لا سيما أن السلطة الفلسطينية تذرَّعت بالغطاء العربي وقرار لجنة المبادرة العربية من أجل الذهاب إلى واشنطن وبَدء المفاوضات، في ظل رفض معظم الفصائل الفلسطينية قرار المشاركة، وتزييف قرار اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أمام كل ذلك يبدو المشهد السياسي الإسرائيلي موحداً ومترابطاً إزاء القضايا الأساسية التي يعارضهم فيها الفلسطينيون، وبالذات قضية الاستيطان والتفاوض والقدس.

والمريب في الأمر أن زعيمة المعارضة الإسرائيلية وحزب كاديما (تسيبي ليفني) اختفت عن المشهد السياسي برمته، وامتنعت عن انتقاد رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في أوج الصخب الذي تشهده الساحة السياسية الإسرائيلية بشأن قضية استئناف البناء الاستيطاني الذي يهدد بتفجير عملية السلام، بينما دعا وزيرٌ من حزب الليكود الحاكم إلى تشكيل حكومة وحدة من خلال ضم كاديما إليها.

ولاحظت صحيفة هآرتس أن: (صوت رئيسة المعارضة وزعيمة كاديما لم يُسمَع، في الأسابيع الماضية، بكل ما يتعلق باستئناف البناء في المستوطنات).

وأضافت الصحيفة أن: (ليفني قررت «النزول إلى العمل السري» وعدم إطلاق تصريحات علنية في الموضوع). ونقلت الصحيفة عن مقربين من ليفني قولَهم: (إن الحديث يدور عن «قرار مبدئي» اتخذته ليفني، يقضي بدعم نتنياهو وتمكينه من اتخاذ قرارات دون توجيه انتقادات علنية له بكل ما يتعلق بدفع عملية السلام).

وادَّعى المقربون من ليفني أنه: (لا توجد أي إمكانية لمعرفة التفاهمات في الغرف المغلقة بين نتنياهو والفلسطينيين حول استمرار البناء؛ ولذلك فإن أي انتقاد قد يُلحِق ضرراً بالمفاوضات).

(*) كاتب وباحث.

لكن هآرتس رجحت أن ليفني لم تبلور حتى الآن موقفاً حيال موضوع استمرار تجميد البناء في المستوطنات، علماً أنها في الماضي عارضت التجميد بشدة، لكن منذ بدء التجميد اعتبرت أن أي دعوة لاستئناف البناء من شأنها المسُّ بالقيادة الفلسطينية وبجمهور ناخبيها الذين وصفتهم الصحيفة بأنهم يميلون إلى اليسار.

وفي موازاة صمت ليفني، فقد عمل أعضاء الكنيست من قِبَلها بصورة منسقة أمام وسائل الإعلام، وتضمنت تصريحاتهم رسالة واحدة، لكنها مزدوجة، مفادها: أن قرار تجميد البناء كان خاطئاً منذ البداية، لكن حزب كاديما عازم على دعم ودفع أية عملية سياسية يقودها بنيامين نتنياهو.

وفي السياق ذاته، نشر الوزير ميخائيل إيتان من الجناح المعتدل في حزب الليكود مقالاً على موقعه الإلكتروني دعا فيه إلى تشكيل حكومة وحدة وضم حزب كاديما إليها؛ وذلك على ضوء استئناف البناء الاستيطاني، وخضوع نتنياهو الآن وفي الأيام المقبلة لضغوط دولية، وخصوصاً من جانب الإدارة الأميركية؛ ولذلك فإن (ثمة حاجة إلى وحدة قومية من المناسب أن يكون كاديما جزءاً منها).

وعقَّب حزب كاديما على دعوة إيتان بالقول: إن (كاديما سينضم إلى الحكومة إذا كان نتنياهو جادّاً في نواياه للتوصل إلى اتفاق سلام كامل، وإذا تشكل تحالف آخر (غير الحالي) يمثل هذه النوايا ويدعمها). في إشارة إلى ائتلاف نتنياهو اليميني الحالي، وتضارب توجهاته مع توجهات حزب كاديما.

إذن فمؤازرة حزب كاديما وزعيمته المتوارية عن الأنظار لحكومة نتنياهو لا يعكس توافقاً حزبياً مؤقتاً أو طارئاً، بقدر ما يؤكد الثوابت الإسرائيلية التي لا تختلف باختلاف الأحزاب أو الأشخاص أو الحكومات، في عملية التفاوض مع الفلسطينيين، وفي مقدمتها الموقف من القدس والبناء الاستيطاني والأمن، ورفض أي عودة محتملة لأي لاجئ فلسطيني إلى أرضه، مهما كانت الظروف والضغوط، وأيّاً كان حجم الخلافات الموهومة بالنسبة لنا ولحلفاء (إسرائيل)، على حد سواء.

الآن..

السراج

في بيان غريب

القرآن

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١
المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢-٠٥٠٢٢١٠٩٢٠- ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦- ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥-٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مرصد الأخبار

جـــلال ســـعـــد الـــشـــايـــب
galal_elshayp@hotmail.com

الخمر أضر أنواع المخدرات

أكدت دراســة طبيــة جديدة أجراهــا مستشــار الحكومــة البريطانيــة للأدويــة والعقاقير والمخــدرات أن للخمــور أضراراً علــى صحــة الإنســان أكثر من الأضرار الناجمة عن معظم المواد المخدرة المعروفة عالمياً كالكوكائين والهيروين مثلاً.

وجاءت الدراســة التي قادها المستشــار ديفد نات مــع زملاء له مــن اللجنة العلمية المســتقلة للمخــدرات، لتبــين أنــه: إذا تم تصنيــف العقاقيــر وَفْــقَ درجة الضرر الذي تسببه للإنسان، فإن الخمور تأتي قبل كلٍّ من الكوكائين والهيروين والقنــب، وأضاف: إن الخمور هي أكثر المخدرات خطورة فــي بريطانيــا، وإن الكوكائــين والهيروين في المرتبة الثانية.

كما أشارت الدراسة إلى تسعة أنواع من الضــرر الذي يمكن أن تُلحقَه العقاقيــر بالفرد بدءاً «من المــوت إلى الأضــرار التي تلحقه بســوء الأداء العقلــي وفقدانــه للعلاقــات»، إضافة إلــى ذِكْرها لســبعة أنواع من الضــرر الذي تسببه للآخرين؛ حيث يبلغ أقصى درجــة للضرر المحتمــل مائة أما أدناها فهو الصفر.

[موقع الجزيرة عن ديلي تلغراف: ٢/١١/٢٠١٠م]

إسرائيل وتهديد الأمن القومي المصري المباشر

حثَّت دراســة مصرية حديثة صادرة عن قســم الاقتصــاد الزراعي بالمركز القومي للبحوث، حثت الحكومةَ المصريةَ على إعادة صياغة رؤيتها المستقبلية التي تعيدها لإفريقيا، وبخاصة دول حوض النيل، في ظل تنامي الوجود الإســرائيلي في القارة، وهو الذي يتزايد تأثيره في منطقة حوض النيل.

وقالت الدراســة: إن الوجود الإســرائيلي يهدد بشكل مباشر الأمن القومي المصــري، ولا يمكن إنكاره أو تجاهله، في ظل وجــود دعم أمريكي لهذا التوجه الإسرائيلي الذي يأتي العامل الاقتصادي أحد أهم محاوره.

ورصدت الدراســة إمكانيات تنمية العلاقات المصرية مع دول حوض النيل من أجل تحقيق المصالح المشــتركة بينهم، وزيادة حصة مصر من مياه النيل، من خلال إقامة المشــروعات المشتركة في مختلف المجالات، وهي التي يترتب عليها النفع المشترك بينهم من حيث تنميةُ الموارد الاقتصادية غير المستغلة، في مواجهة الدور الصهيوني في منطقة حوض النيل.

[جريدة الشروق المصرية: ٤/١١/٢٠١٠م]

احذروا الخديعة الصهيونية

حذَّرت «الحملة الأوروبية لرفع الحصار عن غزة»، التي تتخذ من بروكسيل مقــراً لها، من مغبة أن تنطلــي الخدعة الصهيونية ومزاعم الاحتلال بشــأن «تخفيــف» الحصار الجائر المفروض على قطاع غزة للســنة الخامســة على التوالي، موضحة أن الحصار وآثاره «ما زالت ماثلة أمام الوفود التي تزور قطاع غزة، لا سيما الغربية منها».

وأكــد محمد حنون، عضو الحملة علــى «أن تأكيد المنظمات التابعة للأمم المتحدة العاملة في قطاع غزة، والبيانات الصادرة من وزارة الصحة الفلسطينية، التــي توضح أن الحصار مــا زال يخنق أكثر من مليون ونصف المليون إنســان فلسطيني؛ يجعل من الواجب الأخلاقي والإنساني على المجتمع الدولي، الوقوف أمــام حقيقة الأوضاع على الأرض فــي القطاع، وعدم الالتفــات إلى مزاعم الاحتلال بشــأن تقديم «تســهيلات» إلى الفلســطينيين المحاصرين في سجن مفتوح هو الأكبر من نوعه في العالم».

[المركز الفلسطيني للإعلام: ١٤/١١/٢٠١٠م]

أول نتائج التقسيم

أكد زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان سلفاكير ميارديت أنه لا يستبعد إقامة علاقات جيدة مع إسرائيل وفتح سفارة لها في جوبا عاصمة الإقليم في حالة اختيار الجنوبيين الانفصال في الاستفتاء المقرر مطلع العام المقبل.

وأكد سلفاكير أيضاً في تصريحاتٍ صحافية أن الدولة العبرية عدوةٌ للفلسطينيين فقط وليست عدوة للجنوب، مشيراً إلى أنه سيرسم خريطة جديدة للسياسة الخارجية للجنوب في حال الاستقلال.

وقد ذكرت مصادر في الحركة الشعبية أن الحركة ستقيم علاقات مع أي دولة في العالم (أيّاً كانت) في حالة انفصال الجنوب؛ بناء على مصالح الجنوب وشعبه، وليس على مصالح أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن برنابا بنجامين وزير الإعلام بجنوب السودان، كان قد رحب في حوار له مع جريدة الخليج، بإقامة علاقات جيدة مع دول العالم أجمع في حال الانفصال بما فيها «إسرائيل»، مؤكداً على أن الدولة الجديدة في جنوب السودان - في حالة اختيار الجنوبيين الانفصال - ستكون قادرة على تأسيس علاقات مع كل دول العالم، ونحن لن نعادي أحداً، وللعلاقات الدولية أجندة على رأسها الاعتراف بالحكومات الناشئة، وأية دولة تعترف بنا سنقيم معها علاقات قوية وجيدة. [مواقع: ١٠/ ٢٠١٠م]

إفراج عن الجاني ومعاقبة للمجني عليه

قضت محكمة إسرائيلية بفرض الإقامة الجبرية على ثلاثة فلسطينيين قُصَّر بالإقامة الجبرية في منازلهم لمدة ٢٠ يوماً، بتهمة الشغب وإلقاء الحجارة على الشرطة، وذلك في قرار فاصل بالقضية التي أثارت جدلاً واسعاً بعدما تناقلت وسائل الإعلام مشهد تعرُّض أحد أولئك الفتية للدهس من قِبَل سائق سيارة إسرائيلي.

وصرح ميكي روزنفيلد (الناطق باسم الشرطة الإسرائيلية) بأن الفتية سيسمح لهم بالذهاب فقط إلى المدرسة خلال فترة العقوبة، ولكن برفقة أولياء أمورهم.

كما يُذكَر أن الشرطة الإسرائيلية في القدس كانت قد أفرجت في التاسع من نوفمبر الحالي عن دافيد بيئري، مدير عام جمعية (العاد) اليمينية التي تعمل على إسكان اليهود في حي سلوان المتنازع عليه بين الفلسطينيين والمستوطنين الإسرائيليين، بعد حادث صدمه لفَتَيَين فلسطينيين.

وقالت الإذاعة الإسرائيلية: إن الشرطة «حققت مع بيئري بعد أن صدم بسيارته صبيين في سلوان إثر قيامهما مع عدد من زملائهما برشق سيارته بالحجارة». [مصادر فلسطينية، وموقع cnn: ١١/ ١١/ ٢٠١٠م]

مكافأة لمن يكشف قاتل القطط!

أعلنت جمعية لرعاية الحيوانات في إيطاليا مكافأة خاصة تُقدَّر بخمسة آلاف يورو لمن يكشف عن سر مقتل ثلاث قطط بضاحية روما الجنوبية.

وذكرت وكالة الأنباء الإيطالية «آكي» أن الجمعية قالت في منشور وزعته: إن ثلاث قطط قد نفقت بعد تناولها نوعاً من أنواع السموم اسمه «استريشينين» في ثلاثة أيام متتابعة أيام الرابع والخامس والسادس من الشهر الجاري وفي التوقيت نفسه الساعة السادسة مساءً.

وأضاف المنشور: إن القطط نفقت في المبنى السكني نفسه، وإن أصحابها قاموا بتشريح الجثث في مستشفى بيطري لإثبات أنها تناولت السم نفسه. وناشدت الجمعية المواطنين التوجه بسرعة إليها للإدلاء عن أي معلومات تقود للعثور على الجاني مقابل مكافأة مالية قدرها خمسة آلاف يورو.

١٥ ألف يورو لزراعة كلية لقط ألماني في أمريكا

ويذكر في هذا الصدد أن توماس رايتش ألماني الأصل؛ كان قد خصص مبلغ ١٥ ألف يورو لزراعة كلية لقطه؛ وذلك لأنه لا يستطيع تحمُّل رؤية حيوانه المدلل وهو يعاني، كما يقول رايتش: «لن أسامح نفسي إذا تركت ماكسي يموت».

[جريدة المصريون الإلكترونية: ١٣/ ١١/ ٢٠١٠م]

ذكرت صحيفة الغارديان اللندنية أن العمليات العسكرية التي يخوضها الجيش البريطاني في أفغانستان ستكلف خزينة المملكة المتحدة أكثر من ١٥ مليار جنيه إسترليني (أي: حوالي ٢٣،٦ مليار دولار أميركي) خلال الأعوام الأربعة القادمة.

وأكدت الصحيفة على موقعها الإلكتروني أن تلك المبالغ سيتحملها صندوق احتياطي خاص، أُنفق منه بالفعل حوالي ١٢ مليار جنيه إسترليني (١٨،٨ مليار دولار) في الصراع الدائر هناك، وليس خصماً من ميزانية وزارة الدفاع. [الجزيرة عن الغارديان: ٢١/١٠/٢٠١٠م]

ارتفع عدد قتلى قوات التحالف في أفغانستان في عام ٢٠١٠م ضمن الحرب التي يخوضها التحالف ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة، إلى ٦٠٠ قتيل، معتبرة أن عام ٢٠١٠م يعدُّ أكثر الأعوام دموية بالنسبة لقوات التحالف منذ غزو أفغانستان عام ٢٠٠١م.

ويفوق عدد قتلى العام الحالي عددَ قتلى العام الماضي بنحو ٨٤ قتيلاً؛ حيث بلغ عدد قتلى قوات التحالف في عام ٢٠٠٩م ٥١٦ جندياً.

ويُذكَر أن أوباما كان قد أمر بنشر ٣٠ ألف عنصر جديد من القوات الأمريكية في أفغانستان خلال عام ٢٠١٠م.

ولقد ارتفع عدد عناصر القوات الأمريكية في أفغانستان إلى نحو ١٠٠ ألف عنصر، بينما تساهم ٢٥ دولة أخرى بنحو ٧٠٠٠ عنصر آخر.

كما يشار إلى أن أفغانستان شهدت بعض الأيام الدموية بالنسبة للقوات الدولية؛ حيث قُتِل خلال يومين فقط ١٥ جندياً من تلك القوات.

وَوَفْقاً لاستطلاعٍ حديث أجرته شبكة «السي إن إن» ظهر أن دعم الأمريكيين للحرب في أفغانستان انخفض إلى أدنى مستوياته؛ حيث أعرب ٣٧ ٪ من عينة الاستطلاع عن تأييدها للحرب، بينما عارضها أكثر من نصف أفراد العينة، لاعتقادهم بأن الحرب أخذت تتحول إلى «فيتنام» جديدة.

[موقع سي إن إن: ٢٥/١٠/٢٠١٠م]

أكدت وثيقة صادرة عن مركز المعلومات والأبحاث التابع للكنيست أن الفترة بين عامي (٢٠٠١ - ٢٠١٠م) شهدت تسلُّل ٢٦،٦٣٥ إفريقي إلى «إسرائيل»، مشيرةً إلى أن نحو ١٩٠٠ منهم كانوا في السجون الصهيونية خلال الشهر الماضي، بعدما طرأ ارتفاع بنسبة ٦٨ ٪ في نسبة الملفات الجنائية التي فُتحَت ضدهم.

وأفادت الوثيقة أن «تل أبيب» تقع في المركز الأول من حيث عددُ المتسللين؛ حيث يقطن فيها ١٧ ألف متسلل، تليها «إيلات» التي يقطنها ٧ آلاف متسلل، ثم «أسدود» بألفي متسلل، ثم القدس التي بها ألف متسلل.

[موقع الكنيست: ١٦/١٠/٢٠١٠م]

أشار برنامج التنمية الصادر عن الأمم المتحدة إلى أن عدداً من البلدان الأشد فقراً في العالم تحرز تقدماً هو الأسرع في مجال تحسين نوعية الحياة لمواطنيها، وطبقاً لمقياس الأمم المتحدة في هذا الشأن؛ وُجِد أن سكان بلد فقير مثل بنغلاديش أصبحوا أكثر تقدماً من سكان بلد أغنى نسبياً مثل الهند.

إلا أن الفجوة لا تزال واسعة بين دول العالم المتقدمة والمتخلفة؛ فقد تربعت النرويج على القمة؛ حيث يبلغ متوسط عمر الفرد ٨١ عاماً، ويبلغ متوسط دخل الفرد ٥٨ ألف دولار سنوياً. وجاء ترتيب زيمبابوي في ذيل القائمة؛ حيث يبلغ متوسط عمر الفرد ٤٧ عاماً، ومتوسط الدخل ١٧٦ دولار سنوياً.

[موقع البي بي سي العربي: ٤/١١/٢٠١٠م]

أعلن الرئيس الأمريكي باراك أوباما عن اتفاقيات تبلغ قيمتها ١٠ مليارات دولار مع الهند، يفترض أن تؤدي إلى استحداث حوالي ٥٠ ألف فرصة عمل أمريكية، ودعا ثالث أكبر اقتصاد آسيوي إلى تخفيف القيود على التجارة والاستثمار.

[موقع اليوم السابع: ٦/١١/٢٠١٠م]

في تصريح غير مسبوق كشفت الولايات المتحدة الأمريكية عن قيمة إنفاقها على أنشطة التجسس، مشيرة إلى أنها أنفقت ٨٠ مليار دولار على هذه الأنشطة في عام ٢٠١٠م. وتتضمن هذه الأموال ٥٣،١ مليار دولار على برامج التجسس غير العسكرية، وهي تزيد بنسبة ٦ ٪ عما أنفقته في المجال نفسه في عام ٢٠٠٩م، بحسب بيان نشره مكتب مدير الاستخبارات القومية.

أما الإنفاق على الأنشطة التجسسية العسكرية فبلغ ٢٧ مليار دولار، وَفْقاً للمتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون»، العقيد ديفيد لابان. ويقدر عدد العاملين في مجال الأمن القومي الأمريكي بنحو ١٠٠ ألف عنصر، تعمل الغالبية العظمى منهم في الأجهزة التجسسية الأربعة الكبرى، وهي وكالة الأمن القومي، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومكتب الاستطلاع والمعلومات القومي، ووكالة استطلاع وتحليل البيانات المصورة القومية.

وكانت الولايات المتحدة قد أنفقت ٤٩،٨ مليار دولار على برامجها التجسسية القومية خلال عام ٢٠٠٩م، بينما أنفقت في عام ٢٠٠٨م نحو ٤٧،٥ مليار دولار، و ٤٣،٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٧م، وَفْقاً لتقارير سابقة.

[موقع البي بي سي العربي ٢٩/١٠/٢٠١٠م]

س: ما هي الانتخابات النصفية الأمريكية، وما أهميتها، ومن ربح ومن خسر في هذا العام؟

ج: أجرت الولايات المتحدة انتخابات نصفية في الثاني من نوفمبر ٢٠١٠م، ومن المعروف أن نتائج تلك الانتخابات هي التي تُحدد الحزب المسيطر على الكونغرس طيلة العامين المقبلين.

وتسمى الانتخابات النصفية؛ لأنها تجري في منتصف الولاية الرئاسية، رغم كون الانتخابات في الحقيقة تخص الكونغرس وحكام بعض الولايات.

ويواجه كل أعضاء الكونغرس الـ ٤٣٥ الناخبين مرة كل سنتين، لكن لا يتم التصويت إلا على ١٠٠ من مقاعد مجلس الشيوخ كل مرة.

وهذه السنة، جرى التنافس على ٣٧ مقعداً في مجلس الشيوخ، كما تجري انتخابات لاختيار حكام لـ ٣٧ ولاية.

كما يتنافس الحزبان الرئيسيان (الديمقراطي والجمهوري) في هذه الانتخابات على الأغلبية في الكونغرس (الذراع التشريعي للحكومة الأمريكية). وقد دخل الرئيس باراك أوباما سُدَّة الحكم مدعوماً بالأغلبية في كلا المجلسين.

وللحزب الديمقراطي قبل هذه الانتخابات ٥٩ مقعداً في مجلس الشيوخ، وله أغلبية بـ ٣٩ مقعداً في مجلس النواب. ويعود للحزب الذي يملك الأغلبية في المجلسين إقرار الأجندة التشريعية، كما يختار رؤساء اللجان البرلمانية من صفوف الحزب الحائز على الأغلبية.

وفي ما يلي أبرز الرابحين والخاسرين في الانتخابات التشريعية الأمريكية النصفية:

الرابحون:

الحزب الجمهوري: عاد إلى السلطة مجدداً في مجلس النواب بعد عامين على هزيمته في انتخاب الرئاسة التي فاز فيها الرئيس باراك أوباما.

الأمريكيون الأكثر ثراء: يريد الجمهوريون تمديد خفض الضرائب لكل الأمريكيين بما في ذلك الأكثر ثراءً بينهم، وهو إجراء كان يفترض أن ينتهي العمل به في نهاية العام الجاري. ويؤيد باراك أوباما إعادة فرض ضرائب مرتفعة على الأمريكيين الذين تتجاوز دخولهم مئتي ألف دولار سنوياً لخفض الدين العام.

التبادل الحر: يؤيد الجمهوريون المعاهدات والاتفاقيات التي تسمح بتبادلٍ حرٍّ للسلع. ويُفترَض أن يسرِّعوا عملية المصادقة على اتفاقات التبادل الحر مع كوريا الجنوبية وكولومبيا وبنما. في المقابل، يعارض عدد من الديمقراطيين المبادلات بدون حواجز، ويتهمون الصين بممارسات تؤدي إلى فقدان وظائف في الولايات المتحدة.

باراك أوباما: على الرغم من هزيمة حزبه، فإن بعض المحللين يرون أن خسارة الديمقراطيين تؤمِّن له موقعاً أفضل لإعادة انتخابه عام ٢٠١٢م. وسيكون قادراً على استخدام النواب الجمهوريين في الكونغرس قوة دفع له.

الخاسرون:

باراك أوباما: بعد مضيِّ سنتين على انتصار أوباما الكبير، سيتعين عليه التعايش مع الجمهوريين الذين سيعرقلون مشاريعه.

إصلاح النظام الصحي: لا يخفي الجمهوريون نواياهم في القضاء على هذا المشروع الأساسي لرئاسة باراك أوباما. ويعارض الجمهوريون خصوصاً نصاً في القانون يجبر الأمريكيين على الحصول على تغطية صحية.

المهاجرون المقيمون بطريقة غير مشروعة: يبذل كثير من الجمهوريين جهوداً قصوى لتجنب الموافقة على أي إجراء يسمح بتنظيم أوضاع حوالي ١٢ مليون مهاجر يعيشون بطريقة غير مشروعة على الأراضي الأمريكية.

معاهدة ستارت: سيعرقل الجمهوريون في مجلس الشيوخ إقرار هذه المعاهدة لنزع الأسلحة النووية التي وقَّعها أوباما ونظيره الروسي ديمتري مدفيديف.

القانون حول الاحتباس الحراري: يعارض عدد كبير من الجمهوريين مشروع أوباما تمريرَ قانون يهدف إلى خفض انبعاثات الغازات المسببة لارتفاع حرارة الجو.

[بتصرف من مواقع مختلفة: BBC، والجزيرة السعودية، والجزيرة القطرية، وغيرهم]

المسلمون في كولومبيا

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

يبلغ إجمالي عدد السكان في كولومبيا حوالي ٤٤ مليون نسمة، وإجمالي عدد المسلمين حوالي ٨٠ ألف مسلم، وتعتبر النصرانية هي الديانة الأُولَى للدولة؛ وتمثل ٩٠ ٪؛ وهم من الرومان الكاثوليك، وباقي الديانات ١٠ ٪ نسبة المسلمون بينهم ٠,١ ٪.

كما تُعدُّ الإسبانية هي اللغة الرسمية للدولة.

المجموعات العرقية: ٥٨ ٪ أسبان وبرتغاليون، ٢٠ ٪ بيض، ١٤ ٪ ميولاتو (ملون هجين)، ٤ ٪ سود، ٣ ٪ خليط من السود والهنود الحمر الأمريكان، ١ ٪ هنود أمريكا الحمر.

أول مركز إسلامي تأسس كان عام ١٩٩٣م، وقد قام بتأسيسه الدكتور «خوليان أبرتوروزا أباتا» وهو مدير المركز؛ وذلك بعد ٣ سنوات من إسلامه.

المساجد والمؤسسات الإسلامية: هناك عدد كبير من المؤسسات الخيرية والمنظمات الإسلامية والمساجد، مثل: مسجد بلال، ومسجد الجمعية الخيرية الإسلامية في برانكيا، ومسجد ذي النورين عثمان بن عفان، والجمعية الخيرية في بيدوبار، ومسجد مياكو.

المدارس الإسلامية: مدرسة دار الأرقم والمدرسة العربية الكولومبية، ومدرسة مياكو.

ويُذكَر أن تلك البلاد قد وطئتها أقدام المسلمين منذ فترة طويلة خلال رحلات مسلمي قرطبة عبر (المحيط الأطلسي)، التي استفاد منها (كولومبوس) فيما بعد، والتي ذكرها المسعودي في كتابه (مروج الذهب) الذي كُتِب عام ٩٥٦م، وذكر أن الإسلام دخل إلى أمريكا اللاتينية ومنها كولومبيا منذ اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر، مع العبيد الذين جُلبُوا من شمال وشرق إفريقيا، وقد استقر أغلبهم في البرازيل، ثم انتشروا في باقي أنحاء أمريكا الشمالية والجنوبية.

وكانت الأغلبية الساحقة لهؤلاء العبيد من المسلمين، الذين أُرغموا على ترك دينهم تحت التهديد والتعذيب، وذاب كثير منهم في هذه القارة، وتنصر من تنصر تحت الإكراه البدني والنفسي والمعنوي، وبناءً عليه تقهقر الإسلام في هذه القارة.

كما كانت هناك محاولة ثانية للهجرة في القرن السادس عشر، وبعد تحرير العبيد وعودة كثير منهم إلى هذه الديار، بالإضافة للهجرات المكثفة في خمسينيات القرن الماضي من الهند وباكستان ولبنان وسوريا عامة، بينما كان معظم المهاجرين من الشام من مسلمين ونصارى، ولم يكونوا على معرفة باللغة الإسبانية (لغة كولومبيا)، وهو الأمر الذي عانوا منه كثيراً في وسيلة الحوار والتعامل مع الشعب الكولومبي، هذا وقد تمركز أغلبهم في البرازيل والأرجنتين وفنزويلا وكولومبيا، وهكذا كان الوصول الأول للإسلام إلى العالم الجديد مبكراً، كما أثبته كثير من المؤرخين المنصفين.

وتعيش أغلب الجاليات المسلمة في العاصمة بوكوتا ومياكو، وكذلك في مدينة برانكليا، وفي كالي، أما أكبر تجمع للمسلمين في كولومبيا يوجد في مدينة ميكاو، ورغم الحياة البسيطة التي تعيشها هذه المدينة، إلا أن فيها ما يزيد على ٥ آلاف نسمة من السكان العرب ٨٠ ٪ من المسلمين السُّنة و٢٠ ٪ من الشيعة، والباقي من الدروز والمسيحيين العرب، ومعظمهم من لبنان وسوريا، وتبدو حياة هذه المدينة وكأنها قرية عربية.

وعندما نتحدث عن معاناة الجالية المسلمة في كولومبيا لا يمكن أن نُغفِل الحديث عن تجارة المخدرات والكوكائين (التي تعتبر أحد مصادر الدخل الرئيسة لكثير من أبناء كولومبيا، كما أنها من المشكلات المعضلة التي تواجهها الحكومة الكولومبية)، ونذكر بكل حزن وأسى أن هذه التجارة المحرمة شرعاً وعُرفاً قد أغرت كثيراً من المسلمين في كولومبيا، وانغمسوا فيها، وجلبت لهم الويل والدمار لهم ولأبنائهم، وانعكست سلباً على جُلِّ الجاليات الإسلامية؛ وخاصة أن هذه التجارة ترعاها عصابات واسعة القوة والنفوذ، وتملك تنظيمات سياسية وعسكرية، ويتعاون معها مسؤولون كبار في هذا البلد، وكذلك نظراً للفقر والحاجة وضعف الموارد المالية؛ حيث إنه من المعلوم أن كولومبيا تعيش حياة أمنية مضطربة مع شدة الفقر والمشكلات الاقتصادية المعقدة، بالإضافة إلى تخلي الدول الإسلامية والعربية عن المسلمين الكولومبيين.

ومما يؤسَف له أيضاً ما تواجهه الجالية المسلمة في كولومبيا من خطر الذوبان والانقراض، بسبب الإقبال على الزواج من غير المسلمات، في ظل ظروف صعبة يواجهونها، وعداءٍ من بعض الطوائف الدينية المتعصبة.

وعلى الرغم من سيادة النظام الديمقراطي في كولومبيا، وهو الذي مكَّن كثيراً من المسلمين من الوصول إلى أماكن مرموقة في الحكم، إلا أنهم ذابوا في هذا المجتمع، وأصبح عدد كبير منهم نصرانيين لا علاقة لهم بالإسلام.

وفي ظل غياب التعليم الإسلامي، وندرة المساجد والدعاة والكتب الإسلامية، تعرَّض أبناء الجالية للجهل بدينهم وعقيدتهم، وخاصة أن هناك عدداً كبيراً منهم يتبع عادات أمهاتهم النصرانيات؛ من زيارة الكنائس والمشاركة في الاحتفالات الدينية، وهذا هو التحدي المُلقى على المسلمين في كولومبيا ومعظم دول أمريكا اللاتينية.

وللحفاظ على الأقلية الكولومبية المسلمة، يرى الباحثون المعنيون بأحوال الجالية أنه لا بد من دعم مشروعات الدعوة وبرامجها، وتغطية احتياجات الجالية، وكذلك إقامة مشروعات استثمارية تفتح فرص عمل لأبناء الجالية والمسلمين الجدد، وتشارك السلطات المحلية والدولة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتقوم أيضاً بدفع نسبة من الربح للدعوة الإسلامية تنفَق في بناء المساجد والمدارس، وتنظيم المخيمات الشبابية والدورات الشرعية، وطبع الكتب وترجمتها.

كذلك اقترحوا تأسيس مدارس ومعاهد علمية إسلامية، مهمتها تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، والتعريف بالإسلام لغير المسلمين، مع ترجمة الكتب الإسلامية ونشرها باللغة الأسبانية.

وطالبوا بالعمل على إنشاء شبكة اتصالات معلوماتية لنشر الثقافة الإسلامية عبر الإنترنت، مع السعي لإنشاء قناة تلفزيونية إسلامية في أمريكا اللاتينية تكون ناطقة باللغة العربية والأسبانية، أو فتح نافذة إعلامية عن طريق إحدى القنوات في كولومبيا لساعات محددة، يجري من خلالها تقديم الإسلام في صورة صحيحة وبأساليب عصرية مشوقة.

المصادر والمراجع:

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية: http://www.iico.net/fact book

صحيفة بشائر الإسلام الإلكترونية:

http://www.iqraa-tv.net/ar/NewsDetai.

http://www.islamgirls.net/vb/showthread.php?t=2342

مجلة البيان

مفكرة

١٤٣٢هـ ٢٠١١م

جديدنا

مفكرة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

Badr: 0508948947

[قصة قصيرة]

طعم الغربة

بسام شفيق الطعان
bassamtaan@yahoo.com

منذ اللحظة التي حطت فيها قدماه أرض الغربة، وبلدُه يسكن في رأسه صداعاً لا ينتهي، منذ تلك اللحظة، تحوَّل إلى حديقة من الشوق، بينما تجردت حياته من كل طعم ولون إلا طعم المرارة ولون الكآبة.

قبل أن ينتهي اليوم الأول، أشعلت الغربة في أعماقه كلَّ المرايا، أجهش قلبه بالنزف، وخفق بإيقاع حنين؛ فلا الزوجة ولا الأولاد، لا أحد منهم بارَحَه منذ أن ودَّعهم، وظل يشعر بأنه يغيب عنهم كما غاب نجم في السماء تعج بالكواكب؛ ولأنه يسبح دائماً في عالمهم بدا كمن تشرَّد في الأرض يبحث عما يطفئ سعير قلبه.

يرجع مساءً إلى مسكنه، ويطوف في غرفته التي تبدو واسعةً كأنها تحولت إلى صحراء، يطوف مثل الشبح، وشعور بالمرارة يغور في أعماقه، يشي باختناق قريب؛ فكلما جاء الليل – يا لذلك الليل الطويل! – يبدو له ليلاً مطبقاً، ليلاً ممعناً بالكتمان، ليلاً أجرد يشبه ليل الأموات. وكثيراً ما كان يحاول أن يشعل في محيطات الكلام أرخبيلاً، ولكن في كل مرة مركب الكلام يتفكك، فيعوم قبل أن يغرق.

يجلس مسترخياً ورأسه مدَّلى في أبد الصمت.

آهٍ من رأسه... لم يكن غير جمجمة مثقلة بالأسى...

يتناول طعامه دون شهية... يقلب صفحات الجريدة، لكنه هذه المرة تاه بين أعمدتها وعناوينها، ونفذ من بين سطورها إلى عالمه البعيد.

فجأة شعر بشيء من الراحة عندما رنَّ الهاتف وسمع صوت طفله الصغير يشدو لسعادته الهاربة، لأيامه المنكسرة، لصقيع جسده الباحث عن الدفء، لغربته القاتلة... وراح يتيه في لوحة عائلته الصغيرة، التي ابتدعها خياله، فرأى زوجته ترسل إليه نظرة عبر عينيها السوداوين اللتين خيِّل إليه أنهما تُشعَّان حرارة وتحتضن طفليه، تغني لهما، وتربِّت على كتفيهما، ثم رآها تتقدم نحوه وهي تقول بصوت هامس حنون:

(يا أيها الطافح من هناك شوقاً، منذ أن غبت والبيت أصبح فراغاً، والعالم فراغاً، وأصبحت الدنيا خاوية، والفراغ هائلاً، مارداً، والصمت رهيباً كئيباً...

آهٍ كم الحياة قاسية وهي تغرق بركام من الهموم! تعال واغمسني في حبك، ذوبني في نبضات قلبك، خبئني في دفء صدرك، تعال وطهرني من عفن البِعاد المر، تعال لتسمع خفقات قلبي، فقد استولت عليَّ رغبة وحشية قاتلة جعلتني أحترق في جحيم الوحدة والانتظار).

فجأة صارت يداه منديلاً: (خذي قلبي أغصان زيتون يا حبيبة!).

نهض من مكانه وكأنه يريد احتضانها، لكنه اصطدم بحافة السرير، فكاد الإنسان بداخله يحتضر والجسد يستقل رويداً عن ملامح الروح والأفكار.

منذ أن غادرهم وهو يعيش اليومَ بسَنَة، ويأرق من الصباح إلى الصباح، في دمه شوق وفي بعضه وجع؛ فقد أدمن الراحة وعاش معهم كالنحل في قرص العسل... هناك زرع نبتة روحه، وهنا تنام نفسه في كهوف الصمت. هناك كان الحارسَ والمحروس، وهنا الروح كبَّلها الأسى، والقلب فاض به الحنين، وأصبحت حياته حافلة بالظلام وغدا غريباً تائهاً لا يتبين شرقَه من غربِه، ليلَه من نهاره، من لوعة الوحدة والهجران، فلا شيء يفعله عندما يعود إلى مسكنه غير أن يجلس في ربوة السكون، ثم تبدأ الأفكار تحز رأسه بطريقة مؤلمة.

انبثقت شمس يوم جديد، إنه صباح لا يختلف عن غيره من الصباحات البائسة، استيقظ مع انفصال عسير يدب داخل كيانه، كانت نفسه كنهر شق السيلُ مجراه وبعثرته الريح وسط الأودية، ارتدى ثيابه على مهل وهمَّ بالخروج إلى عمله، ولكنَّ معاناته الداخلية طافت على السطح من جديد، فعاد مرة أخرى إلى السرير، وبتفكير لم يَدُم أكثر من دقائق، ثم جمع أغراضه المبعثرة وهو يهمس:

لأنني تذوقت طعم الغربة، وأصبحت سيد الحزن والصمت، سأشد أشرعة الحنين وأشق البحر وأعود؛ فالقلب صار صفواً من الإصغاء للتوتر الحزين، ولم يبقَ من جمر الإرادة غير رماده، سأعود فهذا العمر دونكم غابات ثلج، وطقوس شتاء، إن انتمائي لن يكون إلا لكم ولآفاق سعادتكم، ولو خُيِّرت أن أملك العالم دونكم فلن أرضى، سأعود إليكم وسأغمركم بنور الاشتياق قبل أن يضمحل رأسي ويغرق قلبي في غابة العثرات مرتقباً جنون الصمت.

مركز سطام للعسل

ثقة العميل هي رأس مالنا منذ سنوات

تختلف فوائد العسل حسب فوائد النباتات المحيطة بالنحل..

استفد من هذه الخاصية وابدأ باستعادة النظام الطبيعي لجسمك إلى سابق عهده

١- **عسل الربو:** يقوي مناعة الصدر ضد الحساسية والسعال والبلغم وضيق التنفس.

٢- **عسل القولون العصبي:** يفيد في المشاكل الباطنية والغازات والإمساك والأرق والعصبية وعسر الهضم.

٣- **عسل الصداع:** يفيد في علاج الصداع المزمن والشقيقة.

٤- **عسل المعدة:** للقرحة والحموضة وجرثومة المعدة وسوء الهضم.

٥- **عسل البروستاتا:** لالتهاب البروستاتا وأعراضه كمشاكل البول وضعف الحيوانات المنوية وألم أسفل الظهر والضعف الجنسي.

٦- **عسل الكبد:** يساعد في تنظيم أنزيمات الكبد ويقوي مناعة الكبد ضد الفيروسات.

٧- **عسل الجيوب الأنفية:** لالتهاب الجيوب الأنفية والرشح المزمن.

٨- **عسل التسمين:** لفتح الشهية وزيادة الوزن.

٩- **عسل الروماتيزم وآلام المفاصل والركب.**

١٠- **عسل لتنشيط الذاكرة.**

١١- **عسل الزلوع الخاص بكبار السن.**

جميع أنواع العسل في هذا الإعلان مضمونة مخبرياً وخالية من الخلطات المجهولة.

ملاحظة: ليس لدينا موزعون ومنتجاتنا متوفرة في مركزنا

الرياض - مخرج ١٥ - هاتف: ٤٩٣١٧٣٧

جوال: ٠٥٠٦٢٤٥٩٨٤

إمكانية الإرسال لمناطق المملكة - رقم الحساب بمصرف الراجحي: ٤٤٩٦٠٨٠١٠٠٦٧٦٨٣

Samer 055 34 99660

الترتيبات الأمنية للكيان الصهيوني في إطار الحل الدائم

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

مقدمة:

يشير السجل التفاوضي للكيان الصهيوني مع الفلسطينيين، إلى احتلال المطالب الأمنية الحيوية مَنزِلَة أساسية منذ أن وقَّعت منظمة التحرير على إعلان المبادئ في اتفاق أوسلو سنة ١٩٩٣م؛ حيث هيمنت فكرة «الدبلوماسية المعتمدة على الأمن» على التفكير السياسي الصهيوني.

وقد شكَّل البيان الذي ألقاه رئيس الوزراء الصهيوني «بنيامين نتنياهو» في جامعة بار إيلان يوم ١٤ حزيران ٢٠٠٩م تأكيداً راسخاً على هذه الفكرة الصهيونية المعتمدة على الأمن، حين أصرَّ على وجوب أن يحكم مبدأُ التبادلية العلاقات بين الطرفين؛ أي: الاعتراف بالكيان دولة قومية للشعب اليهودي، مقابل: نزع سلاح الدولة الفلسطينية المستقبلية، واحترام حاجات الصهاينة الأمنية الحساسة.

ولا يمثل إصرار «نتنياهو» على دولة فلسطينية منزوعة السلاح، وحدود يمكن الدفاع عنها، إستراتيجية جديدة؛ لأن رئيس الوزراء الأسبق «إسحاق رابين» قال للكنيست في ٥ تشرين الأول ١٩٩٥م: «ستكون حدود دولة «إسرائيل» بموجب الحلِّ الدائم خارج الخطوط التي كانت قائمة قبل حرب الأيام الستة، ولن نعود إلى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧م»، بعبارة أخرى، قال رابين لقيادة جيش الاحتلال: إن دولة الكيان ستكون بحاجة للاحتفاظ بنحو من ٥٠ ٪ من أراضي الضفة الغربية في أي تسوية مستقبلية.

معايير ميدانية:

وتبدي محافل مقربة من دوائر صنع القرار الصهيوني أنه إذا قُدِّر للضفة الغربية أن تقع في أيدي جهات معادية للكيان، كحركة حماس - مثلاً - فسينتج عن ذلك وضع يشكل خطراً دائماً على البنية التحتية الوطنية الصهيونية، كمطار بن غوريون، والطريق السريعة، وشبكة المياه الوطنية، وشبكة الكهرباء القطرية.

ولذلك تبدي تل أبيب إصرارها على حضور دائم على امتداد المحيط الشرقي للضفة الغربية في وادي الأردن لمنع تهريب الأسلحة وتسلل القوات المعادية. ولا ريب في أن أحد أهم الشروط المسبقة لإستراتيجية ناجحة لمكافحة قوى المقاومة، هو القيام بعزل منطقة الصراع للحيلولة دون تعزيزها بالرجال والعتاد.

ومما زاد في رفع منسوب البعد الأمني في إطار الحل الدائم لدى المفاوض الصهيوني، ظاهرة انتشار المقذوفات والصواريخ التي لديها القدرة على النَّيل من العمق المناطقي والإستراتيجي بالنسبة للكيان؛ ذلك أن جيشه النظامي الصغير قد يضطر لخوض معارك لفترات طويلة دون تلقِّي تعزيزات من قوات الاحتياط، التي قد تتأخر أو تُمنع من الوصول في الوقت المناسب بسبب نيران الصواريخ.

(*) كاتب فلسطيني.

الدولة منزعة بالسلاح:

تسود قناعة في الأوساط الأمنية والسياسية في تل أبيب أن من الأمور التي يساء فهمها على نطاق واسع، ما يسمى بـ «مقدار الضعف» الذي تعاني منه دولة الكيان؛ ذلك أن نحواً من ٧٠ ٪ من سكانها، و٨٠ ٪ من قدرتها الصناعية محصورة في شريط ساحلي ضيِّق بين البحر المتوسط والضفة الغربية.

ومن الناحية الطبوغرافية، تهيمن تلال الضفة الغربية على السهل المسطَّح والمكشوف نسبياً، وهو ما يوفر ميزة فريدة للقوى المهاجمة، تسمح لها بالمراقبة وإطلاق النار والتصدي لردٍّ بري صهيوني؛ ولذلك، لا تبدو مستعدة للتنازل عمَّا حققته من سيطرة شبه مطلقة في الضفة الغربية، تتيح للجيش الوصول إلى أي مكان تُصنَّع الأسلحة المحظورة أو تُخبَّأ فيه، والحيلولة دون تمكُّن المسلحين من صنع الصواريخ، وإطلاقها على القدس وتل أبيب، كما مكَّنته من اعتراض منفذي العمليات الانتحارية قبل تمكُّنهم من تنفيذها.

في سياق آخر ذي صلة، تُصرُّ تل أبيب على أن سيطرتها على المجال الجوي فوق الضفة الغربية عنصر لازم لمنع وقوع هجمات معادية، بحجة أن المسافة الفاصلة بين نهر الأردن والبحر المتوسط ٧٥ كم؛ لذلك يمكن – وَفْقَ الخيال الصهيوني – أن تجتاز طائرة حربية عرض الكيان في أقل من أربع دقائق، ويمكن لطائرةٍ اختراقُ سمائها بالتحليق فوق نهر الأردن، والوصول إلى أجواء القدس في أقل من دقيقتين.

كما تعاني دولة الكيان مما توصف بأنها «عيوب أمنية طبوغرافية» هامة؛ لأن كافة ممرات طيرانها المدني الدولي يمكن أن تكون عرضة لهجوم محتمل تنفِّذه عناصر معادية تستخدم صواريخ مضادة للطائرات تُحمَل على الكتف، وتُطلَق من إحدى التلال في الضفة الغربية على الطائرات أثناء أقلاعها أو هبوطها في مطار بن غوريون.

بينما يتمتع الكيان الفلسطيني القادم الواقع على التلال الجبلية الوسطى بميزة طبوغرافية مقارنة بأراضي فلسطين المحتلة الساحلية بدرجة كبيرة؛ حيث يمكن لمحطة إرسال فلسطينية صغيرة على جبل عيبال بالقرب من نابلس التشويش على نظام الاتصالات بأكمله من الناحية الفعلية، وهي تبثُّ باستخدام الترددات نفسها في المناطق الإسرائيلية.

الحدود الآمنة:

من الأهمية أن يشار – وَفْقَ دوائر صنع القرار الصهيوني – إلى أنَّ أمن الكيان يجب أن يرتكز على حدود دفاعية؛ بمعنى استمرار السيطرة على المناطق الرئيسة في الضفة الغربية، وأن تبقى القدس موحَّدة غير مجزأة؛ لأن تقسيمها سيؤدي إلى هجوم من القناصة وقصفٍ بالهاون والقذائف الصاروخية عليها من المناطق المسيطَر عليها من حولها.

ولذلك، فإن إستراتيجيتها في الحفاظ على الحدود الآمنة تستهدف بالدرجة الأُولَى منع وقوع أحداث أمنية تهدد استقرارها، وفي حالة حدوثها فعلاً، فإنها توفر إمكانية الرد الصهيوني بشكل سريع على التهديد، والحدود الدفاعية قد تمنع وقوع عدَّة تهديدات متميزة.

وهنا تبدو سيطرة تل أبيب على غور الأردن أمراً حيوياً؛ لأنه في ظل غياب هذه السيطرة، فإن الوضع سيشهد على طول الحدود مع الأردن تدهوراً كالوضع السائد الآن على حدود غزة ومصر؛ أي تهريب الأسلحة والمقاتلين وأشكال أخرى.

تقويض الاستقرار:

تبدي محافل سياسية صهيونية قناعتها بأنَّ الحدود الآمنة تقلِّص من محاولة أطراف إسلامية تقويض الاستقرار في الأردن، أو استغلال أراضيه كقاعدة للانطلاق لشن هجمات وعمليات عسكرية ضد الكيان الصهيوني عن طريق الأراضي الفلسطينية؛ لأن اتفاق السلام مع الأردن يشكل حجر الأساس في أمن الكيان؛ لذا فإن الحفاظ على هذه الحدود مهم جداً بالنسبة لها.

ولهذا، ترى تل أبيب أنه من أجل أمنها، يبقى الوجود العسكري الصهيوني على الحدود مع الأردن أمراً غير قابل للنقاش؛ ولهذا، فإن دولة فلسطينية غير منزوعة السلاح ستشكل دعوة مفتوحة للمنظمات المسلحة للتدخل والهجوم، بالإضافة للسيطرة على الأراضي من أجل إقامة مخازن للأسلحة المتطورة وتوجيهها ضد الكيان. علماً بأنَّ إقامة كيان فلسطيني منزوع السلاح لا يعني تخلِّي دولة الاحتلال بشكل كامل عن سيطرتها الأمنية، في ضوء تأكيد نتنياهو على المطالبة بسيطرة دائمة على معابر الحدود، خصوصاً في الجانب الشرقي لأي دولة فلسطينية مستقبلية، وضمان حق جيشه في الدخول إلى الكيان الفلسطيني عند الحاجة.

التمويل الغربي
بين الجاسوسية والتغريب

الهيثم زعفان

تنتشر المراكز البحثية والفكرية في ربوع العالم العربي، ومنذ نشأتها وهناك متلازمة أصلية تصاحبها وتسبب لها كثيراً من المشكلات وأزمات الثقة؛ سواء على مستوى الحكومات أو على مستوى الشعوب، وهذه المتلازمة تتمثل في التمويل الغربي الذي تتلقاه بعض هذه المراكز مقابل تبنِّي أجندة معيَّنة أو القيام بدراسات بحثية ومقالات فكرية تخدم الهدف العام للممـوِّل الغربي، وتُحدِث نوعاً من التوجيه الفكري لأطياف المجتمع بما يخدم الأفكار الغربية.

هذا فضلاً عن الأثر الكبير للتمويل الغربي في تحقيق الأهداف الاستخباراتية والمعلوماتية للدول الغربية، من خلال صناعة ثغرات تمكنها من الحضور داخل المجتمعات الإسلامية، وإجراء دراسات تعينها على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول تلك المجتمعات، إضافة إلى الاستعانة بالباحثين المحليين من خلال التمويل الغربي لقراءة وتحليل المعلومات المجمَّعة أو الظاهرة محل النظر، ومن ثَمَّ تتكون لدى الكيان الغربي معلومات ميدانية موثَّقة جمعها أهل البلاد الإسلامية بأيديهم، وهي مصحوبة بقراءة تحليلية ثاقبة من أبناء تلك البلدان أيضاً، وهؤلاء يدركون جيداً كيف يفكر المواطن العربي، وكل هذا يخدم في النهاية المراكز الفكرية الغربية ووكالات الاستخبارات الغربية في فهم الواقع العربي والإسلامي عن قرب، ومن ثَمَّ رفع التوصيات الدقيقة التي في ضوئها يتخذ صانع القرار الغربي قراراته السيادية، التي تأتي في النهاية في غير صالح العالم الإسلامي، وما احتلال العراق عنا ببعيد.

إن ظاهـــرة التمويل الغربي للمراكـــز البحثية في العالم العربي ترتبط بها كثير من الإشـــكاليات البحثية؛ سواء على مســـتوى أهداف التمويل ومبررات المانحين، وكذلك نوعيات مؤسســـات التمويل الدولية، وحجم حركة التمويل الغربي في العالم العربي، وطبيعـــة جهات التمويل الغربية، وكذلك أيضاً اهتمامـــات وأجندات التمويل الغربي فـــي بعض بلدان العالم العربي، ودور التمويل الغربي في صناعة ما يُعرَف بـ (الإسلام المعتدل) وَفْقَ الرؤية الأمريكية للاعتدال في العالم العربي، مع محاولته اختراق بعض الدول العربية الغنية الرافضة للتمويل الغربي مثل المملكة العربية السعودية[1].

وبدورنا ســـنحاول من خلال هذا المقال المختصر الإطلال على ظاهـــرة التمويل الغربي، وما يصاحبها من إشـــكاليات ومخاطر على الهوية الإســـلامية، وأمـــن المجتمعات العربية والإسلامية وسلامتها.

لكن ينبغي ابتداءً التفريق في عملية تلقِّي التمويل الغربي بين ثلاثة أصناف من الباحثين العرب:

الأول: باحث حَسَـــن النية لا يدرك أنه يعمل في مشروع بحثيٍّ مموَّل من الغرب؛ ومـــن ثَمَّ فهو يحصل على الأجر من الإدارة المحليـــة للمشـــروع البحثي دون اســـتفهام عن الممول الحقيقي للمشروع، وهذا الصنف منهم من يتراجع عن التعاون في المشروعات البحثية فور علمه بالممول الحقيقي، وأحياناً يرد ما حصل عليه من أموال غربية حتى لا يكون في ســـجله وتاريخه أنه حصل على أموالاً غربية تحوم حولها الشبهات، ومنهم من لا يتراجع ويتمادى في التعاون المثمر مع مؤسسات التمويل الدولية.

الثانـــي: وباحث يـــدرك طبيعة الجهة المموِّلة للمشـــروع البحثـــي لكنه يرى بحدود فهمه ومعلوماته أنه لا يفعل شـــيئاً مريباً حينما يتلقى تمويلاً غربياً لإتمام مشـــروع بحثيٍّ معيَّن، ومـــن ثَمَّ فهـــو لا يحاول التحري كثيراً حـــول طبيعة الجهات المموِّلة، فالأمر بالنســـبة له مجرد مصدر دخل مفتوح لا يريد أن يغلقه

الثالث: وباحث يدرك جيداً الأهداف الحقيقية لمؤسسات التمويل الدولية ولا يتردد في قبول أي مشـــروعٍ بحثيٍّ مموَّل مهما كان مضراً بمصالح المجتمع.

(١) تجدر الإشارة إلى أن هناك كتاب تحت الطبع بعنوان التمويل الغربي وشراء الفكر في العالم العربي، للباحث الهيثم زعفان، يتولى نشره المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

أولاً: مفهوم التمويل الغربي وأهدافه:

يُقصَـــد بالتمويل الغربي: (كافـــة المِنَح الآتية من الدول الغربية ومن مؤسســـات التمويل الغربية إلى المراكز البحثية والفكرية في العالم العربي؛ ســـواء كانت تلك المراكز مستقلة أو محسوبة على أحد قِطاعات الدولة، وكذلك الدعم الغربي للأفراد والباحثين لخدمة أغراض وأهداف المانح).

وبعـــد مراجعة الأدبيـــات والوثائق الدوليـــة فإنه يمكننا تحديد أهم أهداف التمويل الغربي في الآتي:

١ جَمْـع أكبـر قـدر مـن المعلومات عـن البلـد المتلقي للتمويل الغربي:

يُعـــدُّ جمع المعلومات الأســـاسَ الذي تُبنَـــى عليه أجهزة المخابـــرات في كافة أنحاء العالـــم، وفي ضوء تلك المعلومات يجري اتخـــاذ القرارات السياســـية والعســـكرية، والدخول للبلد المســـتهدَف من خلال التمويل الغربي، وَوَفْقَ مشروعات يحددها المانح يُعمَل على تحقيق هذا الهدف الإســـتراتيجي، بقصـــد أو بغير قصد من المتلقـــي للتمويل الغربي، وفي ذلك يقول (ســـتانفيلد تيرنر) مدير وكالـــة المخابرات المركزية في عهد الرئيس كارتر: (إن الحصول على المعلومات بالنسبة لبلد مثل أمريكا مهم للغاية؛ فالولايات المتحدة دولة ذات نشـــاط عالمـــي؛ ولذا فهي تحاول الحضور في كل بقعة من العالم)[2]. وهذا بدوره يفســـر الاهتمام غير العادي من الجهات المانحة في إجراء أكبر كمٍّ من الأبحاث الميدانية في المجتمعات العربية بكافة طبقاتها، والإنفاق السخي على تلك الأبحاث التي يلمس

(٢) منصف السليمي: صناعة القرار السياسي الأمريكي، مركز الدراسات العربي – الأوروبي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٧٣.

المطلع عليها خطرها على الأمن القومي للدول العربية، فضلاً عن مخالفتها لكافة الأعراف العلمية والقانونية المرتبطة بجمع البيانات وإجراء الأبحاث. وتفسير هذا الحضور يثير دهشة محمد حسنين هيكل فيقول: (أنا غير راضٍ أساساً على التمويل الخارجي للأبحاث؛ فالمثَل الإنجليزي يقول: الرجل الذي يدفع للزمَّار هو الذي يقرر النغمة التي يعزفها الزمَّار)، ويضيف هيكل: (عندما لا يكون لنا رأي في توجيه هذا التمويل للأبحاث، ولا نعلم لمن تقدَّم نتائج هذه الأبحاث، وفي غياب مفهوم شامل يعطيني كل الصورة، وبدون رقابة أو توجيه، يدخل التمويل للسيطرة على عقل المجتمع ووجدانه، فعندما يكون أحد الأبحاث يموَّل من (السي آي إيه) أو المركز الأكاديمي الإسرائيلي، فهل يُعقَل أن يكون ذلك طبيعياً؟ وهل يمكن أن نفصل بين موضوع البحث ومن سيستفيد منه؟ فعندما نجد أن ١٠٠ مليون دولار من المعونة الأمريكية مرصودة للأبحاث، فلا بد أن أسأل: ما هو المطلوب؟)[١].

وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال تقول سناء المصري: (هذه الإعانات ظاهرها المساعدة الإنسانية، ولكن في حقيقة الأمر فإن المؤسسات التمويلية استخدمت هذه المساعدة لدعم بحوث ودراسات تقدَّم عن المجتمعات التي يُراد اختراقها؛ حيث تنتهي كلها إلى مكاتب المخابرات الأمريكية)[٢].

٢ قراءة وتحليل المعلومات من قِبَل باحثين ومفكرين محليين:

يمتد الأمر أحياناً إلى استقدام خبراء محليين إلى الدولة المانحة ليقوموا بتقديم تحليلات وتفسيرات للمعلومات التي تم جمعُها، فضلاً عن تقديم تقارير مباشرة عن الأوضاع الداخلية للبلاد، وتقديم قراءات وتحليلات لتلك الأوضاع، والإجابة عن الإشكالات التي يستعصي على المانح فهمها حول المجتمعات العربية والظواهر المرتبطة بها. والمانح في كل ذلك يشتري بالدولارات القليلة التي يدفعها تفسيرَ المعلومة الغامضة بلسان قومها، وبالخلفية المرجعية للخبراء التي تتقاطع مع الخلفيات المرجعية للمبحوثين. ومن ثَمَّ يكون فهم المعلومة بالطريقة التي يفكر بها أصحابها. ولعل ما قدَّمه (منصف السليمي) يوضح تلك الجزئية؛ وذلك عندما أشار إلى أن (المؤسسات السياسية تتوخى أسلوب دعوة الخبراء

(١) محمد حسنين هيكل: في حديثه لجريدة السفير اللبنانية: ١٧/١/١٩٩٧م.
(٢) سناء المصري: تمويل وتطبيع... قصة الجمعيات غير الحكومية، سينا للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٦٦.

والأساتذة الجامعيين لتقديم تقارير وآراء بشأن المشاكل والقضايا المطروحة قبل اتخاذ القرارات، وخلال السنوات العشر الأخيرة ركزت أجهزة (وزارة الدفاع الأمريكية، ووزارة الخارجية الأمريكية، ووكالة المخابرات الأمريكية CIA، ولجنة الشؤون الخارجية الخاصة بأوروبا والشرق الأوسط بالكونجرس الأمريكي) على تكليف مئات الباحثين لإنجاز دراسات وأبحاث حول إحدى الظواهر الدينية في منطقة الشرق الأوسط، تلك المتعلقة بالإسلام السياسي. ويشكل الأكاديميون العرب المقيمون بالولايات المتحدة وقادة الأبحاث والدراسات في الجامعات العربية مجالاً أساسياً للتوظيف والتعاون في هذا الموضوع، نظراً لارتباطهم الاجتماعي والثقافي والحضاري بمثل هذه الظواهر)[٣].

٣ محاولة إحداث التوازن قبالة التيارات الدينية في العالم العربي:

وفي هذا الصدد يوصي تقرير مؤسسة راند[٤] الأمريكية الذي حمل عنوان (الإسلام المدني الديمقراطي) بأهمية (دعم التقليديين ضد الأصوليين الإسلاميين؛ وذلك لنُظهِر لجموع المسلمين وإلى الشباب والنساء من المسلمين في الغرب ما يلي عن الأصوليين الإسلاميين:

- دحض نظريتهم عن الإسلام وعن تفوقه وقدرته.
- إظهار علاقات واتصالات مشبوهة وغير قانونية لهم.
- إظهار هشاشة قدرتهم في الحكم وتخلُّفهم.

(٣) منصف السليمي: صناعة القرار السياسي الأمريكي، مركز الدراسات العربي – الأوروبي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٧٤.
(٤) مؤسسة راند: مؤسسة شديدة الاقتراب من دوائر صنع القرار الأمريكي.

- تغذية عوامل الفرقة بينهم.

- دفع الصحفيين للبحث عن جميع المعلومات والوسائل التي تشوه سمعتهم، وتبين فسادهم ونفاقهم وسوء أدبهم وقلة إيمانهم.

- تجنب إظهار أي بادرة احترام لهم ولأعمالهم، أو إظهارهم كأبطال، وإنما كجبناء ومخبولين وقَتَلَة ومجرمين كي لا يجتذبوا أحداً للتعاطف معهم)[1].

ثانياً: مؤسسات التمويل الدولية:

هناك عدد كبير من مؤسسات التمويل الدولية التي تمول مشروعات وفعاليات بحثية في العالم العربي، ومن أهم هذه المؤسسات:

١ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي:

برنامج الأمم المتحدة الإنمائيUnited Nations Development Programme) واختصاراً (UNDP) وهي شبكة تطوير عالمية تابعة للأمم المتحدة، تعمل في ١٦٦ دولة، وتقدم دعماً مالياً للمنظمات المدنية، والمراكز البحثية في العالم العربي، وهذا البرنامج له نشاط ملحوظ في دعم المشروعات التي تخدم الأجندة الغربية مثل قضايا المرأة، ومراجعة المناهج التعليمية والدينية، لكنَّ ما لفت نظرنا عند تحليلنا لمشروعات هذا البرنامج - خاصةً البحثية والفكرية - هو تركيزها على دراسات استكشافية للقوات المسلحة، وأجهزة المخابرات في العالم العربي. وهذا يكشف خطورة الدور الذي تلعبه برامج الأمم المتحدة في المنطقة العربية والإسلامية تحت ستار الأعمال البيضاء.

٢ مؤسسة فورد الأمريكية:

تعد مؤسسة فورد الأمريكية من أنشط المؤسسات التمويلية الدولية التي تدعم الباحثين والمراكز البحثية والفكرية في العالم العربي. والمحلل للمشروعات البحثية التي تدعمها مؤسسة فورد الأمريكية في المنطقة العربية يلمس بقوة تلك الطبيعة الاستخباراتية للأبحاث، ويلمس أيضاً دورها الإستراتيجي في الحرب الغربية الجديدة على الإسلام، تلك التي يخوضها الأمريكان تضليلاً تحت مسمى الحرب على الإرهاب.

وفي ١٤ أبريل ٢٠٠٧م نشرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على موقعها الإلكتروني وثيقة تاريخية استعرضت من خلالها كتاب (الحرب الباردة الثقافية: المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب) الصادر في نيويورك عام ٢٠٠٠م، ذلك الكتاب الذي وثَّق العلاقة بين المخابرات الأمريكية ومؤسسة فورد وبعض المؤسسات الأخرى، ووضح بالشواهد العملية والمقابلات الشخصية مع ضباط المخابرات كيف تتخذ المخابرات الأمريكية مؤسسات التمويل كغطاء لأنشطتها السرية، وقد أشادت وثيقة المخابرات بهذا الكتاب التوثيقي الهام[2].

وفي دراسة بعنوان (مؤسسة فورد ووكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية) للأكاديمي الأمريكي (James Petras) أستاذ الاجتماع بجامعة (Binghampton) بنيويورك، جاء في هذه الدراسة الهامة[3]: (وكالة الاستخبارات المركزية تستخدم المؤسسات الخيرية باعتبارها قناة فعالة أكثر لتوجيه مبالغ كبيرة من المال لمشروعات الوكالة دون تنبيه المتلقين إلى مصدرها، وقد سمحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لتلك المؤسسات أن تقوم بتمويل مجموعات من الشباب، والنقابات العمالية والجامعات ودور النشر وغيرها من المؤسسات الخاصة بما يخدم برامج العمل السري لوكالة المخابرات، وتُعَدُّ مؤسسة فورد واحدة من أهم وأكثر المؤسسات التي لعبت دوراً كبيراً في التعاون مع وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية).

ويضيف (James Petras): (ومن خلال التعاون الوثيق المستمر بين المخابرات الأمريكية ومؤسسة فورد، يجري تأمين العديد من فرص العمل لعملاء المخابرات المركزية داخل مؤسسة فورد؛ فمن القواعد الهيكلية الأصلية أن هناك علاقة وثيقة وتبادلاً للموظفين على أعلى المستويات بين وكالة المخابرات المركزية ومؤسسة فورد، وكان من ثمرة هذا التعاون الهيكلي هو نجاح عملاء المخابرات في الوصول لوسائل الإعلام، وموجِّهات الفكر تحت الغطاء القانوني لمؤسسة فورد).

---

(١) شاريل بينارد: الإسلام الديمقراطي المدني (الشركاء والمصادر والإستراتيجيات)، تقرير مؤسسة راند الأمريكية(مؤسسة راند RAND (قسم أبحاث الأمن القومي- الولايات المتحدة الأمريكية - أُعد التقرير بدعم ورعاية مؤسسة سميث ريتشاردسون - الولايات المتحدة، تاريخ إصدار الدراسة: ١٨ / ٣ / ٢٠٠٤م)، ترجمة موقع إسلام ديلي.

(2) Thomas M. Troy, Jr., served in CIA>s Directorate of Intelligence; CIA, Apr 14, 2007.

(3) James Petras: The Ford Foundation and the CIA; A documented case of philanthropic collaboration with the Secret Police, 15 December 2001.

كمـــا يقول (James Petras) أيضاً: (في الفترة الحالية تطرح واشنطن الموضوع على أنه (الإرهاب أو الديمقراطية)، تمامـــاً كمـــا كان الأمر خلال الحـــرب الباردة، (الشـــيوعية أو الديمقراطيـــة) وفي كلتـــا الحالتين تقـــوم الإمبراطورية الأمريكية بتجنيد وتمويل منظمات واجهة لها، تضم: مثقفين وصحافيين، ومؤسسة فورد إحدى المؤسسات التي تتعاون مع الحكومة وتقوم بدورها في تشكيل الغطاء الثقافي في الحرب الباردة الجديدة).

٣ مؤسسة روكفلر الأمريكية:

مؤسســـة روكفلر (Rockefeller Foundation) هي منظمـــة (خيرية) يقع مقرها في مدينـــة نيويورك الأمريكية، وقد تأسست على يد رجل الأعمال الأمريكي جون د. روكفلر في ١٤ مايو ١٩١٣م.

وهذه المؤسســـة لها نشـــاطات بحثية متعددة في المنطقة العربية؛ حيث تقوم بدعم الباحثين والمراكز الفكرية والبحثية العربية، وهذه المؤسســـة لا تختلف عن نظيرتها مؤسسة فورد من حيـــث علاقتُها بالمخابـــرات الأمريكية وقـــد وثَّقت هذه العلاقة الكاتبة البريطانية (فرانســـيس ستونر سوندرز) في كتابها (الحرب البـــاردة الثقافية: المخابرات الأميركية وعالم الفنون والآداب)[1].

٤ مركز جنيف للرقابة على القوات المسلحة:

وهـــو مركز بحثيٌّ دولي له مشـــروعات بحثية مشـــتركة في العالم العربي، شـــديدة الحساسية والخطورة على الأمن القومي العربي، وهو: إما يقـــوم بتمويل تلك الأبحاث بصورة مباشـــرة، أو بصورة غير مباشـــرة عن طريق دعم المؤسسات الدولية للمشـــروعات البحثية في المنطقـــة العربية لصالحه وتأتي على رأس هذه المؤسســـات الدولية الأممية، موسســـة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP.

ثالثاً: جغرافية التمويل الغربي وشفافيته:

التمويـــل الغربي في العالم العربـــي لا يقتصر على دولة بعينهـــا، بل إنه يمتد ليغطي كافة الـــدول العربية، وفي كافة الأنشطة، وبعد مراجعة التقارير السنوية والنشرات التعريفية والمواقع الإلكترونية لبعض المراكز البحثية في العالم العربي، يمكننـــا تحديد ووصـــف المراكز البحثيـــة والمنظمات المدنية العربية المموَّلة غربياً، ومن أنشـــطتها الأبحاث والدراســـات والأنشـــطة الثقافية والفكرية: كالنـــدوات والمؤتمرات وورَش العمل التي تستقطب فيها الكتَّاب والأدباء والمفكرين والخبراء العرب في كافة القطاعات الحيوية.

أما عن الشـــفافية فإن غياب الشفافية وتبادل الاتهامات بالفســـاد في تحركات التمويل الغربي فإنه متبادل بين المانح والمتلقـــي؛ فبالإضافة إلـــى العمولات والرواتـــب والمكافآت والاعتمادات المبالَغ فيها، وهي لا تتناســـب مع حجم المجهود والمردود، فإن الأدبيات والدراســـات تكشـــف عن أن التمويل الغربي قد نجح في صناعة سوق جديدة للفساد على مستوى المانح والمتلقي، وأطراف هذا الســـوق يحرصون على ديمومته بمزيـــد من الاعتمادات والمشـــروعات، وفي ضوء ذلك يجري إبعاد جميع الكفاءات الفنية الوطنية التي تبدي أيَّة اعتراضات على انعقاد هذا الســـوق، لما يرونه من أضرار مباشـــرة تلحق بالشعوب في غيبة منها.

رابعاً: التوجه الغربي لشراء الفكر في العالم العربي:

بتحليلنا لمحتوى المشروعات البحثية المموَّلة غربياً والمنفَّذة من قِبَل مراكز بحثية وباحثين ومفكرين في العالم العربي وفي غيره يمكننا تحديد أبرز التوجهات الغربية لشـــراء الفكر في العالم العربي، وذلك بالصور التالية:

١ - قضايا الأمن القومي وجَمْع المعلومات الإستراتيجية:

يلمس المحلل للمشـــروعات البحثية المموَّلة غربياً تركيز

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٩٩م بعنوان: «من الذي دفع للزمَّار»، ثم صدرت طبعة أميركية بعنوان: «الحرب الثقافية الباردة» عام ٢٠٠٠م، ثم قامت جمهورية مصر العربية بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية من خلال المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة في عام ٢٠٠٢م.

المشـــروعات على فئات خاصة في مؤسســـات الدولة، يشكل الوصول إليها بصورة مباشـــرة صعوبة شديدة؛ فهناك جملة من المشـــروعات المرتبطة بالأمن القومي والقوات المســـلحة، والشـــرطة، ورجال القضاء، فضلاً عن المشـــروعات الميدانية التي تعتمد على جَمْع أكبر قَدْر من المعلومات الإحصائية عن المجتمعات العربية من خلال اســـتمارات استقصائية تتضمن تساؤلات تمثل إشكاليات يصعب على صناع القرار في أوروبا وأمريكا استيعاب تفســـيراتها بدون الحصول على معلومات بصددها من أرض الواقع، وســـيندهش القـــارئ عندما يعلم أن هناك عدداً من المشـــروعات البحثية شـــديدة الحساسية والمتعلقة بآليات صناعة سياســـات الأمـــن القومي في العالم العربي، والتسليح وشراء الأسلحة وآليات الرقابة على عمليات التســـليح وعلى ميزانيـــات وعمل القوات المســـلحة بالدول العربية، فضلاً عن جملة من الدراســـات الموسَّـــعة عن رجال القضاء والنيابات والبرلمانيين ورجال الشرطة.

فعلى سبيل المثال دعم برنامج الأمم المتحدة UNDP في بيروت في الفترة من (١٢/٥/٢٠٠٦م - ١٤/٥/٢٠٠٦م) ورشة عمل بحثية حول إدارة قطاع الأمن والقوات المسلحة والرقابـــة البرلمانيـــة عليه فـــي المنطقـــة العربية، وذلك بالشـــراكة مع (مركز جنيف للرقابـــة الديمقراطية على القوات المســـلحة DCAF)، وقد حضر ورشة العمل ٥٠ مشـــاركاً؛ حيث قاموا باستعراض ومناقشـــة الممارسات الدولية والإقليمية الســـائدة في مجال إدارة قطاع الأمن والقوات المسلحة في كلٍّ من (الجزائر، والأردن، والكويت، ولبنان، والمغرب، وفلسطين).

وكانت المحاور الرئيســـة لهذه الورشة التي اشتركت فيها مراكز بحثية مؤثرة في العالم العربي، وهي: (إدارة قطاع الأمن والرقابة البرلمانيـــة: اللجان، الموازنة، وعمليات شـــراء المعدات الحربية - تحديات المنطقة العربية فـــي قطاع الأمن - آليات رقابة وتوجيـــه القوات المســـلحة في المنطقة العربية - آليات ضمان الشـــفافية في موازنة القوات المســـلحة - آليات شراء الأسلحة في المنطقة العربية)[1].

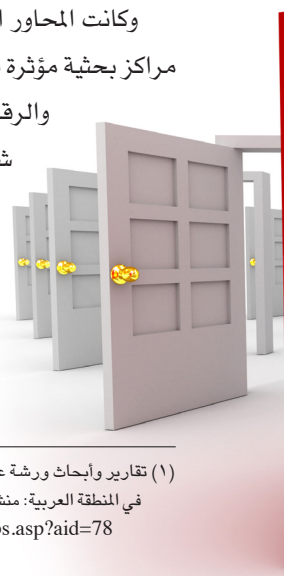

(١) تقارير وأبحاث ورشة عمل إدارة قطاع الأمن والقوات المسلحة والرقابة البرلمانية عليه في المنطقة العربية: منشورات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الأمم المتحدة، ٢٠٠٦م.
http://www.pogar.org/arabic/activities/actpubs.asp?aid=78

٢ - محاولات الاقتراب من دوائر صنع القرار والسياسات:

يلاحَظ على المشـــروعات المموَّلة غربيـــاً محاولة اقتراب مؤسسات التمويل الدولية بقدر الإمكان من دوائر صنع القرار فـــي الوزارات المتعددة بالدول العربيـــة؛ حيث تدخل من باب الدعم البحثي لصانعي السياســـات والقـــرارات، وفي ضوء ذلك يقدِّم الدعم لإنشـــاء وحدات بحثية بالوزارات، أو تمويل مشروعات بحثية تحقق الهدف ذاته، ومن ثَمَّ تحاول المؤسسات الدولية من خلال التمويل الغربي ومشروعاتها البحثية التأثير في مصدر المعلومة التي يبني عليها صانع القرار قراره، ومن ثَمَّ يتحقق للمموِّل على المدى البعيـــد التأثير في القرار ذاته لمؤسسات الدولة.

٣ - قضايا المرأة والنسوية:

بتحليلنا للمشروعات المتعلقة بقضايا المرأة والنسوية يتبين أن المرأة المســـلمة تشكل عنصراً فاعلاً على أجندة مؤسسات التمويـــل الدولية، وفي ضوء ذلك يجـــري طرح أكبر قدر من المشـــروعات البحثية التي تحاول فهم المرأة المسلمة من كافة النواحي، حتى أشـــد التفاصيل خصوصية، إضافة إلى دعم كل المشـــروعات البحثية التي من شأنها تغريب المرأة المسلمة ووضعهـــا في إطار عولمي ليبرالـــي، يجردها من أية ضوابط عقدية أو مجتمعية.

٤ - الدين الإسلامي ومحاولات التلاعب في الثوابت:

تحاول المؤسسات التمويلية الغربية النفاذ إلى المجتمعات الإسلامية من زاوية أن الإشكال ليس في الإسلام، ولكنه في فهم المسلمين للإســـلام والنصوص الشرعية، ومن ثَمَّ تجري الدعوة لإعادة قراءة الإســـلام وَفْقَ النظرة الغربية الليبرالية، وبنـــاءً على ذلك يحدث التلاعب في الثوابت الشـــرعية، من خلال المشـــروعات البحثية المحقِّقة لهذا الهدف، إضافة إلى طرح المشـــروعات والمبادرات التي تبشـــر بالليبرالية والمدنية قبالة كل ما هو ديني في المجتمعات العربية.

٥ - مؤسسات التمويل وبرامج الزيارات البحثية التطبيعية:

تقوم مؤسســـات التمويل الدولية بتنظيم زيارات متبادلة بين الباحثين في الشرق والغرب، وهذه الزيارات تسمح للغرب بالاحتكاك المباشـــر بالباحثين العـــرب والتعرف على أنماط تفكيرهم، وقراءة رؤيتهم للأحـــداث والظواهر المتعددة التي يهتم بها الغرب، وقد لاحظنا على بعض مشروعات مؤسسات

التمويل الدولية في العالم العربي حرصها على ترتيب زيارات متبادلة للباحثين العرب وممثلي المؤسسات والمنظمات والمراكز البحثية العربية إلى تل أبيب وطهران، وذلك في إطار التطبيع مع الكيان الصهيوني، وفي الوقت ذاته القفز فوق الضلالات الشيعية ومحاولة فرض الاندماج والتطبيع الكلي بين السُّنة والشيعة.

خامساً: مشروعات مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية:

إن هذه المبادرة استحدثتها الولايات المتحدة الأمريكية لنشر ما يُعرَف بـ (المدنية) لتكون مواجهة ومضادة لكل ما هو ديني في منطقة العالم الإسلامي.

وبناءً على ذلك توضح الجهات المعيَّنة لدائرة صنع القرار في الحكومة الأمريكية أن (المجتمع الديمقراطي المدني لن يشجع قوانين الشريعة الإسلامية التي يريدها التيار التقليدي الأصولي، كما أن الحداثة لا تتماشى مع عقوبة القتل للزنا والجلد والبتر باعتبارها عقوبات جنائية مقبولة. كما لن تتقبل الفصل الإجباري بين الجنسين أو التفرقة المتطرفة الواضحة ضد المرأة في قانون الأسرة مثل الميراث، وفي العدالة الجنائية، وفي الحياة العامة والمجال السياسي. إن هذا التيار الإسلامي المتشدد بشكل عام لا يتواكب مع قيم المجتمع المدني، والرؤية الغربية للحضارة، والنظام السياسي والمجتمع، كما أن إنشاء منظمات المجتمع المدني في المناطق الريفية والضواحي، يشكل بنية أساسية يمكن أن تؤدي إلى نشر الوعي السياسي، وإلى صنع قيادات معتدلة تؤمن بالحداثة، وكذلك يجب دعم الفئات التي تبدو أكثر تمشياً مع المجتمع المدني الحديث؛ فمثلاً هناك مدارس قانونية إسلامية لديها القابلية للتعديل؛ بحيث تتماشى مع نظرتنا للعدالة وحقوق الإنسان أكثر من الآخرين)[1].

وعلى ذلك فإن المشروعات البحثية والتدريبية للخارجية الأمريكية في العالم العربي تسعى لاستثمار كافة وسائل الاتصال المتاحة؛ سواء في التعليم أو الإعلام أو الملتقيات التدريبية والفعاليات المجتمعية، وكل ذلك تحت إشراف مراكز بحثية محلية توثِّق وتصوب مسار عملية نشر القيم الليبرالية والمدنية الأمريكية في المجتمعات العربية.

ومن أكثر المشروعات الملفتة للنظر في هذا الصدد، هي المشروعات المرتبطة بما طرحته أمريكا ويُعرَف بمصطلح (الإسلام المعتدل)؛ ولذا فليس غريباً أن نجد مشروعات تدريبية تقوم فيها وزارة الخارجية الأمريكية بتدريب الأئمة والوعاظ والواعظات العرب على هذا الاعتدال الأمريكي.

وهذه المبادرة تمكنت خلال سبعة أعوام من تخصيص أكثر من ٥٣٠ مليون دولار لأكثر من ٦٠٠ برنامج في١٧ بلداً.

سادساً: المملكة العربية السعودية، ومحاولات تغلغل مؤسسات التمويل الدولية إلى مراكزها البحثية وبعض مفكريها وباحثيها:

يحاول التمويل الغربي الالتفاف على المملكة العربية السعودية، محاولاً اختراق جدارها بمشروعات تمثل اللَّبِنات الأولى لدخول التمويل الغربي إلى أرض المملكة؛ وذلك من أجل محاولة زعزعة الكيان الديني المتماسك، وطرح الرؤى الغربية العولمية محل الثوابت الشرعية والعقدية، وبصفة خاصة في قضايا المرأة والعمل الخيري، وفي ذلك تقول مؤسسة راند الأمريكية: (وأخيراً، بسبب أن برامج نشر الديمقراطية تأتي بشكل دائم من خلال التعاقدات المرتبطة بالمعونة الأمريكية USAID، فإن الأسلوب التقليدي في دعم الديمقراطية في دول غنية مثل الكويت والسعودية - وهي لا تتلقى دعماً مالياً من أمريكا - يبقى محدوداً، وبسبب أن قدرة البرامج النمطية لنشر الديمقراطية في تلك الدول محدودة في أثرها ودرجة وصولها، فإن مشروعات على غرار مبادرة الشرق الأوسط السياسية MEPI التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، قد تم تصميمها للمساهمة في ملء الفراغ من خلال الالتفاف حول تدخلات الدولة المحلية، وعن طريق الدعوة لقيام برامج ذات طابع إقليمي[2].

وفي ضوء محاولات التغلغل تلك قامت وزارة الخارجية

(١) شاريل بينارد: الإسلام الديمقراطي المدني (الشركاء والمصادر والإستراتيجيات)، تقرير مؤسسة راند الأمريكية (مؤسسة راند RAND (قسم أبحاث الأمن القومي- الولايات المتحدة الأمريكية - أُعد التقرير بدعم ورعاية مؤسسة سميث ريتشاردسون - الولايات المتحدة، تاريخ إصدار الدراسة: ١٨ / ٣ / ٢٠٠٤م)، ترجمة موقع إسلام ديلي، ص ٢٠، ص٥٦، ص ٧٦ - ٧٧، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) تقرير بناء شبكات مسلمة معتدلة، مؤسسة راند، مارس ٢٠٠٧م، ص ٤٨، في: إستراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧م، د. باسم خفاجي، سلسلة رؤى معاصرة، المركز العربي للدراسات الإنسانية، القاهرة، السنة الأولى، العدد رقم ٤، مايو ٢٠٠٧م ص ٢٤.

الأمريكية، برعاية بعض المشـــروعات في المجتمع السعودي، إضافة إلى محاولة مؤسســـة فورد الأمريكيـــة وثيقة الصلة بالمخابـــرات الأمريكية النفاذَ للمجتمع الســـعودي من خلال أسلوب الجوائز والـمِنَح الفردية.

سـابعاً: توصيـات ومقترحـات لمجابهـة الآثار السلبية للتمويل الغربي:

١ مناصحة أولي الأمر بالمخاطر التي يُحدثُها التمويل الغربي من خلال المشـــروعات والأنشـــطة البحثية والفكرية على الأمن القومي للبلاد العربية والإســـلامية، بما يعينهم على سن تشـــريعات وإصدار قرارات تحد من ظاهرة التمويل الغربي في المنطقة العربية والإسلامية.

٢ العمل علـــى ترجمة الأعمال البحثية والدراســـات الغربية التي تكشـــف مفاســـد مؤسســـات التمويل الدولية وسقطاتها وســـوءاتها، وعلاقاتها بأجهزة المخابرات الدوليـــة، والعمل علـــى توفير هذه الترجمات في سلاســـل صغيرة يسهل تداولها والاهتمام بها.

٣ عقـــد مجموعة من الـــدورات التدريبيـــة للباحثين والمفكريـــن والكتَّاب والإعلاميـــين الوطنيين الذين يرفضون التمويل الغربي، ومدِّهـــم بكافة المعلومات المرتبطة بحركة التمويل الغربي وما يشوبها من سوءات؛ وذلك حتى يتم توجيه الرأي العام لرفض هذه الظاهرة ولفظ المتعاطين معها.

٤ محاولـــة توثيـــق شـــهادات الباحثـــين والمفكرين والإعلاميين الرافضـــين للتمويل الغربي، من الذين كانت لهم تقاطعات مع مؤسســـات التمويـــل والمراكز والمنابر الفكرية والإعلامية المتعاطية مع التمويل. ومحاولاتُ التوثيق هذه يمكن إتمامها من خلال تنظيم لقاءات لهؤلاء الخبراء أو إجراء حوارات ومقابلات شخصية مباشرة معهم.

٥ صناعة الوعي لدى الجماهير العربية بعدم التفاعل مع الأبحاث الميدانيـــة التي لا تعلن عنها الدولة في وسائل الإعلام الرسمية.

٦ الســـعي لعمل وقفية إســـلامية تكون بمثابة مظلة تمويلية للمراكز البحثية والفكرية الحاملة لهمِّ الأمة وأزماتها ومشكلاتها ومشروعاتها النهضوية، ومن خلال هذه الوقفية يمكن تحصـــين الباحثين، والمفكريـــن، والإعلاميين المســـلمين الأكفياء من الوقوع في براثن التمويل الغربي وأسر المؤسسات التمويلية ومشروعاتها التغريبية والاستخباراتية.

٧ محاولة جـــذب رجال الأعمال وأصحـــاب الأموال لتمويـــل المشـــروعات البحثيـــة التي تخـــدم الأمة الإســـلامية ونهضتَهـــا وتقدُّمَهـــا، ويمكن في هـــذا الصدد اســـتحداث وظيفة أختصاصي تسويق المشـــروعات البحثية داخـــل المراكز البحثية؛ بحيث تكون مهمته فتح قنوات اتصال مع الشـــركات ورجـــال الأعمـــال لتقديم الدعم الشـــفاف للمشروعات البحثية والفكرية.

٨ الســـعي لعمل شـــبكة أو ائتلاف للمراكـــز البحثية الســـاعية لنهضة الأمة الإسلامية وصد المشروعات التغريبية، على أن يُصحَب الائتـــلاف بصندوق مالي لرعاية الباحثـــين والمشـــروعات البحثيـــة، ودعوة المجتمـــع العربي والإسلامي الرسمي والشـــعبي للمساهمة المالية والعينية في هـــذا الصندوق. على أن يتم انتخـــاب إدارة الائتلاف من بين رؤســـاء المراكز البحثيـــة المنضمة له، مع اشـــتراط أن يكون الباحث أو المركـــز البحثي المنضم للائتـــلاف لا يتعاطى مع التمويل الغربي. وهذا الائتلاف من شـــأنه تحقيق عدة فوائد يتوقع أن تصب جميعها في خدمة البحث والباحث، وتصرف الأذهان عن التمويل الغربي ومن هذه الفوائد:

- توحيد الخريطة البحثية وصناعة ما يُعرَف ببنك الأفكار البحثية المشترك.
- عدم تكرار المشـــروعات البحثيـــة، ومن ثَمَّ يجري توفير أموال كثيرة كانت ستنفَق في مشروعات مكررة.
- استكشاف وتكوين قواعد بيانات عن الكفاءات البحثية في العالم العربي والإســـلامي، ومن ثَمَّ تحقيق أقصى استفادة ممكنة.
- مـــن خلال صنـــدوق الائتلاف ســـتجري معالجة أزمة التمويل التي تعاني منها المراكز البحثية.
- ستســـاهم نتائج المشروعات البحثية التابعة للائتلاف – بإذن الله – في معاونة صانع القرار العربي والإسلامي على اتخاذ قراراته وصياغة سياســـاته وَفْقَ دراســـات وأبحاث علمية رصينة.

قراءة نقدية لمدخل الجابري للقرآن

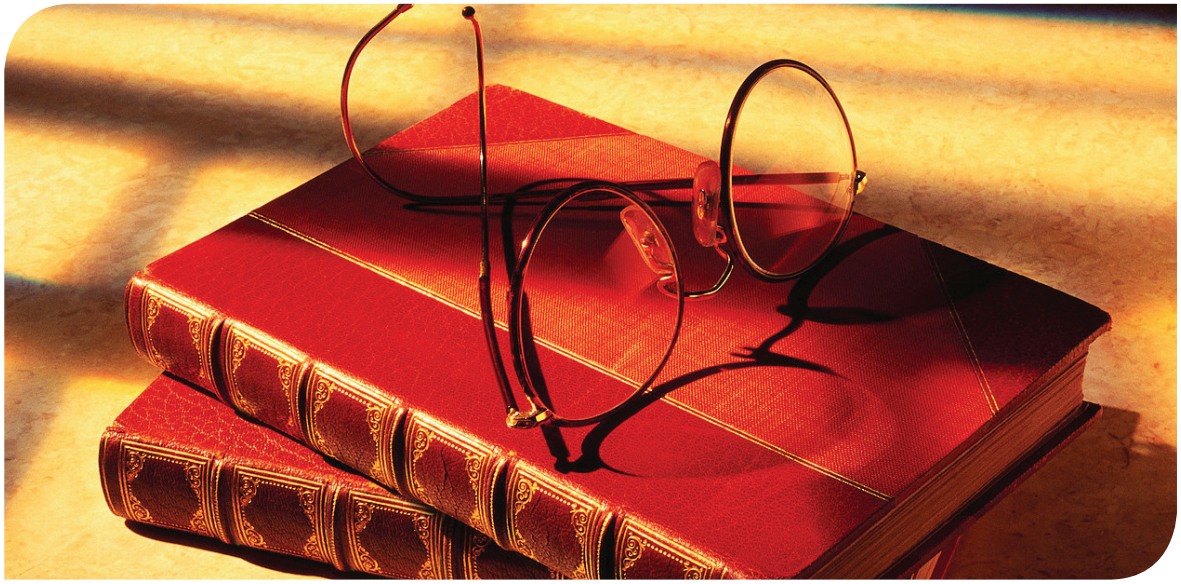

د. أحمد إسماعيل نوفل(*)

لمحة عن الجابري:

ولد الجابري في (فكيك) شرق المغرب سنة ١٩٣٥م، ثم غادرها إلى الدار البيضاء حيث نال دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة سنة ١٩٦٧م ثم دكتوراه الدولة في الفلسفة سنة ١٩٧٠م من جامعة محمد الخامس بالرباط العربي، وعمل بها أستاذاً للفلسفة، وقد عرَّفه كتابه (نحن والتراث) للقارئ العربي، وهو يتضمن قراءة معاصرة للتراث الفلسفي الإسلامي من خلال دراسة شخصيات فلسفية مثل ابن رشد والفارابي وغيرهما.

وأعاد الجابري قراءة فكر ابن خلدون، وأصدر ثلاثية (نقد العقل العربي) التي تكونت من ثلاثة إصدارات رئيسة في تكوين العقل العربي، وبنية العقل العربي، والعقل السياسي العربي. وقد أحدثت هذه الثلاثية هزة في الأوساط الفكرية العربية وأصدر الكاتب اللبناني جورج طرابيشي كتاباً ناقداً لها سماه «نقد نقد العقل العربي» يرد فيه على الجابري. وانخرط الجابري في حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية اليساري، وتعرض للاعتقال زمن الحسن الثاني ثم اعتزل العمل السياسي[١].

لن ندع معرفتنا بخلفية الدكتور محمد عابد الجابري اليسارية تؤثر في قراءتنا لكتابه (مدخل إلى القرآن الكريم)، والقسم الثالث فيه تحديداً، وهو موضوع هذه الدراسة المختصرة: (القصص في القرآن الكريم)؛ فهذه الخلفية الفكرية ليست بالضرورة هوية ثابتة ملازمة لا تفارق صاحبها ولا يفارقها صاحبها؛ فجارودي - مثلاً - كان منظِّر الماركسية ثم أصبح مسلماً، بل داعيةً مفكراً منافحاً[٢].

وعبد الرحمن بدوي - رحمه الله - بدأ وجوديّاً ثم انتهى مدافعاً عن الإسلام، وقل مثل هذا القول في محمد جلال كشك الذي كان ماركسيّاً ثم تحول إلى ناقد لها ولكل فكر

(*) كلية الشريعة - الجامعة الأردنية.

(١) مجلة الفيصل عدد ٤٠٩ - ٤١٠ رجب - شعبان ١٤٣١هـ، يونيو - يوليو ٢٠١٠م

(٢) إننا نعلم بعض أخطائه وهذا شيء، وذاك شيء آخر، لكنا لن نُخرج الرجل عن كونه منافحاً عن الإسلام.

منحط منحل، وكذلك مصطفى محمود ومحمد عمارة وزكي نجيب محمود، وثمة أمثلة وشواهد كثيرة على التحوُّل من النقيض المعادي للإسلام إلى المنافح القوي عن الإسلام، فلن ندع - بناءً على ذلك - هذه المعلومة تتحكم في وعينا أثناء قراءتنا لكتابه الأخير هذا، بل سندع كلماته شواهد له أو عليه.

وكتابه (مدخل إلى القرآن الكريم) هو آخر نتاج فكري له (وكنَّا نتمنى لو اتخذ مساراً آخر). وقد طمأننا في بدايات دراسته إلى أمور مهمة، منها: «أن طريقنا (أي: طريق الجابري) إليها (أي: النتائج التي توصَّل إليها بشأن القصص) يختلف عن طريق محمد أحمد خلف الله، كما أن دراستنا متحررة تماماً من الجدل الذي دار حول موضوع القصص القرآني في ذلك الوقت».

ونقف عند هذه النقطة يسيراً، فما يهمنا هو «النتائج المشتركة» أكثر مما يهمنا اختلاف الطريق. والنتائج المشتركة خطيرة بكل المقاييس وربما نعود إليها بشيء من التفصيل. يقول الجابري: «انتهى خلف الله إلى أن القصة القرآنية لم يكن هدفها التاريخ، وأن مضمون القصة هو ما يعرفه المعاصرون للنبي من تاريخ...»، ثم قال: «إننا لا نختلف كثيراً حول هذه النتائج، إلا أن طريقنا يختلف».

أمَّا أن القصة القرآنية ليس هدفها التاريخ، فكلام قد يبدو في ظاهره مقبولاً، ولكن إذا عرفنا النتائج والمقاصد ومآلات الكلام وغايات ترداد مثل هذا القول استبان لنا وجه آخر؛ فمقصده أن يقول، بل هو في مكان آخر قد قال بصريح العبارة ونصِّها عن دراسته أنها متميزة، بل منفردة بالخصائص التالية:

١ - (اعتبار القصُّ القرآني نوعاً من ضرب المثل):

ثم قال في شرح قاعدته (الذهبية) هذه ما قال مثله أو شبهه أو مطابقاً له خلف الله. قال الجابري: «فكما أننا لا نسأل عن صحة القصة التي وراء الأمثال، فكذلك القصص القرآني في نظرنا، والصدق في هذا المجال لا يُلتمس في مطابقة أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصدق فيه مرجعه «مخيال»[١] المستمع ومعهوده»[٢].

ويقول عابد الجابري: «الغرض من المثل والقصص في القرآن غرض واحد».

وهنا أيضاً تتجلى العبارة المراوغة الضبابية الملتبسة؛ فالقرآن كله غرض واحد؛ فمثلاً: الهدى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وهذا صحيح. لكن قرن القصة والمثل يراد منه البرهنة، كما أن المثل لا يشترط مطابقته للواقع فكذا القصة؛ فليس بالضرورة أن يكون هناك من تنقض غزلها، أو أن يكون ثَمَّ حمار يحمل أسفاراً على الواقع.

بهذا المنطق نفسه يمكن أن يقال: ليس بالضرورة أن يكون هناك نوح أو عاد أو ثمود، وإنما الخيال الشعبي فيه هذه القصص (وحسب اعتقاد هؤلاء الكتاب هي أساطير، وصرح بها بعضهم) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

أما النتيجة الخطيرة الثانية التي يلتقي فيها مع خلف الله، فهي: أن «مضمون القصة ما يعرفه المعاصرون»، وهذا غير مسلَّم لهما أبداً، بل هو منقوض مرفوض؛ فما يعرفه النصارى - مثلاً - من زعمهم أن المسيح ابن الله؛ فهل نجاريهم ونوافقهم ونوافق ما في «مخيالهم».

وكأن (النورسي) - رحمه الله - يرد عليه حين قال: «المعنى هو ما صبَّته الآيات في الأذهان، لا ما تسرَّب في خيالك من احتمالات، أو ما سَرقْتَه من أساطير الحكايات».

وعند يهود أنهم شعب الله المختار على الرغم من كفرهم؛ فهل يوافقهم القرآن على ذلك؟ ألم يقل القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] ؟

وهل جئنا لنقرَّ الناس على ما هم عليه، أم لنقرَّ الحقائق التي يريد إقرارها رب الناس؟

وإذا كان القرآن يوافق العرب ويقرُّهم؛ ففيم التنازع الذي حصل؟

ألم تقل لنا أنت نفسك عن قريش: «الذين يفسرون الآيات أو المعجزات بأنها سحر مستمر»[٣]؛ أي سينقضي ويمر أثره، مستقرين على اتباع أهوائهم، ثم عاد (عابد) فأكد ما يراه حقيقة، عن حكاية عدم مطابقة القصص للواقع التاريخي، فيقول: «أما مسألة ما إذا كان محتوى هذه القصص يحكي وقائع تاريخية، فهي مسألة لا معنى لها في نظرنا»[٤]، وقال: «إن الحوار الذي يجري في القصص كالحوار الذي يجري في الآخرة»[٥]. وهو يرى أنه لم يقع. نحن نعلم أن حوار الآخرة لم يقع، لكنه قطعاً سيقع، ومن

(١) وهي كلمة مفضلة تتكرر عند عابد وأضرابه. [والصواب : خيالهم] البيان.
(٢) هي نظرية خلف الله، والصدق عند خلف الله صحة الهدف من القصص لا مطابقة القصِّ للواقع التاريخي، وهي نظرية طه حسين وأساتذته من المستشرقين من مثل: نولدكة وماسينيون وبلاشير ومرجليوث.

(٣) ص: (٢٦٨).
(٤) ص: (٢٧٠).
(٥) ص: (٢٧٠).

ثَمَّ فإن حوار القصص قد وقع. والفرق واضح في المنطقين.

ولا نناقش حكاية «المطابقة» هذه، ولكن نمر بها سريعاً فنقول: كم مرة وصف القرآن قصصه بأنه ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] ؟ وأيضاً: أين التهديد ومصداق الوعيد إذا كان العقاب الذي ذكره القصص واقعاً بالأقوام لم يقع؟ وكذلك: أليس الواقع أغرب من الخيال؟ فلماذا يُستغرَب من تاريخ البشرية الطويل أن يحوي هذه الوقائع المحدودة، ونحن في عمرنا القصير وتجربتنا المحدودة، رأينا عدة دول عظمى تتفكك، وعدة قوى استعمارية تنهار وتضمحل؛ فما العجب أن يقص القرآن علينا هلاك عاد وثمود وقوم لوط؟

ثم حكاية مطابقة (المخيال) هذه: منذ متى كانت حكمة المربِّي في مطابقة خيال مريض معتل مختل كخيال العرب؟

وأما قول عابد الجابري بأن دراسته متحررة تماماً من الجدل الذي دار حول دراسة خلف الله، فما يدريك يا أستاذ أنك - وقد قلت ما قال - ألاَّ تثير ما ثار؟ صحيح أنك لست طرفاً في الجدل، لكنك تعيد إنتاج ما أثار ذلك الجدل؛ فإنك مُلاقٍ ما لاقى!

وَعَد الجابري بالتخفُّف من الإسرائيليات أو التخلص منها؛ فهل أنجز ما وعد به؟ إننا ونحن نقرأ في مقدماته التي بدأ بها هذا القسم من الكتاب، قد وقفنا عند النتيجة أو «الخصيصة» الأولى كما سماها، وهي التي قال فيها: إن القصة كالمثل.

٢ - وأما المقدمة الثانية فهي: (الاقتصار على المادة التي يعطيها القرآن وحده).

وقال في بيانها: (لا تحاول هذه الدراسة، بل لا تريد، أن تكمل[١]، أو تفسر القصص القرآني بما ورد في الإسرائيليات أو غير ذلك من الموروث القديم). ثم عاد في الهامش فاستدرك فقال: (قد نضطر إلى أن نذكر في الهامش ما هو ضروري لشرح كلمةٍ أو بيان مسألةٍ مما ذكره المفسرون من مخايلهم وموروثهم الثقافي؛ ليس لأن ما ذكروه صحيح، بل لكونه يعبر عن فهم العرب. والقرآن خاطب العرب حسب معهودهم، وأراد منهم أن يفهموا في إطار ما يخاطبهم به)[٢].

وهذا خلط منه للقصة القرآنية وهي كلام الله الحق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] بروايات النَّقَلَة عن الإسرائيليات، وهي - غالباً أو ضرورة - من إضافاتهم أو تحريفاتهم لكتابهم أو من وضعهم مباشرة.

فهو يعلم أن المفسرين ذكروا هذه الروايات من «مخايلهم» (الكلمة الأثيرة عند الجابري)، وأن هذا المروي من «المخايل» يخيل للجابري أن القرآن خاطبهم بحسبه «وأراد منهم أن يفهموا في إطار ما يخاطبهم»، فكأننا ندور في حلقة مفرغة، مخزون ثقافي - إن جاز تسميته بذلك - وهذا المخزون والموروث مفرَّغ من الحق، والقرآن يريدنا أن نفهم في هذا الإطار؛ فما الذي صنعه القرآن إذا كان حافظ على هذا المخزون من ميثولوجيا العرب وبني إسرائيل؟

وهل هذا هو تغيير ما بالأنفس الذي جعله الله مفتاح التغيير الشامل؟ إنها حلقة الباطل المفرغة، وحاشا أن يأمرنا القرآن بالدوران فيها، إنه تيه أَمَرُّ من تيه بني إسرائيل؛ فهل يأمرنا القرآن بالتيه ويتركنا فيه؟

ونقول: إنه ما من شيء يضطرنا أو الأستاذَ إلى النقل من الإسرائيليات، وسنجد أنه لجأ مختاراً إلى الإسرائيليات يغترف منها ما يتناقض مع العقل، وهو الذي اشتغل عُمُرَه في «نقد العقل العربي»، وإذ به يقع في أسوأ مما نقد لأجله العقل العربي. وسأذكر لك بعض أمثلة تثبت أنه ما كان اقتصاراً منه على مادة القرآن وحده.

فقد قال عن الرس أنها بئر في أنطاكية[٣]؛ فما الداعي لهذا القول؟ وما الذي انبنى عليه؟ وهل فسر شيئاً أو وضَّح غامضاً؟ وقال: عن أصحاب الرس أنهم قتلوا (حبيب النجار) مؤمن سورة (يس) ورسُّوه في البئر... إلخ.

وفسَّر النعجة في قصة داود في سورة (ص) «بالمرأة»[٤] وقال عن ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: تنازل لي عنها. وقال في صلب الصفحة - لا في الهامش كما وعد -: «قيل: سوَّلت له نفسه أَخْذَ تلك المرأة»، وقال عن سليمان - عليه السلام - في صلب الصفحة (٢٧٤) لا في هامشها: «وذات مرة تفقد سليمان الطيور في قصره، فلاحظ غياب الهدهد».

أولاً: هو لم يذكر مرجعاً لهذا القول، لذلك يفترض أنه من عنديَّاته.

ثانياً: هو لم ينظر إلى السياق: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٧١]. فهو - عليه السلام - تفقَّد الطير في الميدان لا في القصر والإيوان. ثم قال عن خَيل سليمان - عليه السلام -: «بدأ يضرب بالسيف سيقانها وأعناقها ندماً

(١) تعبير «تكمل» غير موفق، وكم كثيرة هي تعبيرات التي ينطبق عليها هذا القول وسأذكرها.
(٢) ص: (٢٥٨).
(٣) ص: (٢٦٧)
(٤) ص: (٢٧٣)

على الانشغال بها عن وقت صلاته». ولئن كان هذا القول مذكوراً في بعض كتب النَّقَلة، فَلِمَ اقتصر الأستاذ عليه وهو «عدمٌ» في القوة؛ أي لا سوق له ولا ساق.

والقول الصحيح أنه طفق مسحاً يدللها على تعبها ومجهودها. وهل إذا أخطأ أحد أوقع نتيجةَ خطئه على غيره؟ فما ذنب الخيل، وهي عدة الجهاد ورأس مال ضخم ولا مسؤولية عليها؟ فأين الرفق والحكمة عند أنبياء الله وخاصة سليمان الحكيم، كما يسمى؟

ثم ذكر عن ملكة اليمن أن سليمان تزوَّجها، ولا خبر عندنا من مصدر صحيح، فلِمَ ترويج روايات هالكة؟

وانظر التفصيل: وكان يزورها في كل شهر مرة، يقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، ثم أمر الجن فبنوا له ثلاثة قصور: غمدان و... إلخ.

ثم قال ما هو «أَوغَلُ» في التيه مما ذُكِر آنفاً: دعا «بلقيس» (ربما أعاد اسم بلقيس قرابة عشر مرات، والقرآن لم يسمِّها ولا السنة) إلى الدخول عليه، وشيَّد ما يشبه صهريجاً مملوءاً ماءً، فلما رأت الصهريج بينه وبينها، ولم تنتبه إلى الزجاج فوق الماء رفعت ثوبها عن ساقيها حتى لا يبتل، وسليمان متكئ وراء، فأبصر ساقيها فأعجب بهما...» إلخ. وذكر ذلك في صميم الصفحة لا في هامشها، ولم يَعْزُه إلى أحد، وقال في الهامش: قال ابن كثير: وذكر قصة الزواج.

وفسر ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥] بأصحاب القوة والنسل.

وفسر ﴿قُرىً ظَاهِرَةً﴾ [سبأ:١٨] فقال: (تعني القرى التي بارك الله فيها). وواضح أن القرى الظاهرة إنما كانت بين سبأ وبين القرى التي بارك الله فيها، لا أنها هي.

وفسر: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ [ص:٣٤] بأنه حلم بأن ملكه نُزِع منه. وقال: «عندما جاء الأجل سليمانَ توفَّاه الله وحيداً في قصره»[1]، وهذا من الجابري عجيب لا يُقبَل؛ فسياق الآيات يدل على أنه مات واقفاً في الميدان، واقرأ الآيات: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ... اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً... فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ...﴾ [سبأ:١٢-١٠]. وهل الذي يموت في قصره يموت على عصاه، أم يكون متكئاً على الأرائك؟ إنما هذه ميتة الذي يموت في ميدان العمل.

فوجدنا أن الإسرائيليات حشو تفسيره وشروحه للآيات، ولا ضرورة لها على الإطلاق. ومن الإسرائيليات قوله: «أصحاب الجنة (المزرعة) باليمن»[2]، ثم ذكر الآيات، والقرآن لم يحدد ولم يذكر لا اليمن ولا غيرها. ونسي أنه علَّمَنا أن القصة كالمثل لا يشترط لها مكان معيَّن ولا شخوص محددون. وهو من قال: إنه سيتجنب الإسرائيليات.

وفي قصة لوط قال في شرح الآيات: «فلما دخل الضيوف بيت لوط بحثوا عنهم (أي أهل البلد) ليمارسوا معهم فعلتهم فلم يجدوهم»[3]. وهذا أيضاً إضافة لم ترد في النص، وعدمُ التزام بالمنهج الذي ألزم به نفسه.

ومن الإسرائيليات التي زعم الجابري أنها حديث، ما زعمه عن ذي الكفل. قال: «في الحديث: كان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له: ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: مِن هذا العمل، والله ما عملته قط. قال: أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجة. قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبداً! ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوباً على باب داره: إن الله قد غفر لذي الكفل»[4]. ولن نناقش هذه الرواية؛ فهي لا تستحق المناقشة، ولكن يكفي أن نقول: إن القرآن عدَّه في سلك الأنبياء ونسَّقه معهم؛ فيكف يكون رجل تائبٌ كان لا يتورع عن معصية معدوداً في سلك هؤلاء العظماء؟ فأن تُقبَل توبته شيء وأن يُعدَّ في نسق: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥] شيء آخر.

٣ - أما قاعدته الثالثة فهي: (القصص القرآني والحقيقة التاريخية).

قال الجابري في مقدمة قاعدته هذه: إنه لن يهتم بتلك القضية التي شغلت الدارسين للقصص القرآني وما زالت، ثم أفصح عمَّا لا يهمه وأنه «العلاقة بين القصص القرآني والحقيقة التاريخية».

وهي النظرية القديمة المكرورة، فلم يطرح فيها عابد زيادة على خلف الله ومِن قَبْلِه طه حسين، وكرر وأعاد أن القرآن ليس كتاب قصص ولا كتاب تاريخ، وهذا النفي الأخير لا يفيده في نفيه الأول: «لا معنى لطرح مسألة الحقيقة التاريخية»، «إن الحقيقة التي يطرحها القصص القرآني هي العبرة». ولا أدري ما الذي يضير أن تجتمع الحقيقتان؟ ولماذا الإصرار على التفريق بين الحقيقتين

(١) في متن ص: (٢٧٥).

(٢) ص: (٢٦٦).

(٣) ص: (٢٦٩).

(٤) ص: (٢٧٧).

وإفراد إحداهما عن الأخرى؟ وما المصلحة المبنية على هذا؟ وهل ضاق التاريخ البشري عن مثل هذه الحقائق؟ أليس في الواقع الماضي والحاضر من الوقائع ما يطابق مثل ما حدَّثنا عنه القرآن؟ ثم ما معنى قوله - تعالى - ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢] ثم أليس أوقعُ في العبرة أن يكون المقصوص مطابقاً لواقع الحال وليس من نسج الخيال؟

ثم أوقع الجابري نفسه في تناقض لا يُجبَر؛ إذ قال: «نعم! إن القصص القرآني ليس قصصاً خياليّاً، بل هو قصص يتحدث عن وقائع تاريخية تقع ضمن معهود العرب». ونفى أُميَّة العرب.

وفي الجملة إنك لا تجد في كتابة الجابري التوقير لكلام الله وإجلاله كما هو شأن المؤمن؛ فهل يخطر ببالك أن تقرأ هذه العبارة في كلام مؤمن بالقرآن: «ونحن قد اخترنا السير مع القصص القرآني، كما ورد، حذو النعل بالنعل كما يقول المثل...».

ومما يلاحَظ على أسلوب الجابري أيضاً: أنه يقرر حقائق، أو قل: مُطْلَقات يطلقها من (عنديَّاته) مقررات كأنها الحقيقة النهائية وكأنه هو المرجع النهائي؛ فتراه يقول: «والواقع [هكذا] أن جُلَّ الحوادث التاريخية التي يحكيها قصص القرآن عن أنبياء بني إسرائيل يتطابق إلى حدٍّ كبير مع ما جاء في التوارة والإنجيل»[١].

والواقع - على طريقة الجابري - أن هذا غير دقيق؛ فقصة يوسف - مثلاً - صحيح أنها تحتوي بعض أحداث مشابهة لكن المنهج مختلف، وكثير من الحوادث مختلفة؛ فالرؤيا التي رآها يوسف تحولت إلى رؤيتين عندهم، وهو لم يخبر إخوته ولم يعلموا (عندنا وعندهم) أنه أخبرهم فتضايقوا. وعندنا أن يعقوب صبر، وعندهم أنه لبس المسوح وتكلم بكلام لا يتفوَّه ولا يتكلم به أنبياء، وعندنا أنه أكرم إخوته، وعندهم أنه وضعهم في «بيت السجن» على حدِّ تعبير التوارة... إلخ[٢].

ولعل (الأوعر) و (الأعوص) هو في كتابة الجابري و (مصطلحاته) واللغة الاستشراقية التي يكتب بها؛ ففي السطر الأول من دراسته يتساءل على لسان القارئ: «ما علاقة القصص القرآني بهذا الكتاب الذي موضوعه التعريف بالقرآن: (محيطه ومسار تكوينه)؟ هل لا حظت (مسار تكوينه)؟ وهل ضبطت المراد؟ وهل لا حظت (محيطه)»؟

ويفيدنا في الجواب على سؤالنا المفترض فيقول: «الجواب هو أن القصص القرآني يتصل بالموضوعين اتصالاً مباشراً؛ فهو من جهة نافذةٌ واسعة تمكِّننا من الإطلالة على جانب مهم من محيط (الدعوة المحمدية)، وهو من جهة أخرى خطابٌ جعل منه القرآن مسرحاً لخطاب جدلي أبدي موجَّه إلى خصومه، وبالتالي[٣] فهو مكوِّن من مكوِّنات مساره التكويني».

وهو بالمناسبة يعيد تعبير (الدعوة المحمدية) في الصفحة الواحدة بمعدل (٤ - ٥) مرات.

ومن مصطلحاته سوى مصطلح (الدعوة المحمدية) و (مسار القرآن التكويني) مصطلح: (الحكي) فيقول عن قصص القرآن: «فإن حكيه لا يخضع لمسار حياة الأنبياء، بل يعرض في كل مرة ما يناسب الدعوة المحمدية في مرحلة من المراحل»[٤].

ويقول: «قصص الأنبياء حكاية سيرة هذا النبي أو ذاك»[٥]. وقال: «لا يخلوا هذا (الحكي) من هدفِ استخلاصِ العبرة. ويكرر حكاية (الحكي) فيقول: «تبقى السيرة المحكية مقصودة لذاتها...»[٦]، و «الواقع أن جل الحوادث التاريخية التي يحكيها قصص القرآن»... إلخ.

ومصطلح (الحكي) و (الحكائين) و (الحكايات) معروف لمن يقرؤون القصص، وظلال المصطلح لا تناسب القصص القرآني.

ومن مصطلحاته الغريبة، التي أوردها متأثرةً بالمستشرقين: مصطلح (التاريخ المقدَّس) ولا أدري من أين اخترعه، فهو يكرره (ص٢٥٧) «التاريخ المقدس تاريخ الأنبياء والرسل»، و (ص٢٦٠): «التاريخ المقدس التاريخ الذي تحكيه الكتب السماوية وفي مقدمتها التوراة التي هي مصدر أساسي وأحياناً الوحيد للمؤرخين الذين يعرضون لتاريخ بني إسرائيل». ثم يقول بعدها مباشرة: «مِنْ هذا المنظور سنتعامل مع القصص القرآني في القرآن المكي، ومن هذا المنظور سنستحضر نصوصاً من التوراة والإنجيل قصد فَسْح المجال للمقارنة»... إلخ.

ومن عجائبه توثيقه للآيات؛ فهو يقول: القرآن الكريم سورة غافر الآية (٢١). فإذا عاد قال: المرجع نفسه سورة الفجر الآية (١٥)... إلخ. وهذا دأب لم نعهده إلا عند الجابري.

(١) ص: (٢٥٩).
(٢) للمزيد من تفاصيل هذه المقارنات ارجع إلى مؤتمر تفسير سورة يوسف للعلمي وإلى كتابنا عن سورة يوسف.
(٣) (بالتالي) ليس أسلوباً عربياً، وإنما الصواب: (وبناءً على ذلك)، أو (ومن ثَمَّ)، أو غير ذلك مما يناسب السياق. البيان
(٤) ص: (٢٥٧)
(٥) ص: (٢٥٨)
(٦) ص: (٢٥٩)

الآن

الآن

فعل اشتراكك في جوال

البيان

ضمن شبكة zain

أرسل رسالة فارغة إلى ٧٠٤٠٤٧

للاشتراك أرسل رسالة فارغة إلى

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

رسائلنا تحكي أهدافنا

DESIGN: 0551795955

ندرة الموارد الاقتصادية في العالم الإسلامي

مصطفى محمود عبد السلام(*)

تمهيـــــد:

يُشيِّع الاقتصاد الوضعي في الدول النامية إشـــكالية خاصة بنضوب الموارد وعدم كفايتها للحاجات الإنسانية وعجز الطبيعة - بزعمهم - عن إدرارها بخيراتها؛ وهو ما يحجب عنها الخيـــر الوفير، ولكن تأتي الإحصائيات تكذِّب هذا الإدعاء.

«كانت حصيلة القرون الثلاثة الماضية من هيمنة الغرب بحريتـــه الاقتصادية كارثة على مستوى الكون بأسره؛ ففي عام ١٩٩٢م نلاحظ أن ٨٠ ٪ من الخيرات الطبيعية في العالم جرى اســـتهلاكها من طرف ٢٠ ٪ من سكان العالم. ونتيجة هذا التوزيع الجائر يموت ســـنوياً من الجـــوع ٢٥ مليوناً من البشـــر؛ والســـبب هو أنموذج التنمية المفروض من الغرب»(١).

«فقد أعلن صندوق الأمم المتحدة أن البون الشاسع بين البلدان الأكثر غنى والبلدان الأكثر فقـراً قد تضـاعف خلال ٣٠ سنة؛ ففي فرنسا - مثلاً - عام ١٩٩٢ يتصرف ٦ ٪ من الشـــعب في ٥٠ ٪ من الثروات، وفي الولايات المتحدة يمســـك ٥ ٪ بحوالي ٩٠ ٪ من الثروات الوطنية(٢).

وهناك عدة إحصائيات توضح خطأ القول بنضوب الموارد الطبيعية، منها ما يلي(٣):

١ - تبلغ مســـاحة الأرض اليابسة في العالم ١٣,٢ بليون هكتار، نصفها غيـــر قابل للزراعة، وأكثر من ربعها مراعٍ، وأقل من ربعها الباقي أراضٍ قابلة للزراعـــة؛ غير أن مســـاحة الأراضي المزروعة فعلاً أقل من نصف مســـاحة الأراضـــي القابلة للزراعـــة (٤٣,٥ ٪) فقط، وما زال القســـم الأكبر ينتظر المبادرة الإنسانية لاستغلاله وزراعته.

٢ - يحتاج ســـكان العالم نحو ٩٠ مليون طن من البروتين ســـنوياً حســـب تقديـــرات العلماء، وحين يبلـــغ العجز العالمي نحو ٢١ مليون طن ســـنوياً، فإن

(*) باحث في شؤون الاقتصاد الدولي - بنك التمويل المصري السعودي.

(١) رجاء جارودي، «كيف شارك الإسلام في الحضارة الإنسانية»، ضمن أعمال ندوة الثقافة العربية... الواقع وآفاق المستقبل التي نظمتها جامعة قطر عام ١٩٩٣م، ترجمة محمد عبد القادر، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٣.

(٣) جورج قرم، التنمية المفقودة، دراسة في الأزمة الحضارية والتنموية العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٨٠.

العلماء يؤكدون على أن في العالم ما يفوق حاجاته السنوية بكثير، وهو متوفر في الطبيعة على هيئة مراعٍ أو مصادر إنتاج أخرى، ويشيرون إلى وجود كميات ضخمة من البروتين، ولكن الدول التي تملكه تستخدمه في تغذية الماشية والحيوانات الأليفة وترفض طرحه في الأسواق.

ونلاحظ من خلال هذه الإحصائيات وجود طاقات هائلة لم تُستثمَر، أو أريد لها ذلك حتى تظل هناك قوى قائدة تستطيع أن تأخذ في فلكها كل أتباعها من الدول النامية لترتمي عند أقدامها وتفتح السوق لمنتجاتها وبضائعها وتعيش عالة عليها وتنفذ معها أنماطاً ثقافيةً، واجتماعية تصل بالدول النامية إلى حالة الوهن الحضاري الذي حذر منه الرسول ﷺ في قوله: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أَوَ من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: بل إنكم كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيَنْزعن الله من قلوب عدوكم المهابة، وليقذفن الوهن في قلوبكم. قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وعاشت الأمم الإسلامية حالة الوهن الحضاري عالة على الأمم، وسوقاً استهلاكياً لمنتجاتهم، وعجزاً عن الإنتاج وتحقيق الاكتفاء الذاتي، وترك العمل؛ وهم متعبَّدون به يثابون عليه في الآخرة.

أولاً: تعريف الموارد الاقتصادية:

تحتاج التنمية إلى مزيد من الإمكانيات المتنوعة، ويتوقف مقدار ما تنتجه الأمة من أية بضاعة على ما لديها من الموارد الطبيعية، وعلى المؤهلات المتوفرة لاستغلال هذه الموارد.

وتعرَّف الموارد الاقتصادية بأنها:

(١) أخرجه أبو داوود في الملاحم.

«تلك العناصر النافعة للإنسان الموجودة في محيطه؛ أي: العناصر التي لها القدرة على إشباع حاجات الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ويتوقف إنتاج الأمة – غالباً – على مقدار الموارد المتوفرة لديها»[2].

وتستلزم التنمية موارد وطاقات تعبَّأ لإقامة الاستثمارات التي من خلالها تتحقق عملية التنمية ولا جدال في تنوع تلك الموارد إلى موارد مالية وموارد أو طاقات إنسانية.

وعلى ذلك فإن الثروة الطبيعية التي توجد في محيط الإنسان تشمل الأراضي الزراعية، والصالحة للزراعة والرعي، والغابات، والثروة المائية، والثروة المعدنية.

ولا يصح أن ننظر إلى الثروة الطبيعية كشيء ثابت لا يتغير؛ إذ الواقع أنها في تغير مستمر تبعاً لقدرة الإنسان على استغلالها؛ سواء بالتبديد أو الترشيد. وهذا التحكم يجري في صورة تفاعل الإنسان مع الطبيعة وكيفية استخدامه لمواردها في إشباع حاجاته.

(٢) د. محمود محمد بابلي، «الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية»، دار الكتاب اللبناني، طبعة أولى، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٦٩.

وعملية إشباع الحاجات من حيث أثرُها على المتاح للمجتمع من الموارد الإنتاجية، يمكن النظر إليها من خلال إشباع الحاجات؛ أي: استخدام قدر من عناصر الإنتاج، ويعكس ذلك الطبيعة المبددة للحاجات بالنسبة للمتاح للمجتمع من موارد الإنتاج، ومن الناحية الأخرى يؤدي إشباع الحاجات من خلال إنماء طاقات المجتمع إلى إنماء المتاح له من موارد الإنتاج ويعكس هذا الطبيعة المجدِّدة للحاجات بالنسبة للمتاح له من موارد الإنتاج والاستفادة من هذه الطاقات من خلال المجهود البشري بشقيه: العقلي والعضلي.

وبناءً على ذلك فإن الموارد الطبيعية التي توصف بأنها مبدَّدة يجب أن يكون استخدامها في أضيق نطاق دون إسراف. أما بالنسبة لإنماء طاقة المجتمع وهو يتمثل في الطبيعة المجددة، فلا بد من إنماء هذه الطاقات؛ بحيث تكون في أوسع نطاق ممكن، ويعني ذلك أن الاعتماد على نصف الموارد وترك النصف الثاني المتمثل في الموارد الإنسانية معطلاً يقلل من الجهد والفعالية في إشباع الحاجات الإنسانية

ويمثل بتراً لذراع هام من ذراعَي التنمية.

ومبادئ الرشد الاقتصادي تقتضي أن يكون التركيز على الموارد الوفيرة الممثَّلة في الطاقات الإنسانية والجهد البشري عن الموارد النادرة المتمثِّلة في الموارد الطبيعية والمادية، وهو ما تم بنجاح في التجربة الإنمائية العالمية في اليابان والصين؛ حيث ضآلة الموارد الطبيعية.

وقد دلت التجارب على أن المجتمع المتخلف لا يتحرك في طريق الإنماء والتقدم إلا إذا توفر له العقل المحرك؛ أي العقل الإنمائي الجديد؛ ولذلك يحوَّل البحث الإنمائي والتخطيط الإنمائي في العالم الثالث من التركيز على الموارد الطبيعية إلى التركيز على الموارد الإنسانية[١].

ثانيا: الموارد ذات الطبيعة المبدَّدة في العالم الإسلامي:

تجري دراسة الموارد بالنسبة للعالم الإسلامي انطلاقاً من وقوعه في قارة التخلف الاقتصادي، ومعاناته من نتائج التخلف الاقتصادي.

(١) د. حسن مصعب، «المقاربة المستقبلية للإنماء العربي»، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩م، ص٣٤.

١ الأراضي الزراعية:

وهي من أهم الثروات الطبيعية التي لا يكاد الإنسان يستطيع بدونها أن يمارس أي لون من ألوان العمل ولا يتصور بدونها قيام أي نشاط إنتاجي.

والإنتاج الزراعي يمثل أهم مصادر حاجات الإنسان الأساسية. يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. [الرعد: ٤]

ولقد نبه الإسلام منذ البداية إلى تعمير الأرض وإحياء الموات منها، مقرراً أن «من أحيا أرضاً ميتة، فهي له»[٢] كما قام رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بإقطاع الأرض للناس لإصلاحها واستغلالها، والعمل فيها بالزراعة وغيرها. يقول الإمام أبو يوسف في كتابه الخراج: (ولا أرى أن يترك الإمام أرضاً لا ملك لأحد ولا عمارة حتى يُقطعَها؛ فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج)، وبهذا تزيد الأرض المستصلحة وتكثر التربة الزراعية الخصبة وينمو هذا العنصر الهام من عناصر الإنتاج[٣].

ومما يؤسَف له، وجود مساحات شاسعة في الأرض الإسلامية غير مستغلَّة؛ حيث يمتد العالم الإسلامي على مساحة واسعة وتتوفَّر فيه الأراضي القابلة للزراعة، إلا أنه تسود فيه ظاهرة تتمثل في انخفاض نسبة استخدام الأراضي للزراعة في كثير من دوله، قد تنخفض إلى ١,٠ ٪ كما في الأردن، وإن ارتفعت فهي ٠,٥ ٪ في مصر و ٣,٢ ٪ في تركيا... إلخ[٤].

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) د. سعيد أبو الفتوح، «الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية»، دار الوفاء للطبع والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٣٣٥.

نقاط هامة ينبغي الإشارة إليها في معرض الموارد الزراعية للعالم الإسلامي منها:

- المنطقة العربية الإسلامية متهمة بأنها يغلب عليها الطابع الصحراوي؛ لهذا السبب يجب أن نشير إلى إمكانياتها من حيث الأراضي القابلة للزراعة؛ حيث تقدَّر بحوالي ١٤,٥٪ من مجموع المساحة الكلية البالغة ١٣٦٧ مليون هكتار، أو ما يعادل ١٩٨مليون هكتار، تمثل النسبة المزروعة منها ٢٧ ٪ فقط؛ أي حوالي ٥٤ مليون هكتار، وذلك بمتوسط ربع هكتار لكل فرد»[٥].

- العالم الإسلامي بمناخه وبموارده من المياه والأراضي القابلة للزراعة مهيَّأ لإنتاج كل أنواع المحاصيل الزراعية، وفي إمكان المنطقة العربية الإسلامية ككل أن تحقق الاكتفاء الذاتي في ما يتعلق بمتطلباتها الغذائية.

- الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى تمثل ثروة هائلة من الأراضي الزراعية بالنسبة للعالم الإسلامي؛ حيث إن المساحة المزروعة في هذه الجمهوريات تبلغ ١١٧مليون فدان. ولبيان أهمية هذا، فإننا نشير إلى أن عدد سكان هذه الجمهوريات حوالي ٦٠ مليون نسمة وإذا قارنَّا ذلك بحالة مصر؛ حيث عدد السكان متساوٍ تقريباً، بينما المساحة المزروعة في مصر لا تتجاوز ثمانية ملايين فدان. هذه المقارنة تُظهِر أهمية هذه المنطقة الإسلامية في مجال الزراعة[٦].

(٤) البنك الدولي تقريرعن التنمية في العالم سنة ٢٠٠٠م ، جدول(٨)، ص٢٤٤.

(٥) جامعة الدول العربية وآخرون، «التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٩٨م»، تحرير صندوق النقد العربي، أبو ظبي، ص ٨٠.

(٦) د. رفعت العوضي، «عالم إسلامي بلا فقر»، كتاب الأمة، عدد (٧٩)، قطر، ٢٠٠١م، ص٣٨.

- كفاءة نظم الري المستخدمة في الدول الإسلامية العربية تتسم بالتبديد لموارد المياه أكثر من الترشيد والكفاءة؛ حيث يستخدم حوالي ١١,٢ ألف م٣ في ري الهكتار بينما تقدَّر كمية المياه اللازمة للزراعة بنحو ٧,٨ ألف م٣ [١].

- المعدلات المسجلة في الولايات المتحدة وأوروبا لإنتاجية المحاصيل الزراعية - وبالتحديد الحبوب - تقدر بحوالي ٥,١ طن للهكتار؛ وذلك مقارنة بالدول الإسلامية العربية؛ حيث وصل إلى ٢,٣ طن للهكتار عن الفترة ما بين عامي ١٩٩٤م - ١٩٩٦م نفسها[٢].

يعكس ذلك محدودية استخدام المدخلات وعوامل الإنتاج الزراعية من البذور عالية الإنتاج والأسمدة والمبيدات الحشرية والآلات الزراعية ذات التقنية العالية.

٢ الموارد المائية

تتنوع مصادر المياه في العالم الإسلامي بين أنهار، ومياه جوفية، وأمطار. وتجمع أحواض الأنهار أكثر من دولة وتجعلها في إطار منظومة تكاملية واحدة، مثل نهر النيل، ويجمع بين مصر والسودان. وحوض نهري دجلة والفرات، ويجمع تركيا والعراق وسوريا.

والمياه ضرورة من ضرورات الحياة قال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وباعتبار المياه ضرورة فإنها «تغطي زهاء ٧١ ٪ من سطح الكوكب ويقدر حجمها بنحو ١,٤١ مليار م٣، توجد ٩٨ ٪ منها في المحيطات العالمية وفي البحار الداخلية»[٣]، وتمثِّل مياه البحار المالحة المصدر الرئيس للمياه العذبة من خلال ما يعبَّر عنه بالدورة الهيدرولوجية أي دوران المياه من الغلاف الجوي إلى مجمعات المياه والبحار ثم عودته للغلاف الجوي.

وتنقسم المياه العذبة إلى: موارد طبيعية تشمل مياه الأنهار والخزانات من مياه الأمطار والمياه الجوفية التي يحصل عليها الإنسان من خلال الآبار والعيون.

وموارد صناعية من خلال معالجة الإنسان للمياه المستعمَلة في مجال الصرف الصحي وإعادة استخدامها إلى جانب تحلية مياه البحر.

وتتهم المنطقة الإسلامية بقصور الموارد المائية فيها، والإحصائيات تخالف هذا الزعم؛ حيث إن الموارد المائية المتجددة (الطبيعية) في المنطقة العربية الإسلامية تبلغ ٢٤٥ مليار م٣ في السنة[٤].

هذه الإحصائية تبرز أهميتها على صعيد استعمال المياه؛ حيث «يبلغ إجمالي الكميات المستخدمة منها لكافة الأغراض سنوياً حوالي ٦٦ ٪ فقط، تستهلك الزراعة حوالي ٩١ ٪ من تلك الكميات، يليها الاستخدامات المنزلية ٥ ٪، ثم الصناعة بنسبة ٤ ٪[٥].

وبناءً على ذلك فإن هذه الموارد المائية الطبيعية في المنطقة العربية الإسلامية كافية لجميع الأغراض، وذلك فضلاً عن الموارد المائية الصناعية التي تميزت بها دول الخليج، من تحلية لمياه البحر عن طريق التقطير لمواجهة النقص الناجم عن نقص الموارد المائية الطبيعية، هذه المياه التي بلغت ٨ مليار م٣ في سنة[٦].

٣ باطن الأرض:

إن الحديث عمَّا في باطن الأرض هو في حقيقته حديث عن المعادن والطاقة في العالم الإسلامي؛ اكتُشفَت أو لم تُكتشَف، استُغلَّت أو لم تُستغَل.

أما بالنسبة للإنتاج في العالم الإسلامي، فلا يمكن الزعم بأن كل الأرض في الدول الإسلامية قد مُسحت مسحاً معدنياً شاملاً؛ حيث يرتبط ذلك بالإمكانيات الحديثة والاتفاقيات التي تُعقَد ليجري المسح للتعرف على المعادن المخبوءة في باطن الأرض؛ حيث يعتمد العالم الإسلامي على الدول المتقدمة تكنولوجياً في عمليات الكشف، التي قد تكون ضد صالح الدول الإسلامية، وعلى سبيل المثال بالنسبة للنفط في دول شرق آسيا؛ فإن شركة الكونسورتيوم التي تضم عدة شركات غربية تملك حصة كاملة في ١٢ منطقة تنقيب في كازاخستان، تشكل ١٠ ٪ دعت حكومة كازاخستان هذا التجمع لمسحها[٧]؛ وبناءً على ذلك فإن ٩٠ ٪ لم يتم مسحها بعد، وهناك تنافس من شركات أخرى للتنقيب فيها، ومما هو جدير بالإشارة أن إنتاج هذه الدولة يقدر بـ ٢٥ مليون طن من البترول[٨]. ويتضح مما تقدم وجود كمية أكبر لو جرى المسح بصورة كاملة. إن هذا المثال ينطبق على دول كثيرة من العالم الإسلامي.

وفي معرض إنتاج الطاقة في

(١) جامعة الدول العربية وآخرون، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، ١٩٩٨م، ص ٦٥.

(٢) عبد القادر الطرابلسي، «أضواء على مشكلة الغذاء بالمنطقة العربية الإسلامية»، كتاب الأمة، قطر، عدد (٦٨)، ١٩٩٩م، ص ١٠١.

(٣) معهد الموارد العالمية، «موارد العالم ١٩٩٢م - ١٩٩٣م»، ترجمة الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ص ١٩٦.

(٤) جامعة الدول العربية وآخرون، «التقرير الاقتصادي العربي الموحد»، أبو ظبي، ١٩٩٦م، ص ١٥٤.

(٥) المرجع السابق، ص٢٩.

(٦) جامعة الدول العربية وآخرون، «التقرير الاقتصادي العربي الموحد»، ١٩٩٥م ص٨١.

(٧) مجلة السياسة الدولية، مركز الأهرام للطبع والنشر، ٣١/١/١٩٩٨م.

(٨) د. رفعت العوضي، «عالم إسلامي بدون فقر»، مرجع سابق، ص ١٤١.

العالم الإسلامي ينبغي ملاحظة النقاط التالية:

١ - يُنتِج العالم الإسلامي خامات كثيرة: أهمها النحاس، والبترول، والقصدير، والمنغنيز، والرصاص، والحديد، والكروم.

٢ - تتميز كل دولة بمنتَج معيَّن: فمثلاً دول الخليج تنتج البترول، وإندونيسيا وماليزيا تنتجان البوكسيت، وتركيا لها أهميتها في إنتاج الفحم، تليها باكستان، وإيران والمغرب لهما أهميتهما في إنتاج الفوسفات تليهما تونس ثم الأردن[١].

وتبرز أهمية التكامل بين الدول الإسلامية من خلال هذا التباين في إنتاج المعادن، والتخصصية التي أنعم الله بها على العالم الإسلامي.

وتشارك الدول الإسلامية بالنصيب الأكبر في إنتاج البترول؛ ولكن بالنسبة للطلب العالمي للبترول الذي يوضح مدى فاعلية المنتج في التصنيع، نجد الدول الإسلامية لا تستهلك من بترولها إلا قليلاً؛ حيث يرتبط معدَّل الاستهلاك (زيادة ونقصاً) بمدى التقدم الصناعي والاقتصادي.

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

ثالثا: الموارد المتجددة في العالم الإسلامي:

إن المجهود البشري له أثره الكبير على الفعالية الاقتصادية؛ لأنه بمقدار ما يكون هذا المجهود موجَّهاً ومنظماً ومزوداً بالكفاية: من النوعية والتأهيل والاختصاص يكون الإنتاج أجود ويعطي النتائج المرجوة منه.

والمجهود البشري يعبَّر عنه بالعمل الذي يبذله الإنسان بجسمه أو بعقله في سبيل إنشاء منفعة أو إشباع حاجاته الأساسية والتكميلية والمجهود البشري بشقَّيه: العقلي والعضلي، له مقومات نتتبعها في ما يلي:

١ الصحة:

شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين تحسناً ملحوظاً في الواقع الصحي في مختلف دول العالم الإسلامي؛ وذلك في خدمات التحصين ضد الأمراض المعدية، وتطعيم الأطفال، وهو ما كان له الأثر الأكبر في انخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال. ومع ذلك فإن هناك نسبة كبيرة من السكان يعانون من سوء التغذية؛ ففي المنطقة الإسلامية العربية بصفة عامة فإن ٣٠ ٪ من السكان يعانون من سوء التغذية، وحوالي ٦٠ ٪ من الأطفال يحصلون على أقل من المعدل العالمي المعترف به من البروتين، والمنطقة العربية تستورد ٥٠ ٪ من حاجاتها الغذائية[٢].

ويمثل الحرمان من الرعاية الصحية الجيدة أولَ مراحل الحكم على البشر بالفقر، ويمثل المرض إحدى تجليات الفقر، ورافداً من روافده؛ فإن التمتع بصحة جيدة يساوي القدرة على العمل، ولهذه القدرة أهمية خاصة بالنسبة للفقراء الذين عادة ما يعملون في أنشطة مرهقة جسدياً، وبما أن الكسب يمثل عماد العيش للغالبية العظمى من الفقراء، فإن المرض يؤدي إلى تفاقم الفقر نتيجة الحرمان من الكسب. وفي السعودية فإن هناك أكثر من ٢٠٠ مليون ريال تحترق سنوياً بمدينة الرياض وحدها في شراء و استهلاك ما يقارب من ١٧٠ ألف علبة من السجائر المختلفة[٣].

تُرى ماذا لو جرى استغلال هذا المبلغ في صندوق خاص لمعونة فقراء الدول الإسلامية في الصومال وإريتريا؟

أيضاً الأسرة المصرية تنفق ٥ ٪ من دخلها على السجائر وتنفق ٢ ٪ من الدخل على الصحة[٤]. ومن ثَمَّ فهناك خطورة تعيشها الأقطار الإسلامية النامية والواقع الصحي فيها له أسوأ المردود على الاقتصاد؛ حيث إن زيادة الأمراض تتناسب طردياً مع البطالة والفقر، ومن ثَمَّ فإن الخسارة الكبيرة المتمثلة فى الطاقات البشرية التي هي عماد التنمية في كل دولة، وإن أي تجاهل لهذا العامل (الصحة) يمثل هدراً لقوى

(2) internet: http/www.un.org/arabic.
(3) internet: http/www.saudi-online.com.
(٤) د. إسماعيل سلام،«تقرير عن الصحة في مصر»، مجلس الشورى المصري، القاهرة، ٢٠٠٠م، تقرير غير منشور، ص ٤٣.

بشرية تحتاج إليها أي دولة؛ سواء كانت صاعدة أو هابطة؛ فهي وسيلتها للتنمية وغايتها، وأي إنفاق في اتجاه تحسين الصحة له مردوده الناجع على التنمية.

٢ التعليم:

إن العلم الذي نحن بصدده، هو الخاص باكتساب المعرفة والخبرات التي تؤهل الفرد ليكون عنصراً مفيداً منتجاً في مجتمعه، وهو الذي يعجز بدونه عن أداء رسالته الإنسانية على وجه مرضٍ وهذا العلم ليس وقفاً على صفوة من أفراد المجتمع، وإنما يجب أن يكون هناك قاعدة عريضة من المتعلمين تشمل نسبة هامة من السكان، وتتدرج من محو الأمية إلى تربية جيل من العلماء الباحثين.

ولكن الواقع العلمي والتعليمي في الأقطار الإسلامية مؤسف؛ إذ إن ٣٠ ٪ من أطفال العرب لا يلتحقون بالمدرسة من الأصل[١].

ومن ثَمَّ فإنهم ينضمون إلى الأميين الكبار، وهو ما يشكل عقبة خطيرة في وجه عمليات التنمية والتحديث من أجل اللحاق بركب العالم المتقدم.

وفي إحصائية للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) فإن نسبة الأمية في العالم الإسلامي تفوق ٤٦ ٪ من مجموع السكان الكلي؛ وهو ما يعني أنَّ نصف عدد سكان العالم الإسلامي لا يعرفون القراءة والكتابة[٢]. وتوفير وإتاحة التعليم الأوَّلي من العوامل التي لا غنى عنها من أجل دعم الشعب وتمكينه وزيادة قدراته. ويرتبط التعليم بالتنمية البشرية؛ إذ يحدث التعليم الحَراك الاجتماعي ويجعل هؤلاء المتعلمين وحدَهم القادرين على دفع عجلة التنمية، وأن غير المتعلمين يمثلون عبئاً ثقيلاً يبطِّئ معدلات النمو.

إن الفجوة تزيد في الاتساع من حيث مفاهيم الأمية التي تعني في أقطار العالم الإسلامي: الأمية الأبجدية. والأمية في اليابان تعني عدم الإلمام بقواعد التعامل مع الكمبيوتر.

وأصبحت العملية التعليمية في كثير من الدول الإسلامية، كـ: (الكَلِّ على مولاه أينما يوجه لا يأتي بخير). ومن التناقضات العجيبة أن يحدث هذا في العالم الإسلامي الذي أرسى الإسلام فيه قيمة العلم والتعلم، واستمرار طلبه كعنصر أساسي في الارتقاء بمستوى العمل البشري؛ فقد كان أول ما أمر به الوحي رسولَنا الأميَّ هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]؛ فالقراءة أساس العلم، وهي السبيل للمعرفة، كما أكد الله – سبحانه وتعالى – على تميز الذين يعلمون: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وينعكس ترسيخ هذه القيم والمبادئ الإسلامية المتمثلة في طلب العلم والتعلم وجعله فريضة له بها أجر في الوصول لمحددات الكفاية الإنتاجية للعنصر البشري إلى طاقتها القصوى، فهذه القيم تضع جذوراً عميقة في وجدان المسلم المقْدِم على القيام بمختلف الأعمال الاقتصادية؛ إذ تضيف إليه بُعداً آخر: هو البُعد الأخروي؛ فلا يجوز للفرد القعود عن أداء دوره في النهضة بالمجتمع، ولا يملك التقاعس عن القيام بواجبه في العملية التنموية.

وينبغي أن نشير إلى التكنولوجيا في الأقطار الإسلامية، فهي تكنولوجيا مستوردة وليست إبداعات محلية، بل إن هذا الاستيراد لا يراعي بيئة مستقبل التقنية فيجري استيراد آلات عالية التقنية بالدرجة التي تُلْغَى فيها وظائف الأفراد ويجري ذلك في دولة تمثل البطالة فيها أهم مشكلاتها الاقتصادية.

ولصناعة تكنولوجيا محلية وطنية لا بد أن تزيد الأقطار الإسلامية من الإنفاق على البحث العلمي، وهذا الإنفاق قد يكون أكبر من طاقة دولة فيمكن تجميع ميزانية أكبر للبحوث العلمية ومراكز البحث، وتوفير الأدوات اللازمة لإعداد الباحث ويجري ذلك من خلال تكامل اقتصادي يجمع إمكانيات العالم الإسلامي نحو انطلاقة تكنولوجية صحيحة، وخاصة أنها تمتلك عدداً كبيراً من الباحثين والعلماء، وتجربة باكستان في الطاقة الذرية خير شاهد على ذلك؛ وبناءً على ذلك تكون الأقطار الإسلامية قد بدأت بداية تكنولوجية صحيحة تمكِّنها من أن تتعامل دولياً في هذا المجال انطلاقاً من موقف الند، وليس من موقف التابع.

الخلاصة:

تعاني الدول الإسلامية من تخلف اقتصادي واسع المدى يتمثل في عدم استخدام الموارد المبدَّدة (الطبيعية)، والموارد المجددة (البشرية) أو قلة استخدامها، مع ما يترتب على ذلك من فقر وركود وتقهقر، وحتى الدول الغنية بالموارد المبدَّدة تبقى حالتها متخلفة على العموم؛ إذ إنها تفقد العنصر الآخر من الموارد المجددة الممثَّلة في العنصر البشري، تطويره وترقيته.

(١) د. محي الدين صابر، «الأمية مشكلات وحلول»،بدون ناشر،١٩٩٨م، القاهرة ص٣٠.

(٢) د. عبد العزيز التويجري، «الأمية في العالم الإسلامي»، مؤتمر «الأمية في العالم الإسلامي»، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، القاهرة ٢٠٠١م.

في مقبرة الإمبراطوريات
الحرب الأمريكية في أفغانستان

سيث ج. جونز(*)

عرض وتقديم: عبد الله بن محمد المديفر

تناولتُ في مقال (التوقعات: أهميتها وأثرها في الحروب)، المنشور في مجلة الحرس الوطني السعودية، العدد ٣١٨، أن التوقعات وسيلة حربية مهمة لا تقلُّ عن الوسائل الأخرى؛ حيث تؤثِّر التوقعات الإيجابية في رفع معنويات الجنود، وتثبيتهم، وبث الثقة والتفاؤل بينهم، كما تؤثر التوقعات السلبية في إحداث هزيمة نفسية لهم، فتُزعزع نفوسهم، ويغلب التشاؤم عليهم، وتحدث ثغرات في صفوفهم؛ وهو ما يضعف من إقدامهم، ومقاومتهم أعداءهم. وأشار المقال إلى أن للتوقعات السلبية أثراً في خلخلة التماسك الداخلي في الأفرد حتى عند الأذكياء منهم.

لذا كان الشيخان (أبو بكر وعمر) - رضي الله عنهما - عندما يُغزيان الجيوش يذكِّرونهم ما وعدهم الله في إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنُّجح.

وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن يقول للكفار: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، وهو كلامٌ حقٌّ، يكون له أثر وفعل في نفوس الكافرين، ويقذف الرعب في صدورهم .

وقد قال بعض المسلمين للأمريكان لـمَّا غزو أفغانستان: (ستُغلبون)، وليس هذا القول بالغريب على المسلمين؛ فهو في كتابهم الكريم؛ إنما الغريب أن يقول الأمريكيون أنفسهم لأهلهم: (ستُغلبون)، وأغرب منه أن يصدر هذا عن أساتذة أكاديميين، والأغرب أنهم ينتمون لمؤسسة بحثية مصنَّفة بالمرتبة الأُولَى في العالم[1]؛ أعني: مؤسسة (راند للبحث والتطوير)، وهي رائدة الدراسات المستقبلية بلا منازع.

من المفرح حقّاً لكل مسلم، ومن المبشرات بنصر الإسلام والمسلمين، أن يعترف العدو الغازي بأنه جاء إلى حتفه، وساقته نفسه إلى حيث يكون قبره.

لقد تمثَّل هذا الاعتراف في كتاب (في مقبرة الإمبراطوريات... حرب أمريكا في أفغانستان)، تأليف (سيث ج. جونز). وهذا الكتاب يمثِّل تطبيقاً عمليّاً لما جاء في المقال المشار إليه، وكان من المُفترض أن يكتبه أحد المسلمين، لكن

(١) تُصنَّف بالمركز الأول أو بقربه، بحسب المصدر التالي:
The Four Pillars of High Performance: How Robust Org - nizations Achieve Extraordinary Results. Paul C. Light. (McGraw-Hill companies. New York، ٢٠٠٥م). P x.

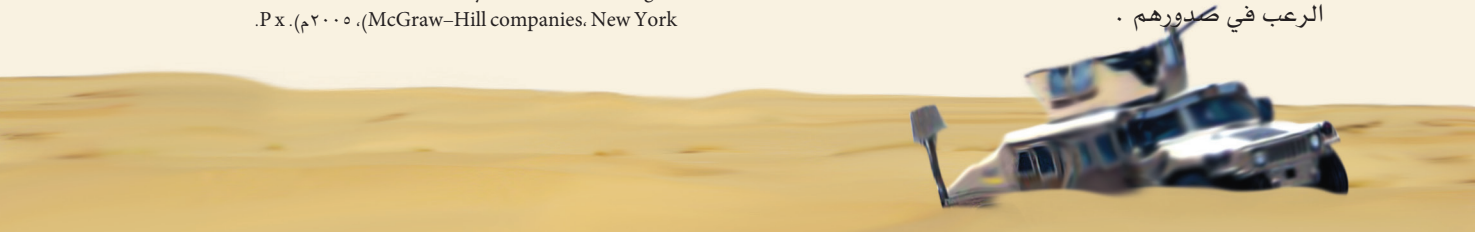

مما يَسُـــرُّ أنه كتبه باحث أمريكي لصيق بمراكز التأثير في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو يلتقي بالمسـؤولين من صناع القرار السياســي والعســكري هناك، وقد بَنى جُلَّ كتابه من خلال هذه المقابلات؛ فتأثيره سيكون أشد مما لو كتبه مسلم.

فهــذا الكتاب يمثل – في رأي كاتــب المقال – طعنة من مؤلِّف الكتاب في صدر أُمَّته، ولو لم يتضمَّن الكتاب إلا عنوانه لكفى بها طعنة قاتلة؛ وكيف لا يكون ذلك وقد تضمَّن الكتاب دلائل ونصوصاً تصبُّ في سياق عنوانه؟

لقد صدر الكتاب بالحجم المتوســط، بعنوان (IN THE GRAVEYARD OF EMPIRES)، فــي آخــر عــام ٢٠٠٩م وأوائــل عام ٢٠١٠م، نشــرته (w.w. Norton & Company, Inc) فــي (نيويورك ولنــدن). ويقع في ٤٣٠ صفحة سوى المقدمة.

تقسيم الكتاب:

بدأ الكتاب بسرد تسلســل تاريخي للحروب التي تعرضت لها أفغانســتان، وقُسِّــم الكتــاب إلى مقدمة وثمانية عشــر فصــلاً، تناول فيها الحديث عن المجاهدين، وطالبان، والقاعدة وأعمالها وأهدافها في أفغانستان وفي الدول العربية، وخطرها على أمريــكا، وتناول تاريخ الحروب في أفغانســتان، والحرب الأمريكية فيهــا، وبداية نجاحها، ثم تَراجعها، وضراوة المقاومة الأفغانية، وفُشــوَّ الفساد في الحكومة الجديدة في أفغانستان، وما نتج عنه من ازدياد زراعة الخشخاش والاتجار بالمخدرات.

ويتحدث الكتاب عن دعم باكستان لأمريكا، ودعمها أيضاً لطالبان.

ويتحدث الكتاب عن مشاركة حلف شمال الأطلسي للمرة الأولى اســتناداً إلى المادة الخامسة من معاهدة واشنطن عام ١٩٤٩م، وثيقتِه التأسيسية، وفيها: «يتفق الطرفان على أنَّ أي هجوم مســلح ضد بلد أو أكثر في أوروبا أو أميركا الشمالية يعتبــر هجوماً ضدهم جميعاً». ويشــير المؤلِّف إلى جملة من أســباب عدم الرضى عن مستوى مشــاركة الحلف، منها: أن معظم جنوده غير مدربــين في مكافحة (التمرد)، ومحدودية التزامه في نوع المشاركة في الحرب.

تاريخ الحروب في أفغانستان:

بــدأ الكتاب بذكــر التسلســل التاريخــي للحروب في أفغانســتان، وذكــر الحــروب القديمة قبل الميــلاد وبعده، والحروب البريطانية، والحرب الســوفييتية، وأخيراً الحرب الأمريكية. وفي ما يلي مجمل هذا التسلسل:

- تقريباً في سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، تكبد (الإكسندر الأكبر) وجيشه خسائر هائلة في معارك ضارية ضد القبائل الأفغانية، ولم يستطع (في أفغانستان والهند) مواصلة الفتح المذهل الذي ناله في آسيا وأوروبا. وينقل المؤلف عن المؤرخ الروماني (كينتوس روفوس) قوله: حقيقة، لم تكن أفغانستان دولة سهلة، فقد كانت أشــق وأشد حملة يقوم بها (الإكســندر)، وقد فشل جنوده في إخضاع الشعب الأفغاني، وانهارت قواته في المنطقة بعد وفاته.
- على مدى ٢٠٠٠ ســنة بعد ذلك التاريخ: كانت المنطقة صعبــة للغاية بالنســبة للإمبراطوريات الكبــرى من الغرب والشــرق، وبالنســبة للجيــوش العربية، وكذلــك الفاتحين الأسطوريين مثل (جنكيز خان)، و(تيمور لنك).
- في منتصف القرن التاســع عشــر الميلادي: أصبحت أفغانســتان دولة عازلة بين روسيا ومناطق النفوذ البريطاني؛ فبين عامَــي ١٨٣٩ – ١٩١٩م، خاضت بريطانيا ثلاث حروب وحشية في أفغانستان لمواجهة النفوذ الروسي في المنطقة.
- بين عامَي ١٨٣٩ – ١٨٤٢م : وقعت الحرب البريطانية الأُولَى، التي أدت إلى هزيمة ساحقة لبريطانيا؛ وخروج قواتها العسكرية المكونة من (١٦,٠٠٠) جندي.
- بين عامَــي ١٨٧٨ – ١٨٨٠م: وقعت الحــرب البريطانية الثانية، وبلغت ذروتها في معركة قندهار، وانتصرت فيها بريطانيا.
- في عام ١٨٩٣م : وقَّع وزير الخارجية البريطاني اتفاقاً مع الحاكم الأفغاني، الأمير عبد الرحمن خان، يقضي بفصل أفغانستان عن المستعمر البريطاني الهندي.
- في عام ١٩١٩م : وقعت الحرب البريطانية الثالثة، وأدَّت إلى معاهدة (راوالبندي)، وتضمنت الاعتراف باستقلال أفغانستان.
- في عام ١٩٧٩م : اقتحمت القوات السوفييتية القصر الرئاسي الأفغاني، وقتلت حفيظ الله أمين، ونصبت (بابراك كارمل) رئيساً.

■ فـي عام ١٩٨٦م : أعلـن الرئيس السـوفييتي (ميخائيل غورباتشوف) عن انسحاب جزئي للقوات السوفييتية من أفغانستان.

■ في عـام ١٩٨٩م : خـرج السـوفييت بأجمعهم من أفغانستان، دون تحقيق نصر.

■ في عام في ١٩٩٢م: أوقفت الولايات المتحدة الأمريكية شحن الأسلحة إلى الحكومة الأفغانية والجماعات الإسلامية.

■ في عام ١٩٩٤م : استولت قوات طالبان على قندهار.

■ في عام ١٩٩٦م : سقطت كابول بأيدي طالبان، وأُعلن الملا محمد عمر أميراً لأفغانستان.

■ في عام ٢٠٠٠م : سيطرت قوات طالبان على معظم أفغانستان.

■ فـي عام ٢٠٠١م : بدأت الولايـات المتحدة الأمريكية الحملة العسكرية ضد طالبان.

■ في عام ٢٠٠٤م : انسحبت منظمة أطباء بلا حدود من أفغانستان، إشارة إلى التدهور الأمني فيها.

■ في عـام ٢٠٠٦م : حصل خلاف وتوتر في قمة حلف شمال الأطلسي، بشأن زيادة عدد الجنود في أفغانستان.

■ في عام ٢٠٠٧م : انتقد وزير الدفاع الأمريكي بشدة بعض دول حلف شـمال الأطلسي؛ لعدم زيادة جنودها في أفغانستان، وعدم تقديم مساعدات أخرى رغم الحاجة الماسة إلى ذلك.

■ في عـام ٢٠٠٨م : جـرت محاولة اغتيـال الرئيس الأفغاني حامد كرزاي.

■ في عام ٢٠٠٩م : أعلن الرئيس الأمريكي زيادة القوات الأمريكية في أفغانستان بنسبة ٥٠ ٪.

■ في عـام ٢٠٠٩م : جرى تغيير وزير الدفاع الأمريكي، وكذا قائد القوات الأمريكية في أفغانستان.

■ في عـام ٢٠٠٩م : أعلن الرئيس الأمريكي أن القوات الأمريكية سـتخرج من أفغانسـتان في يوليـو ٢٠١١م، وأن الشعب الأفغاني سيكون مسؤولاً عن أمنه.

حرب الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان، والانهزام النفسي:

يشير المؤلف إلى أن تجربة الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانسـتان ، شأنها في ذلك شـأن الدول الكبرى التي غزت أفغانستان.

لقد حاول البريطانيون مِن قَبْلُ بعدد من الإستراتيجيات خلال حروبهم لأفغانستان ضد قبائل (البشتون)، لكنهم كانوا غير قادرين على السـيطرة على البلاد، وهو ما دعا (ونستون تشرشـل) إلى وصف رجال القبائل بأنهم: «شجعان وسباقون للحرب».

وقد عانى الاتحاد السـوفييتي مـن مصير مماثل؛ حيث واجهته مقاومة شرسة من الشعب الأفغاني، مات خلالها آلاف من الجنود الروس ومن المجاهدين، ولم يحقق أيَّ مكسب، بل تـرك البلاد مدمرة، وقَتلَ نحو مليون أفغاني، وأجبر أكثر من خمسة ملايين على الهروب خارج أفغانستان.

والمسؤولون في الولايات المتحدة الأمريكية من عسكريين ودبلوماسيين، يدركون جيداً تاريخ أفغانستان؛ ففي أواخر عام ٢٠٠١م قال الجنرال (تومـي فرانكس) قائد القيادة المركزية الأمريكية، مخاطباً الوزير (دونالد رامسـفيلد): «لقد اتفقنا على أن لا ننسـحب من البلاد مع وجود تشكيلات كبيرة من القوات التقليدية، ونحن لا نريد تكرار أخطاء السـوفييت... هذه المنطقـة احتضنت ثقافة الأبطـال المحاربين الفخورين بصد الجيوش الغازية لأكثر من ٢٠٠٠ سنة».

وينقـل المؤلـف عبارة (توماس أونيل) أحـد الأعضاء المخضرمـين في مجلس النواب الأمريكـي؛ حيث يقول: «قد وجـدت الإمبراطوريات السـابقة التي تجـرأت على دخول أفغانسـتان من الإسـكندر الأكبر إلى بريطانيـا العظمى، والاتحاد السوفييتي، وجدت أنَّ الدخول إلى أفغانستان مبدئياً شيء ممكن وسهل، لكنها لا تلبث حتى تجد نفسها غارقة في مقاومة محلية».

ووضَّحت المخابـرات الأمريكية للرئيـس (جورج بوش) أن العمليات لن تكون سـهلة بسـبب طبيعة الموقع الجغرافي لأفغانسـتان، وأنه سيكون هناك خسائر جسيمة، وأن الحرب ليست عادلة للجيش الأمريكي.

يقول المؤلـف: إن صعود حركة (التمـرد)[1] في أعقاب انتصار الولايات المتحدة على طالبان مؤسف للغاية؛ فالإطاحة بنظام طالبان كانت نعمة، لكنها تحولت إلى لعنة عندما بدأت المقاومة تطغى على مـوارد الولايات المتحدة القليلة الموجودة على أرض الواقع. ويعبِّر مسـؤول رفيع المسـتوى في الإدارة الأمريكيـة عن ذلـك بقوله: «لقد اجتذبنـا الهزيمة من بين فكَّي النصر»؛ «فالتمرد الأفغاني سـرعان ما تحول إلى عنف شديد... ونجح تنظيم القاعدة في إعادة تكوين قاعدته بمهارة فائقة من خلال استغلال ضعف الدولة الباكستانية في منطقة قبائل البشـتون؛ بدلاً من هزيمة القاعدة وحركة طالبان في عـام ٢٠٠١م؛ فقـوات التحالف بقيادة الولايـات المتحدة لم

(١) يُعبِّر المؤلف وغيره من المؤلفين الأمريكيين عن المقاومة بـ (التمرد)؛ للتمويه بعدم شرعيتها.

تتمكن إلا من إخراج القيادية الأساسية لتنظيم القاعدة ونظام طالبان من أفغانستان إلى باكستان. ولم تكن هذه النتيجة هي الحتمية المتوقعة، وإنما كان ذلك نتيجة لعدم قدرة الولايات المتحدة على إنهاء المهمة التي بدأتها، وتوفير الاهتمام والموارد اللازمة».

«وبحلول عام ٢٠٠٦م، شمل التمرد كل أجزاء دولة أفغانستان. وارتفع العدد الإجمالي لهجمات المسلحين إلى ٤٠٠ ٪ عما كان عليه عام ٢٠٠٢م حتى عام ٢٠٠٦م، وعدد الوفيات الناجمة عن هذه الهجمات زاد أكثر من ٨٠٠ ٪ في غضون الفترة نفسها».

لقد كانت هناك شروط مسبقة ومهمة لصعود حركة (التمرد)، من أبرزها: ضعف الحكومة الأفغانية الجديدة في جميع المستويات، وعدم قدرتها على توفير الخدمات الأساسية للمواطنين الأفغان؛ فالحكومة قد فشلت على جميع المستويات في توفير الحكم الرشيد، وانتشر فيها الفساد، وبرز فيها انعدام الكفاءة في إدارة مؤسسات الدولة والمجتمع.

ومما أسهم أيضاً في ارتفاع حركة (التمرد): أنَّ المساعدات الدولية الأمريكية وغيرها كانت من بين أدنى المعدلات في أي مهمة لبناء الدولة منذ الحرب العالمية الثانية، وهذه إحصائية مقلقة لدى المؤلِّف، بالنظر إلى أنه جرى إطلاق المهمة في أفغانستان في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م الإرهابية.

وينتقد المؤلف طريقة الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب؛ حيث أخذت في بداية غزوها عام ٢٠٠١م تكرِّر أخطاء الاتحاد السوفييتي والأنظمة التابعة له؛ فحاولت - كما حاولوا - فرض النظام بالكامل من أعلى إلى أسفل. ويَعُدُّ المؤلفُ هذا من الأخطاء، ويرى أن الصواب أن يكون العمل من أعلى إلى أسفل بتثبيت حكومة مركزية قوية، وفي الوقت نفسه يكون العمل من أسفل إلى أعلى، من خلال التقرب إلى السكان في جميع المناطق وسدِّ احتياجاتهم.

إنَّ تمركُز الولايات المتحدة الأمريكية وقوات التحالف في المدن الكبرى وتركهم الأرياف، سيؤدي بهم إلى مصير الاتحاد السوفييتي نفسه.

كما أن أمريكا تعلم اليوم كما علم السوفييت من قَبْل أنهم لن ينجحوا في حربهم ضد قادة (تمردٍ) يدفعهم الإيمان (الأصولي) الإسلامي.

وإنَّ تَذكُّرُ أمريكا للتجربة السوفييتية في أفغانستان، وإدراكها جيداً، يدفعها للقلق من أنها سوف تقع في الفخ نفسه.

ولـمَّا جاءت إدارة (أوباما)، وحاولت تغيير إستراتيجيات الحرب في أفغانستان، واجهتها مشكلة؛ وهي أن الأمريكيين قد يئسوا وبدؤوا يتساءلون: ما فائدة وجود أمريكا في أفغانستان؟ وماذا ستستفيد منه؟ وقال (جون ميرشايمر) الأستاذ في جامعة (شيكاغو) : «إنَّ على أمريكا أن تقبل الهزيمة».

بعد تلك النقول، والقراءات، والأحاسيس، يَذكر المؤلف في آخر كتابه المقبرة على مشارف (كابول)، التي تحتوي قبور مئة وثمانية وخمسين من الجنود والدبلوماسيين البريطانيين الذين قُتلوا خلال الحروب البريطانية بين عامي ١٨٣٩ - ١٨٤٢م، وبين عامي ١٨٧٩ - ١٨٨٠م، ويشير إلى أنه في الحرب الحالية جرى بناء نُصُب تذكاري حديث في هذه المقبرة، وأضيف في هذه المقبرة أسماء القتلى الأمريكيين والأوروبيين الجدد.

بهذه النفسية المهزومة يختم المؤلف آخر فصل في كتابه، ويسدل الستار بنظرة تشاؤمية سوداوية لمستقبل حرب الولايات المتحدة الأمريكية في أفغانستان.

ومن خلال اختصاصي في الدراسات المستقبلية، واستناداً إلى صدور هذا الكتاب بهذا العنوان، من مؤلِّف أمريكي له شيء من التأثير الأكاديمي والفكري والسياسي، أقول: إنَّ هذا الكتاب سيكون - والله تعالى أعلم - سبباً من الأسباب المتعددة الأخرى للهزيمة المتوقعة لأمريكا في أفغانستان؛ كما أنَّ صدور الكتاب، ورغبة مؤلفه بأن يكون مرجعاً أكاديميّاً، يمثل مظهراً من مظاهر بدايات هذه الهزيمة.

وحيث ظهر البغي جليّاً في أفعال الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة في هذا العقد من الزمان، فإنَّ البغي مُؤْذِن بالخراب. قالت العرب: «البغْي آخِرُ مُدَّةِ القوم. يُضرب في أن الظلم يؤذن بالانتهاء والدمار»[1]. وخيرٌ من هذا قول الله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

(١) تهذيب مجمع الأمثال للميداني، أحمد فهمي محمد، (الطائف، مكتبة المعارف، ١٣٩١هـ)، ص٦٨.

جدلية الفقر والإيمان

هاني إسماعيل محمد(*)
elberjaoui@gmail.com

لا شـــك أن الفقر من أخطر الآفات التي تصيب أنســـاق المجتمعات البشـــرية، وتؤثر ســـلباً علـــى أصعدتها المختلفة؛ فلا تخلو مشـــكلة بســـيطة ولا معضلة معقَّدة إلا وكان للفقر فيها نصيب قلَّ أو كثُـــر، بَيْدَ أن أخطر نتائج الفقر تكمن في تداعياته على البِنيَة المعرفية.

وتكمن الخطـــورة الحقيقة عندما تعبـــث جرثومة الفقر بالعقيدة الإيمانية للفقير[1]؛ إذ قد يصيبه الشـــك والريبة في حكمة الخالق – ســـبحانه وتعالى – حينما يرى الغني المترَف القاعـــد المتبطل تتدفق عليه الأموال من كل حدب وصوب، ثم يرى نفسه مع جِدِّه وعمله لا يجد ما يسد به رمقه.

كمـــا قد يعتقد الفقير أن الفقر الواقع عليه ما هو إلا قضاء الله وقدره الذي كُتِـــب عليه منذ الأزل، وليس ثمة انفكاك عنه، فلا وسيلة تجدي للخلاص منه، ولا عمل ينجي من براثنه؛ ومن ثَمَّ فلا داعيَ لمجرد المحاولة أو التفكير في ذلك.

إذن، لا غرابـــة أن يتخلى ذلـــك الفقير الذي اختلَّت لديه البنية المعرفية، وتزعزعت عنده العقيدة الإيمانية تحت وطأة الفقـــر وتداعياته عن معايير القيم والأخـــلاق؛ (فإن الفقير المحروم كثيراً ما يدفعه بؤسه وحرمانه – وخاصة إذا كان إلى

(*) محاضر بمعهد قرطبة للدراسات العربية.

(١) انظر: مشكلة الفقر وكيفية علاجها من منظور إسلامي: د. على محي الدين القره داغي، دراسة منشورة بموقعه www. qaradaghi.com

جواره الطاعمون الناعمون – إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم؛ ولهذا قالوا: صوت المعدة أقوى من صوت الضمير. وشرٌّ من هذا أن يؤدي ذلك الحرمان إلى التشكيك في القيم الأخلاقية نفسها، وعدالة مقاييسها)[1].

لم يَغبْ عن الإسلام ورسوله الكريم – وهو وحي يوحى إليه – تلك الآثار السلبية على العقيدة الدينية، وما ينبثق عنها من معايير ومفاهيم تُعلي من شأن الأنا والذات، وتحطُّ من القيم الإنسانية والأخلاق الإسلامية، حتى نُسب إلى النبي ﷺ أنه قال: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[2]، كما روي عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – أنه قال: (إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذني معك).

وفي لفتة إيمانية يستعيذ النبي ﷺ فيها من الفقر؛ ليحذِّر من مدى ضرره الجلي، وخطره الخفي؛ فيقول: «إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أَظلِم أو أُظلم»[3]، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»[4]، بينما علي – رضي الله عنه – يعلنها حرباً ضروساً على الفقر فيقول مقولته الشهيرة: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

وإن كان الفقر يحاول أن يبث سمومه في نفوس الفقراء الضعفاء، فإن الإيمان له أثره الفعال في استئصال شأفة الفقر، والقضاء على أدرانه، ولا يكون ذلك إلا بعد تصحيح إشكالية فهم الفقير للقضاء والقدر؛ حيث إن (تصحيح عقيدة الفقير بشأن القضاء والقدر له توظيفاته الاقتصادية المتعددة. من ذلك: أنه يدفع الفقير للعمل ليقضي على فقره، ويدفعه لحب المال فيسعى لجمعه وامتلاكه، ويدفعه لاعتبار العنصر المادي في الحياة فلا يهمله)[5].

وقد أزال عمر – رضي الله عنه – هذا اللبس (إذ مر بقوم من القراء فرآهم جلوساً، قد نكسوا رؤوسهم، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: هم المتوكلون. فقال: كلا بل المتأكلون يأكلون أموال الناس، ألا أنبئكم من المتوكل؟ فقيل: نعم. قال: هو الذي يُلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على ربه، عز وجل)[6].

وقد أمر الله – تعالى – مريم – عليها السلام – بهز النخلة؛ فقال – عزَّ من قائل –: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] وهو قادر على أن يرزقها من غير هزٍّ منها، وإنما أمرها بذلك ليكون بياناً للعباد: أنه ينبغي لهم ألا يَدَعُوا اكتساب السبب، وإن كانوا يعتقدون أن الله – تعالى – هو الرزاق.

ولقد اختزل النبي ﷺ القضية حين قال له رجل: يا رسول الله أَعقِلُها وأتوكل، أو أُطلِقُها وأتوكل؟ قال ﷺ: «اعقلها وتوكل»[7]؛ ليعلم من يزعم أن حقيقة التوكل في تركه الكسب والسبب أمرٌ مخالف للشرع الحنيف، وأن (حقيقة التوكل هي صدق اعتماد القلب على الله – عز وجل – في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها)[8].

ومن عدالة الإسلام أنه جعل من أركان الإسلام فريضة الزكاة التي تضمن التكافل الاجتماعي، وتحقق لأفراد المجتمع حدَّ الكفاية أو الكفاف على أقل تقدير، بَيْدَ أن هذه الفريضة لن تؤتي ثمارها المرجوَّة إلا مع عقيدة راسخة تفيض بالإيمان، تجعل الغني يعتقد اعتقاداً جازماً أن ما بين يديه من فضل آتاه الله إياه وأنعم عليه به؛ ما هو إلا مال الله المستخلف فيه وهو يستوجب أداء حقه إلى عباده.

وما انتشر الفقر الآن في العالم الإسلامي إلا لغياب هذه العقيدة وضعف الوازع الديني. قال علي – رضي الله عنه –: (إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يَجهَد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً)[9].

ولمواجهة الفقر لا بد من بيئة عقدية صحيحة يغمرها اليقين بالله، وتفيض بالإيمان به، وجميل التوكيل عليه، تبدأ بتصحيح عقيدة الفقير نفسه مروراً بالغني؛ ليتحمل كلٌّ منهما مسؤولياته وتبعاته، التي تنبع ذاتياً من عقيدة إيمانية واعية.

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٣.
(٢) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة .
(٣) صححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٤) صححه الألباني في صحيح النسائي .
(٥) عالَم إسلامي بلا فقر: د. رفعت السيد العوضي، كتاب الأمة عدد (٧٩) لسنة ٢٠٠٠م، قطر، ص٤٧.
(٦) الاكتساب في الرزق المستطاب: محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٢٨.
(٧) حسنه الألباني في صحيح الترمذي.
(٨) جامع علوم والحكم: لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ص٤٣٦.
(٩) رواه المنذري في الترغيب.

فخ بين أغصان الزيتون

تزايـــدت التصريحات الواهية في المنطقة عـــن تنوع المنابر ما بين عالمية وإقليمية، خاصـــة بعد زيارة أوباما لمصر وخطابه الشـــهير من جامعة القاهرة. ويبدو أن أســـلوب الرئيس الأمريكي ولهجته نالتا إعجاب الكثيرين ووجدتا قَبولاً لدى أطراف عديدة.

وأخـــذ نتنياهـــو بركوب الموجة؛ فمرحلة الخطابات قد بدأت وها هي تجني تصريحات التأييد؛ فإذا به يتحدث عن احتمال قيام دولة فلسطينية ولكن مع الالتفاف على حقوق الشعب الفلسطيني الثابتة؛ غيرَ عابئ بهزالية الضغط الغربي (المصطنع)، ولكنه رغم كل تزيينه وتجميله زاد مســـماراً آخر في نعش التســـوية المتعفنة على قاعدة (غربان تقلِّد هديل الحمام، فأنَّى لها أن تنجح؟).

لطالما قلَّدت غربانٌ هديل الحمام ومنَّى كثيرون أنفسهم؛ ولو بنيل جزء يسير من المرام، وتباكوا كثيراًعلى ما يسمونه (الفرص الضائعة)؛ بل من شدة ما جلدوا أنفسهم وذواتهم أُطلِق عليهم (مثقفو الذريعة) لِما وفَّروا للمعتدين وللاحتلال من ذرائعَ ومبررات، وقولهم لو لم نفعل كذا لما حدث كذا وكذا، على قاعدة (تنجح الغربان بالهديل، إن صفق المستمعون).

فلماذا ينخدع كثيرون بصوت النعيق ويغرُّهم على قبحه وبشـــاعته، وهنا يبرز تســـاؤل: أين وجه الجمال في الدعوة البنيامينيـــة إلى يهودية الدولة؟ وأين الحُسْـــن في إلغاء حق عودة اللاجئين؟ وأين الوداعة والروعة في حرمان شـــعب فلسطين من عروس عروبته وتاريخ مجده مدينة القدس المباركة؟

لماذا نقنع أنفسنا – والضمير عائد على المخدوعين بالبريق، والمهرولين إلى الفخاخ بين أغصان الزيتون – أننا نطرب بسماع الدعوة لتجميد الاستيطان في الوقت الذي تحذِّر فيه الهيئة (الإسلامية – المسيحية) في القدس من أن الإعلانات والمصادقات الحكومية بدأت في الشـــروع ببناء ٥٨٠٠ وحدة اســـتيطانية في عدد من مستوطنات القدس، تقدَّر طاقتها بأكثر من ٥٠ ألف مستوطن .

لقد فهم المتشـــددون الصهاينة نعيق نتنياهو وخطاب أوباما فلم يُظهِـــروا أي ردٍّ فعلٍ قوي يناهض الدعوة لتجميد الاستيطان؛ فنتنياهو قبل يومين كان مناهضاً لقيام دولة فلسطينية ذات سيادة وما زال – على حدَّ قوله – ملتزماً بمواقفه الجوهرية.

لكن عزاءنا أن في شعبنا وأمتنا من فهم قول الشاعر:

لا تـــخـــدعـــنَّـــك غـــربـــانٌ وإن نـــعـــقـــتْ

بـــين الـــزهـــورِ؛ فـــصـــوتُ الـــشـــرِّ مـــفـــضـــوحُ

فـــلا تـــعـــجـــلْ وكـــن رجـــلَ الـــهـــدى؛

فـــإن الـــفـــخَّ فـــي الـــزيـــتـــون مـــطـــروحُ

فلم يخدعهم النعيق وأعينهم دائماً على الفخ؛ لئلا يصيبهم ما أصاب القوم، بل يتمسكون بالثوابت ولا يغريهم التلاعب بالكلمات وتوظيف الأحاديث والآيات.

م. محمود سمير

كاتب من غزة

الشباب المفترى عليه

أرى أن الشـــباب هو الطاقة العظمى المهدرة في أي أمة؛ حينما لا يحسن استغلالها الاستغلال الأمثل، والشـــباب هو قدم الأمة ويدها، وهو الصانع لحَراك أي مجتمع.

وقبل أن نطالب شـــباب أيِّ أمة بالانتماء إليها - وهو لا شـــك القاعدة التي يمكن أن يقام عليها صرح نهضتهـــا - أقول: قبل ذلك يجب علينا الأخذ بيده من السقوط في مستنقع يأسه واستسلامه.

لذا أرى أن البطالة هي المساحة المعتمة في سماء الحلم؛ إذ كيف يفكر الشـــباب وهـــو يائس، بل كيف ندعـــوه إلى الانتماء ونحن لا نوفر له الحد الأدنى من الحياة الكريمة؟

حينمـــا نرى قِطاعـــاً عريضاً من الشـــباب يقوم بتعطيل عقله فلننظـر إليهـــم: مـاذا يصنع هؤلاء؟ ما هي وظائفهم؟ وهل تســـهم دخولهم فـــي إعادة الثقة المفقودة فـــي أحلامهم، أم أنها تضغـــط على الرمق الأخير من آمالهم حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

إن الطامـــة الكبرى: أن يجد الطالب نفســـه بعد حصاد أعوامه الكثيرة الشـــاقة أنـــه كان واهماً وأن الحلم قد تبخر ثم يصبح هذا المفترى عليه نموذجاً لمن يأتي بعده من إخوانه من الشباب الواعد الأصغر سنّاً الذي سوف ينظر بعين الاعتبار إلى نموذجه وهو على هذا القدر من اليأس والشعور بالإحباط.

إن المجتمع الشـــبابي في بلادنا يحتاج إلى إعادة صياغة منظومته واكتشـــاف هويته من جديد ولن يتم له ذلك وهو عاطل أبداً.

فعلينا إذاً قبل أن نمنحه كتاباً يقرؤه أو نجود عليه بنصائح إرشادية، أن نشـــاركه قضيته الأم (البطالة)، ذلك المارد القابع في أحلامـــه والماثل دائماً في فكره ووجدانه.

محمد محمد علي جنيدي
m_mohamed_genedy@yahoo.com

تربية المسلم لنفسه

إن تربية المسلم لنفســـه، إنما هي وقاية له من عذاب اللـــه وناره. ووقاية النفس من عـــذاب الله، كما قال: ابن ســـعدي - رحمه الله - تكون: (بإلزامهـــا أمر الله امتثالاً، ونهيه اجتناباً والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب).

وتتجلى في هـــذا المعنى تربية النفس التي هي مقدَّمة على وقاية الأنفس الأخرى على أكمل وجه.

قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ومن الذي يربي الإنســـان عندما يبلغ ســـن العشرين أو الثلاثـــين أو أكثر من ذلك؛ وذلـــك لاعتقادٍ أبويٍّ خاصة والنـــاس عامة: أنـــه أصبح كبيراً في الســـن، وهو أعرف بمصلحة نفسه، أو لأنهم مشغولون عنه بأمور دينهم، وهو ما يضيِّع عليه فرص الطاعات ومناسبات الخير. ويمضي العمر وهو لـــم يتدارك النقص أو التقصير الذي وقع فيه، فيتحسر عند ساعة الموت؛ حيث لا ينفع الندم.

والحســـاب يوم القيامة من الله لعباده سيكون حساباً فردياً، مهما أدَّعى الإنســـان أن الآخرين كانوا ســـبباً في إضلاله وانحرافه وإهمالـــه. قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُـــمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليست بينه وبينه ترجمان».

ولا يخلو أي إنسان من عيوب ونقائص، ومن الوقوع في شـــيء مـن التقصيـر والمعاصي، قلَّ ذلـك أو كَثُر، فالأنبياء هم المعصومون فقط؛ لذلك فإن المسلم بحاجة إلى إصلاح تلك الجوانب قبل أن تســـتفحل، ولا يستطيع أن يصحح ما لديه من أخطاء بالمستوى الشامل المستمر؛ إلا عندما يقوم بهـــذه المهمة عن طريق تربية النفس؛ لأنه أعرف بنفســـه، وأدرى بدخائلها وأســـرارها، وهو بذلك أقدر على ضبطها على منهج فاضل وخُلُق كريم؛ لأنها السبب الأول بعد هداية الله - تعالى - في ثبات المسلم على طريق الإيمان والهداية.

كمـــا أنها خط الدفاع الأول لمواجهـــة الفتن والمغريات التي أصبحت تحيط بالمسلم في هذا العصر.

هويدا على الأمين

العلماء وهموم الأمة

أحمد الصويان

قُبَيل سقوط الاتحاد السوفييتي كانت بعض المؤسسات الخيرية الخليجية قد بدأت الدعوة والتواصل مع المسلمين في آسيا الوسطى وتتارستان وداغستان... وغيرها. وفي هذه الأثناء زار وزير العدل السوفييتي مدينة الرياض، فرأت إحدى المؤسسات الخيرية دعوته لحفل غداء، لعل في ذلك فرصة لتسهيل أعمالها الإسلامية في دولة معقدة جداً في أنظمتها وإجراءاتها القانونية، وتتوجس خيفة من المؤسسات الإسلامية خصوصاً.

فطلبوا مني أن أذهب إلى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله تعالى – أدعوه لحضور هذه المناسبة، فلما كلمته أطرق برأسه مفكراً، ثم أخذ يسبح ويذكر الله – تعالى – ثم قال: نعم سوف أحضر بإذن الله.

فاستغربت كثيراً من قبوله الدعوة، وقلت له: بصراحة يا شيخ دعوتك وكنت أظن أنك لن تقبل، فهذا الوزير يمثل دولة شيوعية معادية للمسلمين!

فسكت قليلاً ثم قال: هذا صحيح، ولكنها فرصة لمطالبته بحقوق المسلمين المصادَرة؛ فالحكومة السوفييتية استولت على المساجد والمدارس والأوقاف الإسلامية، وضيقت على المسلمين، وقتلت العلماء والخطباء والأئمة، وأخشى أن أعتذر عن الدعوة فنأثم جميعاً بسبب تقصيرنا في الدفاع عن حقوق المسلمين.

وفعلاً جاء سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز – رحمه الله تعالى – إلى الغداء، وجلس بجوار الوزير السوفييتي، وطلب المترجم، وتحدث معه أكثر من نصف ساعة.

وأحسب أن هذا الموقف من سماحة الشيخ – رحمه الله تعالى – ليس موقفاً عابراً، بل يدل دلالة عميقة على ثلاثة أمور:

الأول: عمق البصيرة، وبعد النظر: فسماحة الشيخ تجاوز الرؤية القريبة من أجل تحقيق المصلحة البعيدة التي تقوم بها الحجة، وتبرأ بها الذمة، وهذا من فقهه وبُعْد نظره.

الثاني: الشعور بالمسؤولية، والغيرة على حرمات الأمة: فرغم كثرة أعمال الشيخ إلا أنه كان متابعاً جيداً لشؤون المسلمين في العالم، حريصاً على التواصل معهم ودعمهم، وأخبار الشيخ في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

الثالث: الجرأة في الحق، والحرص على بذل النصيحة: فاللباقة والسياسة لا تمنع من المطالبة بالحقوق، والسعي لرد المظالم.

إن مسؤولية العلماء الربانيين كبيرة جداً، ولا يجوز اختزالها في بعض الشؤون المحلية مهما كانت كبيرة؛ فالأمة حينما تُنتقَص كرامتُها، ويتطاول البغاة والمفسدون عليها، فإن الأعناق تشرئب بحثاً عن العلماء الربانيين لتصدر عن رأيهم، وتسير في سبيلهم. وما أجمل قول العز بن عبد السلام: (ينبغي لكل عالم إذا أُذِلَّ الحقُّ، وأُخمِل الصوابُ، أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أَوْلى منهما. وإنْ عزَّ الحق فظهر الصواب أن يستظل بظلهما، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما)[1].

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: (٨/ ٢٤٥).

دورات معتمدة

لا خوف من

الإلقاء

بعد اليوم ...

كن خطيب زمانك

قالوا عن الدورة

دورة الالقاء أعادت لي الثقة بالنفس

الآن اصبحت أقول ما أريد وأحسن ما أقول

دورة الألقاء دورة تعلمك الثقة بالنفس وتقضي على الرهبة

بدأت الدورة برعب الإلقاء وانهيتها بحب المنبر

- تم تنفيذ (٢٥٠) دورة.
- وتدريب ١٢٠٠٠ متدرب ومتدربة.
- وتقديم ١٠ دورات دولية.
- وتقديم ٨٥ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية.

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

* كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
* كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
* التعرف على أسرار التأثير.
* تنمية مهارات الإصغاء.
* التعامل مع الأسئلة المفاجئة.
* تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.

الخطيب الصغير

دورات إلقاء للأبناء:

+ آداب اجتماعية
+ علوم رجال
+ لبس المشلح

من إصداراتنا
كتاب لماذا نخشى الإلقاء

ألبوم فن الإلقاء

مدربون سعوديون

خبرة ٢ اسنة

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات:
العبيكان وجرير

مركز الإلقاء: أول مركز متخصص في الإلقاء والمواجهة
الرياض هاتف: ٠١/٤٧٧٩٩٩٢ جوال ٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣/٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤
البريد الإلكتروني: www.alelqa.com

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص (٢١٤/٤٨٩٥)

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠